

سینغونڈ فروینڈ

# موسیٰ وَ التَّوْحِيدِ

ترجمہ:

جورج طرابیشی

دارُ الطَّلِيقَةِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ  
بِیْرُوت

موسى والتوحيد

**جميع الحقوق محفوظة  
لدار الطليعة للطباعة والنشر**

بيروت - لبنان

ص.ب ١١١٨١٣

٣١٤٦٥٩ }  
٣٠٩٤٧٠ } تلفون

**الطبعة الاولى**

حزيران (يونيو) ١٩٧٣

**الطبعة الثانية**

آب (أغسطس) ١٩٧٧

**الطبعة الثالثة**

ايار (مايو) ١٩٧٩

**الطبعة الرابعة**

شباط (فبراير) ١٩٨٦

هذه ترجمة كتاب

**Moïse Et  
Le Monothéisme**

**Par  
Sigmund Freud**

**Editions Gallimard**

**1948**

## الفصل الأول

موسى ، مصري



ان تجريد شعب من الشعوب من الرجل الذي يحتفي به على انه اعظم ابناؤه ليس بمهمة بهيجة ينجرها المرء بخفة قلب . ولكن ليس ثمة من اعتبار ، مهما جل ، بقادر على اغوائي بتجاهل الحقيقة باسم مصلحة قومية مزعومة . ولاسيما ان كل شيء يحملني على الاعتقاد بان ايضاح نقطة واحدة من المشكلة لقمين بتسليط الضوء على مجمل الوقائع وكشفها .

ان موسى ، الرجل الذي كان للشعب اليهودي محررا والذي وهب هذا الشعب شرائعه وديانته ، ينتمي الى عصر موغل في القدم يبيح لنا ان نتساءل على الفور هل ينبغي فعلا ان نعدده شخصية تاريخية ام انه لا يعدو ان يكون شخصا خرافيا . واذا اخدنا بالفرض الاول ، فلا مناص من الافتراض بانه عاش فسي القرن الثالث عشر ، او ربما في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ونحن لا نملك عنه من معلومات سوى تلك التي تقدمها لنا الكتب المقدسة والمآثورات اليهودية المكتوبة . وبالرغم من اننا لا نستطيع ان نقطع بيقين بصدد هذه النقطة ، فان معظم المؤرخين يتفقون

على الاعتقاد بأن موسى قد وجد حقا ، وبأن الخروج من مصر ، الذي ارتبط اسمه به وما يزال ، قد حدث فعلا . ولقد وجد من يزعم بحق ان تاريخ اسرائيل اللاحق يصبح عصيا على الفهم اذا نبذت تلك الفرضية . وبالأصل ، ان العلم المعاصر يعالـج موروثات الماضي بقدر اعظم بكثير من الحذر والتحرز مما كان يفعل في بداياته .

ان ما يسترعي انتباهنا في شخصية موسى ، في المقام الاول ؛ هو ان اسمه بالعبرية يلفظ «موشي» . فما اصل هذا الاسم ومعناه ؟ معلوم ان قصة «سفر الخروج» تقدم لنا من الإصحاح الثاني جوابا . فقد جاء فيها ان اميرة مصرية دعت الطفل موسى بعد ان انتشلته من النيل ، مبررة اشتقاقها اختيارها لهذا الاسم بكونه قد «انتشل من الماء» (١) . بيد ان هذا التفسير مغلوط قطعا . فأحد واضعي «المعجم اليهودي» (٢) يؤكد ان التأويل التوراتي لاسم «من انتشل من الماء» هو اشتقاق شعبي للكلمة يتعارض اصلا مع الصيغة العبرانية المتعدية : موشي ، التي يمكن ان تعني على ابعد تقدير «الساحب ثانية» . وهذه الحجة تستند ايضا الى الواقعتين التاليتين :

١ - من غير المعقول الافتراض باميرة مصرية المعرفة بأصول الاشتقاق في العبرية ؛ ٢ - من المؤكد تقريبا ان الماء الذي انتشل منه الصبي لم يكن ماء النيل .  
وبالمقابل ، كان هناك على الدوام ، ومن اكثر من جهة ، من

---

١ - العهد القديم - سفر الخروج - الاصحاح الثاني - الآية العاشرة :  
«ودعا اسمه موسى وقالت اني انتشلته من الماء» . «الترجم» .  
٢ - Judisches Lexikon شرح به هرليتز وكيرشنر ، المجلد ٤ ،  
١٩٢٠ . المنشورات اليهودية ، برلين .



افترض بأن اسم موسى قد اقتبس من اللغة المصرية . وبدلا من ان استشهد بجميع المؤلفين الذين اخذوا بوجهة النظر هذه : سأنقل هنا مقطعا مترجما عن مؤلف حديث لـ «ج» هـ . بريستد<sup>(٢)</sup> ، واضع «تاريخ مصر» الممدود حجة في الموضوع : «من المهم ان نلاحظ ان اسمه : «موسى» كان مصرياً : فالكلمة المصرية «موسى» تعني «طفل» . وهي اختصار لبعض صيغ من الكلمة عينها اكثر كمالاتا ، نظير «آمون - موسى» ، اي «آمون - الطفل» ، او «بتاح - موسى» ، اي «بتاح - الطفل» ، علما بأن هذه الاسماء نفسها هي في الاصل اختصار لصيغ كاملة : «آمون (أنجب) طفلا او بتاح (أنجب) طفلا . وسرعان ما حلت كلمة «طفل» محل الاسماء الكاملة المركبة ، وهكذا تتكرر كلمة «موسى» بكثرة في الاوابد المصرية . ولا شك في ان والد موسى قد اعطى ابنه اسما تدخل في تركيبه لفظة آمون او بتاح ، فاسقط فيما بعد اسم الإله وبقي اسم الطفل ببساطة : «موسى (موس)» . (اما حرف السين الموجود في نهاية كلمة «Moses» فقد اضيف اضافة في الترجمة اليونانية للعهد القديم ، وهو ليس من اللغة العبرانية التي يلفظ بها هذا الاسم «موشي» ) . اتني اذ أنقل هنا حرفيا المقطع الآنف من كتاب بريستد ، لا أشعر في نفسي بأي استعداد لتحمل مسؤولية ما ورد فيه من تفصيل . وان شيئا من الدهشة ليعتورني ايضا نظرا الى ان بريستد قد اغفل ، في تعدادها ، ذكر اسماء مماثلة مقتبسة عن اسماء الآلهة تتردد في قائمة ملوك مصر : احموس ، تحوتوس ، رعموس (رمسيس) .

٢ - The Dawn of Conscience (لجر الوجدان) ، لندن ١٩٢٤ ،

كيف نفر ان ما من عالم من العلماء الكثيرين الذين اقروا بالاصل المصري لاسم موسى ، قد استنتج او على الاقل اقترح ان حامل هذا الاسم قد يكون هو نفسه مصريا ؟ اننا لا نتردد في العصر الراهن في استنتاج مثل هذه الاستنتاجات ، بالرغم من ان كل امرئ يحمل اليوم اسمين بدلا من اسم واحد : اسم الاسرة والاسم الشخصي ، وبالرغم من ان التبديل في الاسماء والتكيف مع شروط حياة جديدة ما يزالان ممكنين . وهكذا لا تعورنا الدهشة اذا علمنا ان الشاعر شاميسو (٤) من اصل فرنسي ، وان نابليون بوناپرت ، على العكس ، من اصل ايطالي . كما اننا نعلم من غير ان نتباغت بان بنيامين دزرائيلي ، كما يوحي اسمه ، كان يهوديا ايطالياً . وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بان الانتماء الى شعب من الشعوب في العصور القديمة والسحيفة لا بد ان يكون اكثر بروزا وادعى الى الانتباه ، بل اكيدا ثابتا . ومع ذلك ليس هناك ، على حد علمي ، من مؤرخ خلص الى استنتاجات مشابهة فيما يتعلق بمثال موسى ، ولا حتى بين اولئك المؤرخين المستعدين للاقرار ، نظير بريستد ، بان موسى «قد تثقف بكل حكمة مصر (٥)» (٦) .

ما الذي حال اذن بين المؤرخين وبين الخلوص الى هذه النتيجة ؟ ليس تخمين ذلك بالامر اليسير . ربما كانت العلة التوقير الاسر الذي يفرضه الماثور التوراتي . وربما كان من

٤ - شاميسو دي بوتكور : كاتب الماني من اصل فرنسي (١٧٨١ - ١٨٣٨) .  
«الترجم»

٥ - المصدر الآنف الذكر ، ص ٣٣٤ .

٦ - للاحظ ان فرضية الاصل المصري لموسى قد وجدت من يرددها ، من اقدم الزمان وحتى يومنا-هذا ، ولكن دونما توقف عند اسم النبي .

ظاهر الفظاعة الاقرار بان موسى قد لا يكون عبريا . واننا لنلاحظ على كل الاحوال ، وحتى في حال الاعتراف بالاصل المصري لاسم موسى ، انه لم يستخلص من هذه الواقعة اي استنتاج حول اصل النبي نفسه . واذا كان لمسألة قومية هذا الرجل العظيم قدر ، ولو ضئيل من الاهمية ، فلست ارى كيف لا نتلقى بالترحاب كل مجهود لتقديم مادة جديدة كفيلة بان تعطينا جوابا .

هذا بالتحديد هدف مقالي الصغيرة التي يعطيها تطبيقي فيها لمعطيات التحليل النفسي الحق في ان تنشر في مجلة «ايمافو» (٧) . ولا ريب في ان محاجتي لن تثير سوى اهتمام اقلية من القراء ممن سبق لهم ان تألفوا مع وجهات نظر التحليل النفسي ، وممن يملكون القدرة على تقييم نتائجها . واملنا ان يكون لاستنتاجاتنا قيمة في نظر هؤلاء القراء .

في عام ١٩٠٩ نشر أ. رانك ، بناء على نصيحتي ، وكان ما يزال يومئذ واقعا تحت تأثيري ، نشر بحثا عنوانه «أسطورة ميلاد البطل» (٨) . وقد قال فيه : «ان جميع الشعوب المتمدنية الكبيرة بلا استثناء تقريبا . . . قد عظمتم في الشعر والاسطورة من باكر الأزمان ! بطالها : الملوك والامراء الأسطوريين ، مؤسسي الديانات او السلالات المالكة او الحواضر ، وباختصار أبطالها

---

٧ - ايمافو : مجلة كان فرويد يصدرها في فيينا ، مختصة في التحليل النفسي المطبق على علوم الطبيعة والفكر . « المترجم » .  
٨ - الدكتور الخامس من «كتابات في التحليل النفسي التطبيقي» ، فرويدوتيكه ، فيينا . وهدفي أبعد ما يكون من السعي الى الانتقاص من تسدر مساهمة رانك في هذا العمل .

القوميين . وقد راق لها ، بوجه خاص ، ان تسبغ على تاريخ ميلاد هؤلاء الابطال وحدائهم ملامح خارقة . ومن الحقائق المعروفة منذ طويل الازمان والتي لفتت انتباه العديد من العلماء التشابه المذهل ، بل التطابق في تلك القصص لدى شعوب متباينة ، تفصل بينها في غالب الاحيان مسافات شاسعة» . ولو طبقنا طريقة غالتون كما فعل رانك وأعدنا بناء «أسطورة نموذجية» تبرز للعيان السمات الاساسية المشتركة بين تلك القصص ، حصلنا على الصيغة التالية :

ان البطل سليل اسرة زفيعة المقام الى ابعد الحدود ، وهو بوجه عام ابن ملك .

وميلاده مسبوق بمصاعب كاداء ، وعلى سبيل المثال بفترة تعفف او عقم مديد ، او ان الوالدين قد اضطرا ، بحكم نواهِ وعوائق خارجية ، الى معاشرة سرية فيما بينهما . واثناء الحمل او حتى قبله تعلن نبوءة ما (حلم او عراف) ان ميلاد الطفل سيكون سببا في كارثة ، والاب بوجه عام هو المهدد بها .

وبناء عليه يصدر الاب (او من ينوب منابه ، كائنا من كان) امره بقتل الطفل او بتعريض الوليد لخطر مميت . وبوجه عام ، يوضع الرضيع في سلة صغيرة ويسلم امره لتيار الماء . ويجري بعد ذلك اتقاذه من قبل حيوانات او على ايدي اناس بسطاء (رعاة على سبيل المثال) ، وترضعه اثنى حيوان او امرأة وضيعة .

وحين ينسب عن الطوق يعثر على والديه بعد العديد من المغامرات ، وينتقم من ابيه . وبعد ان يسترد هويته يحظى بالشهرة والمجد .

واقدم من نعرفه من الاشخاص الذين ارتبطت بهم خرافة الولادة هذه سرجون الاكادي ، مؤسس بابل في حوالي عام

٢٨٠٠١ ق.٢٠٠ . ومن المفيد ان نثبت هنا القصة التي يقال انه مؤلفها :

«انا سرجون ، الملك القوي ، ملك اكاد . كانت امي من عدارى الهيكل . لم اعرف ابني ، بينما لبث اخو ابني في الجبل . وفي مدينة آزو بيراني ، على ضفاف الفرات ، جلبت امي بي . ولدني سرا ، ووضعتني في سلة من الاسل وسدت فتحاتها بالجلبان وتركتني للتيار حيث لم اغرق . وحملني التيار حتى آكي ، غراف الماء . وانتشلتني آكي ، غراف الماء ، الطيب القلب ، من المياه . ورباني آكي ، غراف الماء ، وكأني ابنه . وصرت بستاني آكي ، غراف الماء . وحين كنت بستانيا ، مال قلب عشتار الي . فأصبحت ملكا وحكمت طوال خمسة واربعين عاما .»

وآلف الاسماء الينا ، في السلسلة التي تبدأ مع سرجون الاكادي ، اسماء موسى وقورش ورومولوس . بيد ان رانك أمكنه ان يجمع عددا كبيرا من وجوه الابطال الذين تتردد اسماءهم في الاشعار او في الاساطير والذين عاشوا طفولة مشابهة كليا او جزئيا ، وعلى سبيل المثال أوديب ، كارنا ، باريس ، تيليفوس ، برسيوس ، هيراقليس ، جلجامش ، آمفيون ، زيتوس ، الخ . وقد اتاحت لنا أبحاث رانك ان نعرف مصدر هذه الاسطورة ومنحاهها . ويكفي ان اشير اليهما باختصار : فالبطل هو من يتصدى لوالده بشجاعة ، ويتغلب عليه في خاتمة المطاف . والاسطورة التي تحظى باهتمامنا هنا تحكي قصة هذا الصراع ، مرجعة اياه الى ما قبل تاريخ البطل ، ما دام الطفل قد رأى النور ضد مشيئة ابيه ونجا من مكائد هذا الاخير . ووضع الطفل في سلة تمثيل رمزي صريح للولادة ، اذ ترمز السلة الى بطن الام ، والماء الى السائل الساببيائي . والعلاقات بين الوالدين والاطفال تمثل ، في عدد لا يحصى من الاحلام ، في فعل الانتشال من الماء او الانتقاذ من الماء . وحين يطبق الخيال الشعبي اسطورة

الولادة هذه على شخص مشهور ، فهذا للتأكيد على ان هذا الشخص قد تقيّد بالمخطط النموذجي لحياة بطل . ولكن مصدر الاسطورة كلها يكمن في ما يسمى بـ «رواية الطفل العائلية» . فهذه الرواية هي التي تعرض ردود فعل الابن تجاه تغير علاقاته العاطفية بوالديه ، وبأبيه بوجه خاص . فالسنوات الاولى من الطفولة يهيمن عليها تهويل عظيم من قدر الاب . وملوك الاحلام وقصص الجن وملكانها هم في الواقع رموز للوالدين . ولكن الطفل ينفصل فيما بعد عن والديه ، تحت تأثير تنافس وخيبة امل فعلية ، ويتخذ من والده موقفا نقديا . وتعكس اسرته الاسطورة ، النبيلة والوضيعة كلتاهما ، الاسرة كما تتبدى للطفل في مراحل متعاقبة من حياته .

ومن حقنا ان نفترض ان هذه التفسيرات تمكننا من ان نفهم انتشار اسطورة ولادة البطل وذيوعها وتمائلها النمطي في آن واحد . وفي هذه الحال ستتعاظم الفائدة حين نلاحظ ان خرافة ميلاد موسى وهجره تحتل مكانة على حدة ، بل تناقض سائر القصص في نقطة اساسية .

لننمّن النظر اولا في الاسرتين اللتين يتقرر بينهما ، طبقا للخرافة ، مصير الطفل . فهاتان الاسرتان تتداخلان وتختلطان تبعاً للتأويل النهائي النفسي، فلا تفترقان الا في التسلسل الزمني . وأولى هاتين الاسرتين اي الاسرة التي يولد فيها الطفل ، طبقا للخرافة النمطية ، اسرة نبيلة ، وعلى العموم ملكية . اما الاسرة الثانية ، التي تحتضن الطفل ، فوضيعة او ساقطة ، تبعاً للظروف التي يسند اليها التأويل . واسطورة اوديب هي وحدها التي تشد ، لان الطفل ، المهجور من أسرته الملكية ، يحتضنه بيت ملكي آخر . وليس من قبيل المصادفة بلا شك ، في هذه الحالة ، ان الهوية البدائية لكلتا الاسرتين تظهر حتى في الخرافة . والتباين الاجتماعي بين الاسرتين ، الذي يجنح كما نعلم الى ابراز الطبيعة البطولية للرجل العظيم ، يقلد اسطورتنا

وظيفة ثانية بالغة الأهمية حين يكون الأشخاص اشخاصا تاريخيين . ولعل هذا التباين يفيد أيضا في توكيد الصفة النبيلة للبطل وفي رفعه الى مستوى اجتماعي أعلى وأرفع . وهكذا أصبح قورش ، الذي كان فاتحا غريبا بالنسبة الى الميديين ، ابن أخي ملك الميديين بفضل الاسطورة . وكذلك الحال بالنسبة الى رومولوس . فلتن وجد هذا الشخص حقا فما كان ممكنا ان يكون سوى مغامر مجهول الاصل ، سوى محدث نعمة . ولكن الخرافة جعلت منه سليل ملوك الب - لا لونغ (٩) ووريشهم .

ويختلف وضع موسى عظيم الاختلاف . فأولى الاسرتين هنا متضعة جدا مع أنها في القاعدة العامة نبيلة . فموسى سليل لاويين يهود . وبالمقابل ، فان الاسرة الثانية ، التي يفترض فيها ان تكون متواضعة الحال والتي تحتضن الطفل ، تتمثل هنا في البيت الملكي المصري ؛ والاميرة تربي الطفل كما لو انه ابنتها حقا . هذه الخرافة تختلف اذن عن الخرافة النمطية ، وهذا ما اثار دهشة العديد من الباحثين . وقد افترض إ. ماير ، وكثيرون من بعده ، ان الشكل البدائي لهذه الاسطورة قد طرا عليه تعديل لاحق . ففي رأيهم ان فرعون (١٠) انذر ، عن طريق حلم نبوي ، بأن ابن ابنته سيكون خطرا ذات يوم عليه وعلى مملكته . ولهذا أصدر امره بأن يسلم الطفل ، فور ولادته ، لمياه النيل . وقد انقذ اليهود هذا الطفل وربوه وكانه ابنهم من صلبهم . وقد عدلت الخرافة فيما بعد بالاتجاه المعروف لدينا «لدواع قومية» على حد تعبير رانك .

---

٩ - الب - لا لونغ اقدم مدن اللاتيوم ومناصرة روما في غابر الازمان .

«المترجم»

١٠ - انظر ايضا قصة فلانيوس يوسيفوس (وهو مؤرخ يهودي من القرن

الاول الميلادي - «المترجم» ) .

ولكننا اذا ما امعنا النظر ، نلاحظ على الفور ان اي اسطورة من موسى ما كانت لتكون ممكنة ان لم تختلف عن سائر اساطير الولادة . وبالفعل ، ان اصل هذه الاسطورة إما مصري وإما يهودي . والحال ان الاصل المصري لا يمكن القبول به ، لانه ليس للمصريين من داع لتمجيد موسى الذي لم يكن بالنسبة اليهم بطلا . وعليه ، فان الخرافة خلقت من قبل الشعب اليهودي ، اي ربطت ، في صيغتها المعروفة ، بشخص زعيم هذا الشعب . بيد ان هذه القصة ما كانت تصلح ان تستخدم على النحو الذي اريد استخدامها به . وبالفعل ، ما الفائدة التي يمكن ان يجنيها شعب من خرافة تجعل من بطله رجلا غريبا اجنبيا ؟

لا مناص من القول اذن ان اسطورة موسى ، كما وصلت الينا ، ما عادت تستجيب لبراميتها الخفية . فلئن لم يكن موسى من منشأ ملكي ، فان خرافتنا لا تستطيع ان تجعل منه بطلا ؛ واذا ظل يهوديا فهذا معناه انها لم تفعل شيئا لتعظم من قدره . ولا يحتفظ بالفاعلية والنجع غير جزء صغير من هذه الاسطورة : التوكيد بأن الطفل امكنه ان يستمر في الحياة بالرغم من القوى الخارجية العاتية . وهذه القسمة تتكرر في قصة طفولة المسيح ، مع فاروق واحد وهو ان هيرودوس هو الذي يلعب هذه المرة دور فرعون . وعليه ، فان من حقنا ان نفترض ان شارحا ممن الشراح ، ممن لا يملكون قدرا كافيا من الفطنة بالاحرى ، قد ارتأى فيما بعد ان من المباح له ان يضيف الى قصة بطله ، موسى ، تفصيلا معينا يلائم النموذج الكلاسيكي لاسطورة البطل ، اعني خرافة الهجر . ولكن هذا التفصيل ما كان يناسب موسى بحكم الظروف الخاصة .

الى هذه النتيجة المخيبة للامال والمشكوك فيها في آن واحد كانت ستنتهي ابحاثنا ؛ وما كانت مسألة قومية موسى ستوضع وتحسم لولا اننا نملك وسيلة اخرى ، انسب وافضل في اغلب



الظن ، لمعالجة اسطورة الحجر تلك .

نعد الى اسرتي الاسطورة . نحن نعلم ، من وجهة نظرس التحليل النفسي ، انهما متماثلتان وهويتها واحدة . لكنهما مزدوجتان من المنظور الاسطوري : الواحدة نبيلة والاخرى متضعة . الا ان الخرافة حين تكون مرتبطة بشخص تاريخي ، يكون هناك مستوى ثالث : مستوى الواقع . فإحدى الاسرتين هي الواقعية : تلك التي ولد فيها فعلا الرجل العظيم وترعبرع بين ظهرانيها . والاخرى وهمية ، اختلقتها الاسطورة لمقتضيات القضية . والمفروض بالاسرة المتواضعة ، بوجه عام ، ان تكون هي الاسرة الحقيقية ، وبالاسرة النبيلة ان تكون هي الخيالية . ولكن حالة موسى تبدو مختلفة بعض الشيء . وهنا بالتحديد تتيح لنا وجهة نظرنا الجديدة ان نقر بان الاسرة الاولى ، الاسرة التي هجرت الطفل ، هي بكل تأكيد خيالية ، وبان الاسرة الثانية ، الاسرة التي تولت تربية الطفل ، هي الحقيقية . واذا كنا نملك الجراءة على التسليم بان هذه حقيقة ذات صفة عامة تنطبق على اسطورة موسى مثلما تنطبق على سائر الاساطير ، فسيتجلى لنا فجأة ان موسى كان فعلا مصريا . وفي غالب الظن مصريا نبيل الاصل . وقد جعلت الاسطورة من هذا المصري يهوديا . هذا ما سيكونه استنتاجنا ! ومن هذا المنظور يمكن ان يجد هجر الطفل عند مياه النيل تفسيره ؛ ولقد كان لا بد ، للانسجام مع الاستنتاج الجديد ، من تعديل - لا يخلو من قسر - للنسبة . وبذلك تتحول وسيلة التخلص من الطفل الى وسيلة لانقاذه .

ان واحدة من خصائص قصة موسى تفسر علة اختلاف هذه القصة عن سائر الخرافات المماثلة لها في النوع . ففي حين ان الابطال يرتفعون ، بوجه عام ، خلال حياتهم ، الى ما فسوق وضعهم البدئي المتواضع ، يبدأ موسى حياته البطولية بعمد تأييه عن وضع نفسه في مستوى ابناء اسرائيل .

ولئن كنا قد شرعنا بهذا البحث المقتضب ، فهذا بأمل الوصول الى حجة ثانية وجديدة في تأييد الاصل المصري لموسى . ولقد امكن لنا ان نرى ان الحجة الاولى ، حجة الاسم ، لم تعد على الدوام حاسمة (١١) . وينبغي ان نتوقع الا تعرف الحجة الجديدة ، الحجة التي يقدمها لنا تحليل أسطورة الهجر ، مصيرا افضل . ولا ريب في ان المعارضين سيعترضون علينا بأن الظروف التي تحيط بنشأة أسطورة من الاساطير وبتحولها ، غامضة الى درجة لا تبيح لنا ان نستخلص منها مثل ذلك الاستنتاج . وسيقولون لنا ان جميع الجهود المبذولة لتسليط الضوء على جوهر الحقيقة التي تنطوي عليها قصة الشخص البطولي المدعو موسى مقضي عليها بأن تذهب هباء بسبب الالتباس والتناقضات والتشويبات والاضافات المفرضة السافرة المتراكمة على مر القرون . واني لأرفض ، من جهتي ، تبني مثل هذا الموقف السلبي ، وان لم اكن قادرا في الوقت نفسه على اثبات بطلان مقدماته .

إذا لم يكن الوصول الى يقين بممكن ، فما الداعي لنشر هذا البحث ؟ اني آسف لان تبريري نفسه يرتد الى محض تلميحات وإيحاءات . ولكن اذا ما قبلنا مع ذلك بأن نأخذ بعين الاعتبار الحججتين اللتين عرضتهما ، محاولين ان نسلم جديا بأن موسى

---

١١ - اليكم على سبيل المثال ما يقوله إ. ماير في «اساطير موسى واللاويين» ، مركز التقادير البرليني ، ١٩٠٥ : «ان اسم موسى هو على الأرجح اسم بشاس Pinchas في سلالة كهنة سيلو Silo ... وهو في الاغلب اسم مصري. بيد ان ذلك لا يثبت ان هذه السلالات كانت مصرية الاصل. وانما يثبت فقط انه كان لها بعض الارتباطات بمصر» . (ص ٦٥١) . ويمكننا هنا ان نتساءل ما نوع الارتباط المقصود ؟ .

كان فعلا مصريا نبيلًا ، فان آفاقا مثيرة ورحبة للغاية تنفتح في هذه الحال امامنا . فبمساعدة بعض الفرضيات قد تصبح دوافع مشروع موسى الخارق للمألوف قابلة للفهم ، ومن ثم قد ندرك الاسباب المحتملة للعديد من سمات وخصائص الشرائع والديانة التي اعطاها لليهود . وآئذ يغدو في مستطاعنا ان نكون رأيا يرتكز إلى أسس متينة حول اصل الديانات التوحيدية بوجه عام . بيد انه ينبغي ان نحذر من بناء مثل هذه الاستنتاجات الهامة على محض احتمالات سيكولوجية . وحتى لو اعتبرنا الاصل المصري لموسى حقيقة تاريخية واقعة ، فالاجدر بنا ان نتدبر نقطة ارتكاز ثانية كيما يكون في مكنتنا ان ندحض ونرد كل نقد . وبالفعل ، يمكن ان يأخذ علينا الاخلدون اننا نطلق العنان لخيالنا ، وان يزعموا اننا بعيدون غاية البعد عن الواقع ، واننا لا نملك براهين موضوعية عن العصر الذي عاش فيه موسى وحدث فيه «الخروج» ! ولا ريب في ان هذه البراهين كانت ستكفي لو وجدت . ولكن نظرا الى انه لم يتم اكتشافها ، فمن الافضل الا نتعدى حدودنا الراهنة والا نسعى الى استخلاص نتائج اخرى من حقيقة ان موسى كان مصريا .



## الفصل الثاني

إذا كان موسى مصرياً



سميت في الفصل الاول من هذا الكتاب الى ان اُدم بحجة جديدة الفرضية القائلة بأن موسى ، محرر الشعب اليهودي ومشرّعه ، كان مصرياً ، لا يهودياً . وكان الباحثون قد لاحظوا منذ زمن بعيد ان اسمه مشتق من مفردات اللغة المصرية ، ولكن من دون ان يعلقوا على هذه الملاحظة الأهمية التي تستأهلها فعلاً . وقد اُضفت بأن تأويل أسطورة الهجر عند مياه النيل ، المطبقة على موسى ، ترغماً على الاستنتاج بأن النبي كان مصرياً احتاج الشعب الى ان يجعل منه يهودياً . وقلت ، في ختام بحثي ، ان استنتاجات هامة ورجية تتفرع من فكرة ان موسى كان مصرياً . لكن ما كنت أشعر بأنني مستعد لتوكيدها علناً وجهاراً لانها تستند الى محض احتمالات سيكولوجية ، لا الى برهان مساموضوعي . وبالفعل ، كلما بدا ان الرأي المتكون بهذه الطريقة له قدر اعظم من الأهمية ، توجب بالقدر نفسه ان يبنى على أسس متينة قبل ان يُعرض لانتقادات العالم الخارجي . وبدون هذا الاحتياط سيكون أشبه بتمثال من البرونز ذي قدمين من الصلصال . والاحتمال ، مهما يكن مثيراً ومغرياً ، لن يقينا من

الخطا ، حتى لو بدت جميع معطيات المشكلة محكمة مضبوطة كقطع المربكة Puzzle . ويتبني ان نتذكر ان المحتمل ليس صحيحا دوما ، وان الصحيح ليس محتملا دوما . واخيرا ، ليس مما يفري المرء ان يجد نفسه مصنفا بين السكولانيين والتلموديين ممن يكتفون بممارسة حداقتهم من دون ان يبالوا بدرجة صحة توكيداتهم .

لقد وطنت النفس ، بالرغم من هذه الحجج التي تحتفظ اليوم بقيمتها السالفة وبالرغم من صراع داخلي ، على تكملة مقالي الاول . ولكن لا بد من التنبيه الى انني ، هذه المرة ايضا ، لن اقول كل شيء ولا حتى الجانب الاهم من كل شيء .

## - ١ -

اذا سلمنا بجنسية موسى المصرية ، فسيكون علينا من فورنا ان نفك لغزا جديدا وصعبا . فحين يتهاى شعب من الشعوب (او قبيلة من القبائل) (١) لتنفيذ مشروع كبير ، ينبغي ان نتوقع ظهور فرد يتزعم الحركة او يحمل رفاقه على انتخابه زعيما . ولكن كيف لنا ان نتصور ان مصريا كريم المحتد ، وربما امرا او كاهنا او موظفا عالي المقام ، امكن له ان يضع نفسه على رأس جماعة من اجانب مهاجرين ينتمون الى حضارة دنيا ؟ كيف نفسر انه غادر الوطن معهم ؟ نحن نعلم كم كان المصريون يستخفون بالشعوب الاجنبية ، وهذا بالضبط ما يجعل الواقعة مستبعدة الاحتمال . واستبعاد احتمالها هذا هو ، في رأبي ، ما حال بين

---

١ - اتنا نجهل كل الجهل عدد الذين شاركوا في «الخروج» .



من اقر من المؤرخين بالاصل المصري لاسم موسى ونسبوا الى هذا  
الاخير حكمة مصر ، وبين التسليم بإمكانية جنسيته المصرية .  
وسرعان ما تنضاف الى هذه الصعوبة صعوبة اخرى .  
فموسى ، لا ننسى ذلك ، لم يكن زعيما سياسيا لليهود  
المستقرين في مصر فحسب ، بل كان ايضا مشرعهم ، ومربيهم ،  
والرجل الذي فرض عليهم ديننا جديدا اعطاه الاسم الذي ما  
يزال يحمله الى اليوم : الدين الموسوي . ولكن افي استطاعة  
فرد مفرد ان يتوصل الى ان يؤسس ديننا ؟ واذا ما سعى انسان  
من الناس الى التأثير على دين الآخرين ، افليس من الطبيعي ان  
يحاول حملهم على امتناق دينه بالذات ؟ لا مرية في ان يهود  
مصر كانوا يتعاطون شكلا معيننا من الدين ، واذا كان موسى ،  
الذي اتاهم بدين جديد ، مصريا ، فكل شيء يحمل على الاعتقاد  
بان هذا الدين كان فعلا وحقا الدين المصري .

بيد ان هذه الفرضية تصطدم بمقبة : فالتضاد تام شامل بين  
الديانة اليهودية المنسوبة الى موسى وبين الديانة المصرية ، نظرا  
الى ان الاولى ديانة توحيدية على غاية من التشدد والتصلب .  
فهي ترى انه ليس هناك سوى إله واحد ، أحد ، كلي القدرة ،  
لا يقع تحت الادراك ؛ والانسان لا يستطيع ان يتحمل رؤيته ، ولا  
يحق له ان يصنع له صورة ولا حتى ان يتلفظ باسمه . وبالمقابل ،  
تشتمل الديانة المصرية على عدد لا حصر له من الالهة المتفاوتة  
اهمية ومنشأ . بعضها يجسد قوى طبيعية كالسما والارض ،  
والشمس والقمر ، او يجسد مجردات نظير معاط ( العدالة ) ،  
الحقيقة ) ، او حتى الوجوه المنفرة نظير القزم بيس . على ان  
غالبية هذه الالهة آلهة محلية يعود تاريخها الى العصر الذي كانت  
فيه البلاد مقسمة الى اقاليم متميزة . وكانت تتقمص اشكالا  
حيوانية وكانها لم تتجاوز بعد مرحلة الحيوانات الطوطمية التي  
فات زمانها . ولم تكن هذه الالهة الحيوانية يتميز بعضها عن بعض

واضح التميز ، وكان بعضها تنسب اليه ، لندرته ، وظائف خاصة . وكانت التسابيح المنذورة لها تشيد بها جميعها بالكلمات عينها ولا تتورع عن الخلط بينها على نحو لا يمكن الا ان يحيرنا اشد الحيرة . وكانت اسماء الالهة تتداخل وتختلط الى درجة ان بعضها كان محض اوصاف لبعضها الآخر . وهكذا كان كبير آلهة مدينة طيبة ، في اوج «الامبراطورية الجديدة» ، يدعى آمون - رع . والحال ان اسم آمون هو اسم إله المدينة ذي رأس الكباش ، في حين ان اسم رع هو اسم إله الشمس ذي رأس الصقر . وعبادة هذه الالهة ، مثلها مثل حياة المصري اليومية ، تهيمن على الطقوس والشعائر والصيغ السحرية والتبائم .

ان بعض هذه الاختلافات يمكن ان يُرد بسهولة الى التضاد البدئي القائم بين توحيد صارم وبين شرك جامع . وينجم بعضها الآخر بكل جلاء عن الفارق في المستوى العقلي ، اذ لبثت احدى الديانتين قريبة غاية القرب من ديانة الازمان البدائية بينما سمت الاخرى الى ذرى التجريد الخالص . وربما كان يجدر بنا ان نعزو الى هذين العاملين الانطباع الذي يساورنا احيانا بوجود تضاد مقصود ، مؤجج عن عمد ، بين الديانتين الموسوية والمصرية ، تضاد نحس به حين نلاحظ ان احدى الديانتين تدين صارم الادانة كل ضرب من السحر والشعوذة ، بينما تعج الثانية بموقور السحر والشعوذة ، او حين يبرز للعيان التعارض الحاد بين ميل المصريين الذي لا يروى له ظمأ الى تشخيص آلهتهم تشكليا بالصلصال او الصخر او المعدن وبين التحريم الصارم لتشخيص اي كائن حي او خيالي . ولكن يوجد بين الديانتين فارق آخر لا نملك له تفسيراً . فما من شعب من شعوب العصور القديمة اهتم هذا القدر من الاهتمام بنفي الموت ، وتجشم هذا القدر من المشقة والعناء ليكفل لنفسه وجودا في العالم الآخر . ولهذا كان اوزيريس ، إله الاموات ورب العالم الآخر ، اكثر الالهة المصرية شعبية واعظمها سلطانا . وبالمقابل ، فان الديانة اليهودية

القديمة قد تكصت كامل النكوص عن الخلود ، وليس ثمة من إشارة قط ، وفي أي موضع ، الى احتمال وجود حياة اخرى بعد الموت . ومما يزيد من غرابة ذلك ان الايمان بحياة آجلة قابل للانسجام على احسن وجه ، كما اثبتت الاحداث ذلك ، مع التوحيد .

لقد كنا نأمل ان تأتينا فكرة الاصل المصري لموسى بفوائد وإيضاحات في العديد من الميادين . ولكن ها هوذا الاستنتاج الاول الذي استنتجناه منها ، حين افترضنا بأن الديانة التي اعطاها موسى لليهود كانت ديانته هو نفسه، يصطدم بالاختلافات، ان لم نقل بالتناقض الصارخ ، بين الديانتين .

## - ٢ -

بيد ان ثمة واقعة غريبة في تاريخ مصر الديني تفتح لنا آفاقا جديدة . وقد اكتشفت هذه الواقعة في زمن متأخر وقدّرت حق قدرها . فمن المحتمل ، بالرغم من كل شيء ، ان تكون الديانة التي اعطاها موسى لليهود هي حقا وفعلا عقيدته الخاصة ، هي حقا وفعلا ديانة مصرية ان لم نقل الديانة المصرية .

في عهد السلالة الثامنة عشرة الماجدة ، وفي الحقبة التي غدت فيها مصر امبراطورية عالمية ، في حوالي العام ١٣٧٥ ق . م ، تسنم العرش فرعون شاب تسمى في البداية باسم ابيه ، امنحوتب (امنحوتب الرابع) ، ثم غير بعد ذلك اسمه مع اشياء اخرى كثيرة . وقد شرع هذا الملك يفرض على رعاياه ديانة جديدة تتعارض وتقايلدهم السحيفة القدم واعرافهم العائلية معا . كانت المحاولة الاولى من نوعها في التاريخ ، على حد ما

نعلم ، لفرض توحيدية صارمة . ومع الإيمان بإله واحد ، ولد ذلك - وهذا شيء محتم - التعصب الديني الذي كان حتى ذلك الحين وبعده بحقبة طويلة غريبا عن العصور القديمة . ولكن ملكوت أمنحوتب لم يدم سوى سبعة عشر عاما . وما لبثت الديانة الجديدة ان حظرت بعيد وفاته ، التي كانت في عام ١٣٥٨ ، ولعنت ذكرى الملك الهرطوقي . ونحن مدينون لانقراض مقامه الجديد الذي ابتناه وكرسه لإلهه ، وكذلك لبعض النقوش على شواهد القبور ، بما وصل اليها من نادر المعلومات عن هذا العاهل . وكل ما سنعلمه عن هذا الشخص المرموق ، بل الفد ، يستحق منا اعظم الاهتمام (٢) .

ان كل تجديد يتهياً بالضرورة والحثم في الماضي ويكون مشروطا به . وفي مكنتنا ان نعود القهقري ، بما فيه الكفاية من الدقة ، في التاريخ البعيد للتوحيد المصري (٣) . ففي مدرسة كهنة معبد الشمس أون (هليوبوليس) ظهر في زمن مبكر ميل الى تطوير تصور الإله الكلي والى ابراز طابعه الاخلاقي . وكانت معاط ، إلهة الحقيقة والنظام والعدالة ، ابنة رع ، إله للشمس . ومنذ عهد أمنحوتب الثالث ، والد المصلح وسلفه ، عرفت عبادة إله الشمس انطلاقة جديدة من قبيل المعارضة ، في اغلب الظن ، لإله طيبة ، آمون ، الذي كان قد اصبح اقوى مما ينبغي . وقد نبشت من الماضي تسمية قديمة جدا لإله الشمس : آتون او آتوم . وقد وجد العاهل الفنى في ديانة آتون هذه حركة يستطيع الانضواء تحت لوأئها من دون ان تكون به حاجة الى اختلاقها .

---

٢ - وصفه بريستد بأنه «الشخصية الاولى في تاريخ الانسانية» .

٣ - لقد اقتبسنا ما يلي بصورة رئيسية مما كتبه ج.ه. بريستد في «تاريخ مصر» (١٩٠٦) ، كذلك في «فجر الوجدان» (١٩٣٤) ، ومن الفصول المتعلقة بهذه المسألة في «تاريخ كامبردج للمعصور القديمة» ، المجلد ٢ .

وكانت الظروف السياسية قد طفقت منذ ذلك العهد تمارس تأثيرها على الدين المصري . فبفضل المآثر المظفرة لفتح كبير ، تحوتمس الثالث ، كانت مصر قد أصبحت قوة عالمية . فقد ضمت الى الامبراطورية بلاد النوبة في الجنوب ، وسورية وجزء من بلاد الرافدين في الشمال . وقد تجلت هذه النزعة التوسعية، منذ ذلك الحين ، في الدين في شكل نزعة شمولية وتوحيدية . فلما كان سلطان فرعون لا يشمل مصر وحدها ، بل كذلك النوبة وسورية ، فقد بات من المحتم الا يبقى الإله مجرد إله قومي . وما دام فرعون قد أصبح السيد الأوحده ، اللامحدود السلطات، على كل عالم المصريين المعروف ، فقد بات من المحتم ان يفسدو إلههم الجديد إلهها قويا وأوحده هو الآخر . وبالإضافة الى ذلك، كان من الطبيعي ان يزداد انفتاح مصر على المؤثرات الاجنبية ما دامت حدود امبراطوريتها قد توسعت . وكان في عداد الزوجات الملكيات اميرات آسيويات (٤) ، ومن المحتمل ان تكون بعض المؤثرات التوحيدية السورية المصدر قد فرضت نفسها .

لم ينكر امنحوتب قط انه تبنى عبادة شمس أون . فهو يمجده الشمس الخالقة والحامية لكل ما هو موجود في مصر وفي خارج مصر في النشيد اللذين الفهما بنفسه على أرجح الظن في تعظيم آتون ، واللذين حفظتهما لنا نقوش شواهد القبور . والحمية التي ينم عنها هذان النشيدان شبيهة بتلك التي ستبث الروح ، بعد بضعة قرون ، في مزامير تبجيل الإله اليهودي يهوه . بيد ان امنحوتب لم يكتف بهذا الاستباق الدهش للمعرفة العلمية بأثار الإشعاع الشمسي . بل انه خطا خطوة اخرى للى الامام — هذا مؤكده — اذ لم يتعبد للشمس بوصفها شيئا ماديا ، وانما

---

٤ - ربما كان هذا هو وضع نفرتيتي ، زوجة امنحوتب المحبوب .

بوصفها رمزا لكائن إلهي تتجلى قدرته في أشعتها (٥) .  
ولكن يخلق بنا ، اذا كنا نريد ان ننصف العاهل ، الا نرى فيه  
مجرد نصير وحامٍ لدين آتوني كان قائما قبله . فقد كان دوره  
اكثر فاعلية ، اذ اضاف الى مذهب الإله الكوني شيئا جعل منه  
مذهبا توحيدا ، أعني الصفة الوحدانية . ففي احد اناشيده جاء  
ما يلي بصريح العبارة : «أيا انت ! إياها الإله الاوحد الذي ليس  
الى جانبه إله آخر» (٦) . ولا ننس انه لا يكفيننا ، كي نقسّم  
المذهب الجديد حق قدره ، ان نطلع على مضمونه الإيجابي .  
وانما ينبغي ايضا ، بالقدر نفسه تقريبا ، ان نطلع على جانبه  
السلبى ، اي على ما ينبلده . ومن الخطأ كذلك ان نتصور ان  
الدين الجديد قد ظهر الى حيز الوجود بصورة مفاجئة ، ناجزا ،  
مكتملا ، بكامل عدته ، مثلما خرجت أثينا من رأس زفس . فكل  
شيء يشير ، على العكس ، الى انه وولد أركانه رويدا رويدا في  
عهد أمنحوتب ، فزاد وضوحا وانسجاما وصرامة وتعصبا . ولعل  
هذا التطور قد تم تحت تأثير المعارضة العنيفة التي قابل بها  
كهنة آمون اصلاحات الملك . فقد بلغ العداء ، في العام السادس  
من عهد أمنحوتب ، مبلغا اضطر معه الملك الى تعديل اسمه ،

---

٥ - بريستد ، «تاريخ مصر» ، ص ٣٦٠ : «ولكن مهما يكن بديهي الاصل  
الهليوبوليسى لدين الدولة الجديد ، فان هذا الاخير ما كان مقصورا على عبادة  
الشمس . فكلمة آتون كانت تستخدم مكان الكلمة القديمة التي تشير الى الاله  
(نوت) ، وهذا الاله يتميز بجلاء عن الشمس المادية» . «بديهي ان ما كان العاهل  
يؤلهه كان القوة التي تؤثر بها الشمس على الارض» ( «فجر الوجدان» ،  
ص ٢٧٩ ) . وشبهه بذلك رأي إرمان ( «دين مصر» ، ١٩٠٥ ) بصدد صيغة  
تيجيلية للاله : «انها كلمات تهدف الى التعبير ، في شكل مجرد ، عن ان العبادة  
لا تتوجه الى النجوم ، بل الى الكائن الذي يتجلى فيها» .  
٦ - «تاريخ مصر» ، ص ٣٧٤ .

فحذف منه المقاطع التي تؤلف كلمة آمون ، اسم الإله المكروه ، وتسمى منذ ذلك الحين باسم إخناتون (٧) . ولكن العاهل لم يكتبف بأن حذف من اسمه اسم الإله المبعوض ، بل محاه أيضا من جميع النقوش ومن اسم والده نفسه أمنحوتب الثالث . وبعد ان غير إخناتون اسمه بفترة وجيزة هجر طيبة ، الخاضعة لآمون، وأسس عند سافلة النهر عاصمة جديدة أختاتون (أفق آتون) . وانقاض هذه المدينة تسمى اليوم تل العمارنة (٨) .

ولئن كان آمون الضحية الرئيسية لاضطهادات العاهل ، فانه لم يكن الضحية الوحيدة. فعلى امتداد أرجاء الامبراطورية اغلقت المعابد وصودرت أملاكها وحظرت العبادات وحجرت الكنوز الكهنوتية . وقد امر العاهل ، مدفوعا بحميته ، بالتنقيب عن نقوش الأنصاب القديمة لتمحي منها كلمة «الله» في حال ورودها بصيغة الجمع (٩) . ولا غرو ان تكون هذه التدابير قد اثارت في اوساط الكهنوت المضطهد والشعب المستاء حاجة محمومة الى الانتقام امكن لها ان تروي قليلا بعد وفاة إخناتون . ذلك ان ديانة آتون لم تعد ديانة شعبية ولم يمتنعها في أرجح الظن الا جماعة صغيرة من الاشخاص الدائرين في فلك العاهل . ولقد بقيت نهاية هذا الاخير غامضة ، ولم تتجمع لدينا الا معلومات زهيدة حول بعض الافراد من اقربائه وأخلافه الخاملين الذكر الذين

٧ - اتقيد في كتابتي لهذه الاسماء بقواعد الاملاء الانكليزية (في اللغات الاخرى : إخناتون) . والاسم الجديد للعاهل له نفس معنى الاسي القديم تقريبا: الإله راض . قارنوا بين اسمنا Godfroy والاسم الانكليزي Godfrey والاسم الجرمانى Gotthold .

٨ - فيها وجدت في عام ١٨٨٤ مراسلات ملوك مصر ، البالغة الأهمية من وجهة النظر التاريخية ، مع اصدقائهم او ولايهم الآسيويين .

٩ - «تاريخ مصر» ، ص ٣٦٢ .

كانت مدة ملكهم قصيرة . وقد وجد توت عنخ آتون نفسه مكرها على العودة الى طيبة وعلى استبدال الإله آتون بالاله آمون في اسمه . ثم حلت مرحلة من الفوضى ، الى ان افلح القائد حورمحب في عام ١٣٥٠ في اعادة اقرار النظام . وانطفتت السلالة الثامنة عشرة الماجدة ، وضاعت معها فتوحاتها في النوبة وآسيا . وإبان فترة خلو العرش المحزنة هذه استعادت الاديان المصرية القديمة مكانتها ، وهجرت ديانة آتون ، ودمرت مدينة إخناتون ونهبت ، ولعننت ذكرى العاهل كما تلعن ذكرى المجرم . وستتوقف الان عن عمد عند بعض السمات السالبة في ديانة آتون . ولنقل اولا انها تستبعد الخرافات كافة وشعائس السحر او الشعوذة جميعا (١٠) .

وقد ادخل هذا الدين ، ثانيا ، تعديلا على تشخيص الإله الشمسي الذي ما عاد يمثل ، كما في السابق ، بهرم صغير وبصقر ، وانما - وهذا يبدو شبه معقول - بأسطوانة تتشعب منها أشعة تنتهي بأيدٍ بشرية . وبالرغم من كل الازدهار الفني الذي تجلى اثناء مرحلة الصمارة ، ما امكن اكتشاف صورة شخصية للاله الشمسي آتون ، ومن حقنا ان نؤكد انها لن تكتشف ابدا (١١) .

---

١٠ - ويفال : «حياة إخناتون وعصره» ، ١٩٢٣ ، ص ١٢١ : «كان إخناتون يرفض الاعتراف بفكرة جحيم يثير من الرعب ما لا سبيل الى التوقي منه الا يرتى سحرية لا تقع تحت حصر» . فرمى إخناتون بهذه الرقى جميعا الى النار . وقدم الجن والفيلان والارواح والسوخ وانصاف الالهة وأوزوريس نفسه مع بطائنه كلها لقمعة سائلة لاسنة اللهب ، قالت الى رماده .

١١ - ا. ويمال ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ : «لم يسمح إخناتون بأن تحفر لآتون أي صورة على القبور . وكان الملك يقول : ان الاله الحقيقي لا شكل له . وقد بقي على رأيه هذا طوال حياته» .



وأخيراً ، ما عاد يرد ذكر لا للاله أوزيريس ولا لمملكة الاموات .  
ونحن لا نمش في الاناشيد وفي نقوش القبور على اي نقش يومية  
الى أعر ما كان يملكه المصريون على الأرجح . والتضاد مع الديانة  
الشعبية لا يبرز في اي مكان بروزه هنا (١٢) .

### - ٣ -

لنحاول الان أن نستخلص من هذا كله نتيجة ما : اذا كان  
موسى حقاً وفعلاً مصرياً ، واذا كان قد اعطى اليهود ديانته ذاتها ،  
فقد كانت ديانة إخناتون ، ديانة آتون .

لقد وازنا فيما سبق بين الديانة اليهودية والديانة المصرية  
الشعبية ، وبيتنا مدى اختلافهما . فلنقم الان بمقارنة الديانة  
اليهودية بديانة آتون لنظهر تطابقهما البدئي . وهذه ليست ، كما  
نعلم ، بمهمة سهلة ، لان ظمأ كهنة آمون الى الانتقام حرمانا من  
كثير من المعلومات عن ديانة آتون . اما الديانة الموسوية فلا نعرفها  
الا في شكلها النهائي ، كما حددها وثبتها بعد حوالي ٨٠٠ عام  
الاكثروس اليهودي في المرحلة التي أعقبت «المنفى» . واذا ما  
توصلنا ، بالرغم من عدم كفاية الوثائق ، الى العثور على بعض  
المؤشرات القمينة بتوكيد أطروحتنا ، فستكون هذه المؤشرات  
عظيمة القيمة بالنسبة الينا .

ثمة ، اصلاً ، وسيلة سهلة لتأييد أطروحتنا عن تطابق ديانتى آتون

---

١٢ - ارمان ، المصدر الاتف الذكر . ص ٧٠ «لم يعد يرد ذكر لا لأوزيريس  
ولا لمملكته» . بريستد : «فجر الوجدان» ، ص ٢٩١ : «لقد تجوهر أوزيريس  
كلياً . ولم يرد له ذكر قط في اي مدونة لإخناتون او في اي قبر من قبور  
العمارة» .

وموسى- وهي ان نعلم على مجاهرة بالعتيدة، على اعلان عنها. ولكنى اأشى فى هذه الحالة ان يعترض المعترضون علينا بأن هذا الطريق لا يمكن سلوكه . فقاون الايمان اليهودي، كما هو معلوم، يقول: «Shehema Jisroel Adonai Elohenu Adonai Echod»  
 واذا لم يكن من قبيل المصادفة ان اسم آتون المصري يذكر باللفظة العربية Adonai وبالاسم الإلهي السوري أدونيس ، واذا كان هذا التشابه نتيجة لتمائل بدائي في المعنى واللغة ، فان في استطاعتنا ترجمة العبارة اليهودية على النحو التالي : «أصفي ، يا اسرائيل ! ان إلهنا آتون (Adonai) هو الإله الأواحد» .  
 ولكن لأهليتي التامة في هذا الميدان تمنعني مع الاسف من حل المسألة ، كما انني لم أعر في الادب على معلومات كثيرة تتعلق بها (١٢) . اصف الى ذلك ان المرء لا يجوز له ان يختار السهولة في مثل هذا الموضوع . ولنا على كل حال عودة محتومة الى معضلة اسم الإله .

ان نقاط التشابه والاختلاف على حد سواء بين الديانتين يسهل تمييزها ، ولكنها لا تنير الطريق أمامنا كثيرا . فكلتاها شكل من مذهب توحيد صارم ، وسنميل في الوهلة الأولى الى ان نرجع الى هذه السمة الأساسية كل ما نلاحظ بينهما من توافق . والتوحيد اليهودي أشد تصلبا ايضا ، في بعض النقاط، من التوحيد المصري ، وعلى سبيل المثال حين يحرم كل تشخيص تشكيلي . وفيما عدا اسم الإله ، يكمن الفارق الأكثر جوهرية في

---

١٢ - بعض مقاطع فقط في ويقال ، المصدر الأنف الذكر ، ص ١٢ ، ١٩ :  
 «ان الاله آتوم الذي يصف روع بأنه الشمس الفاربية كان على الأرجح من نفس اصل آتون المبرود في شمال سورية . وهكذا كان يمكن للملكة اجنبية ان تشمر، مثلها مثل حاشيتها ، بانجذاب الى هليوبوليس اعظم من انجذابها الى طيبة» .

ان الديانة اليهودية قد تكصت نهائيا عن عبادة الشمس بينمنا  
استمر المصريون يتعاطونها . وبمقارنة الدين الشعبي المصري  
بالدين اليهودي ، اتضح لنا ان ثمة عنصرا من عناصر التناقض  
القصدي يلعب دوره ، الى جانب التضاد المبدئي ، في الاختلاف  
بين الدينين . وهذا الانطباع يتعزز اذا استبدلنا ، في موازنتنا ،  
الديانة اليهودية بديانة آتون التي أسسها إخناتون ، كما رأينا ،  
عن عداء متعمد تجاه الديانة الشعبية . ولقد اخذتنا الدهشة  
من حق ، اذ لاحظنا ان الديانة اليهودية تجهل العالم الآخر  
والحياة بعد الموت ، بالرغم من ان هذا المعتقد لا يتنافى مسع  
التوحيد الاكثر تشددا . بيد ان هذه الدهشة تنقشع اذا انتقلنا  
من الديانة اليهودية الى ديانة آتون ، واذا سلمنا بأن هذا النفي  
للحياة في الآخرة مقتبس من ديانة إخناتون . فقد كان نبذ فكرة  
الآخرة قد اصبح ضروريا بالنسبة الى إخناتون في نضاله ضد  
الدين الشعبي الذي كان أوزيريس ، إله الاموات ، يلعب فيه  
دورا اعظم على الارجح من دور اي إله آخر من الآلهة العليا للمناطق  
والتوافق بين الديانتين اليهودية والآتونية بصدد هذه النقطة  
الهامة هو اول حجة جديفة في تأييد أطروحتنا . وسوف نرى انها  
ليست الحجة الوحيدة .

لم يهب موسى اليهود ديننا جديدا فحسب ، بل أسس ايضا  
- هذا مؤكد - عادة الختان التي لها اهميتها القصوى من منظور  
المشكلة التي تستأثر باهتمامنا . ومع ذلك ، فان هذه الواقعة لم  
تقدر حق قدرها حتى اليوم . صحيح ان الرواية التوراتية كثيرا  
ما تناقضها ، يُارجاعها اولا الختان الى عصر الآباء (١٤) وباعتبارها

---

١٤ - الآباء : زعماء اسر بنى اسرائيل قبل الخروج ، ويسمون ايضا

«الترجم»

بالانبياء .

اباه علامة على الحلف المعقود بين الله و ابراهيم ، وبسردها ثانيا ، في مقطع شديد الغموض ، ان الله ، المتناظر من موسى لتقاعسه عن العمل بتلك العادة المقدسة ، قرر ان يعاقبه بالموت ، وان زوجة موسى ، وهي من بنات مديان ، انقذت زوجها المهتدد بالفضب الإلهي باسراعها في اجراء العملية . بيد ان هذا محض تحريف ينبغي الا يوردنا مورد الخطأ وسوف نعرف الدوافع اليه فيما بعد . ولكن من الصحيح ايضا اننا اذا تساءلنا من اين جاءت اليهود عادة الختان ، ما امكنا ان نجيب الا بالقول : «من مصر» . وينبئنا هيرودوس ، «ابو التاريخ» ، ان الختان كان يطبق في مصر من قديم الازمان، وقد أكد اقواله هذه اكتشاف المومياءات، وحتى بعض الرسوم على الجدران الداخلية للاضرحة . ولم يأخذ بهذه العادة ، على حد ما نعلم ، اي شعب آخر من شعوب شرقي البحر الابيض المتوسط . وفي وسعنا التوكيد بأن الساميين والبابليين والسومريين ما كانوا يختنون . والتوراة نفسها تقول الشيء نفسه عن سكان كنعان ، وهذا امر مسلم به في مغامرة بنت يعقوب والامير شكيم (١٥) . ونحن نرى ان ليس ثمة اساس من الصحة للفرضية القائلة بأن اليهود في مصر قد

---

١٥ - نحن نعلم اننا نعرض منهجنا . حين نتناول المأثور التوراتي من هذا المتناول الطلق والاعتباطي ولا نستخدم من نصوصه الا تلك التي تؤيد وجهات نظرنا بينما نطرح جانبا في الوقت نفسه النصوص التي تكذبها ، نعلم اننا نعرض منهجنا لصارم النقد ، ونضعف من قوة حججنا على الاقناع . ومع ذلك، فان هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة في تناول مادة لحق الذي جدي بصدقها، كما هو معلوم ، بنتيجة التحريفات المفرضة . وأمنا ان يلقي مجهودنا الانصاف متى ما أزعج الستار من تلك الدوافع الخفية . وانه ليستحيل الوصول الى يقين ، ونحن نرغم اصلا ان نمة مؤلفين آخرين قد سلكوا مسلكنا .

اخذوا بعبادة الختان عن غير طريق الديانة التي اسسها موسى . ولا ننس ان الختان كان في مصر عادة رائجة لدى جميع اوساط الشعب ؛ ولنفترض لهنيهة من الزمن ان موسى ، كما يسود الاعتقاد بوجه عام ، كان يهوديا عاقد العزم على تخلص ابناء جلدته من النير المصري وعلى قيادتهم الى بلد يمكنهم فيه ان يتمتعوا بكل عزة باستقلالهم القومي ، وهذا ما حدث فعلا على كل حال . فلاي غرض كان سيفرض عليهم في هذه الحال عادة شاقة تسهم الى حد ما في تحويلهم الى مصريين ؟ وما الداعي الى تأييد ذكرى مصر في نفوسهم ؟ ألم تكن جهود موسى تهدف ، على العكس ، الى ان ينسي شعبه اليهودي موطن عبوديته ، والى ان يخلق فيه الحنين الى مذلة مصر ؟ كلا ، ان نقطة انطلاقنا والفرضية التي اتبعناها بها تتناقضان الى درجة يحق لنا معها ان نستخلص من تناقضهما النتيجة التالية : اذا كان موسى قد وهب اليهود لا ديانة جديدة فحسب ، بل شريعة الختان ايضا ، فهذا لانه كان مصريا ولم يكن يهوديا ، الامر الذي يترتب عليه ان الدين الموسوي كان في أرجح الظن ديانة مصرية ، لا ديانة الشعب العظيمة الاختلاف ، بل ديانة آتون التي تتفق معها الديانة اليهودية في العديد من النقاط الهامة .

وكما سبق ان لاحظت ، فان فرضيتي عن الاصل المصري ، لا اليهودي ، لموسى تثير لغزا جديدا . فبعض اشكال السلوك التي قد تبدو طبيعية لدى اليهودي تصبح عصبية على الفهم لدى المصري . ولكننا اذا وضعنا موسى في عصر إخناتون ، واذا جعلنا بينه وبين هذا الفرعون صلة ، فان اللغز عندئذ يستبين ، والاسئلة المنطرحة تبدو وكأنها وجدت حلها . لنفترض ان موسى كان ينتمي الى اسرة نبيلة ، وأنه كانت له مكانة سامية ، وأنه ربما كان من اعضاء الاسرة المالكة كما تقول الخرافة . وبما انه كان واعيا بكل تأكيد لإمكانياته الكبيرة ، فقد كان عظيم الطموح ،

قوي التصميم ، وربما كان يحلم بأن يصبح ذات يوم قائدا لشعبه ورب الامبراطورية . ولما كان من المقربين الى فرعون ، فقد كان يجاهر بنصرته ، عن اقتناع ، للعقيدة الجديدة التي استوعب افكارها الاساسية واعتنقها . ومع الردة التي اعقبت وفاة العاهل ، انهارت آماله جميعا ومطامحه كافة . ولم يعد لدى مصر ما تقدمه اليه ، اللهم الا اذا جحد معتقداته العزيزة عليه . لقد اضاع وطنه . وفيما هو على ما هو عليه من شدة وكرب ، اهتدى الى حيلة غريبة . فقد كان إخناتون الحالم قد نفر منه روح شعبه وافسح في المجال لتجزئة امبراطوريته . وتخيل موسى ، المحبو بقوة التسكينة ، مخططا لتأسيس امبراطورية جديدة يعطيها الديانة التي ازدرتها مصر . وكانت هذه ، كما نرى ، محاولة بطولية ، للوقوف في وجه القدر ، وللبحث عن تعويض - في اتجاهين اثنين - عما نزل به من ضرر بنتيجة الخطب الذي ألم بإخناتون . ولعله كان يومئذ حاكما لذلك الاقليم الواقع عند الحدود (ارض جاسان) الذي استقرت فيه بعض القبائل السامية ، منذ ايام الهكسوس في اغلب الظن . ومن هذه القبائل على وجه التحديد اراد ان يخلق شعبه الجديد ، وهذا قرار له اهميته التاريخية الكبرى (١٦) .

---

١٦ - اذا كان موسى قد شغل حقا وفعلا وظيفة رفيعة ، فاننا نفهم بسهولة اكبر دور الزعيم الذي اداه بين اليهود . واذا كان كاهنا ، فقد سهل عليه ان يظهر بمظهر المؤسس لدين . وفي كلتا الحالتين كان يتابع ممارسة مهنته ليس الا . ولقد كان في ميسور امير ملكي ان يكون في آن واحد حاكما وكاهنا . وفلافْيوس يوسيفوس ( «الساديات اليهودية» ) يقل بأسطورة الهجرة ، ولكن يبدو انه اطلع على ماوروات اخرى غير ماوروات التوراة . ففي رايه ان موسى قائد عسكري مصري خاض في الحيشة حربا ظافرة .

لقد اتصل اذن بهذه بهذه القبائل ، وتزعمها ، وتظم هجرتها  
«بيد من حديد» . وبخلاف ما تفوله التوراة ، لا مندوحة لنا من  
التسليم بأن «الخروج» تم بدون عقبات ومن دون ملاحقة اي من  
الهاربين ، وهذا امر كان ممكنا بفضل سلطان موسى الذي لم  
تكن هناك اي سلطة مركزية لتضع العصي بين عجلاته .

واذا صحت فرضيتنا ، فان «الخروج» قد حدث بين ١٣٥٨  
و١٣٥٠ ق. م . ، اي بعد وفاة إخناتون وقبل ان يعيد  
حورمحب (١٧) توطيد سلطان الدولة . وما كان ممكنا ان يكون  
هدف الرحلة الا كنعان . فالى هذه البلاد كانت عشائر مسن  
الآراميين المحبين للحرب قد تسلت غازية ناهبة بعد تقوض  
الهيمنة المصرية ، مشيرة بذلك الى المكان الذي يمكن فيه لشعب  
مقتدر ان يتملك اراضي جديدة . ونحن نعرف اخبار هؤلاء  
المحاربين من الرسائل المكتشفة عام ١٨٨٧ في سجلات مدينة  
العمارة المتهدمة . فهي تسميهم باسم «عابرو» ، وقد اطلق هذا  
الاسم فيما بعد - لسنا ندرى كيف - على الغزاة الجدد اليهود:  
العبرانيين الذين ما كان في استطاع رسائل العمارة ان تسميهم  
لانهم قدموا في زمن لاحق . وفي جنوبي فلسطين ، في كنعان ،  
كانت تعيش ايضا بعض قبائل تمت بصلة حميمة الى اليهود  
القادمين من مصر .

ان الدوافع التي حملت على الاخذ بعبادة الختان وتسيببت في  
«الخروج» ، لواحدة في رأينا . ومعلوم لدينا ما رد فعل البشر ،

---

١٧ - حدث «الخروج» اذن قبل قرن تقريبا مما يفترض معظم المؤرخين  
الذين يجعلون تاريخه في عصر السلالة التاسعة عشرة ، في عهد مرتباتح ، او  
ربما بعده بقليل ، لان الروايات الرسمية تعدد على ما يبيلو زمن خلو العرش  
بعهد حورمحب .

أشعوبا كانوا ام أفرادا ، تجاه هذه المادة السحيقة القدم التي بات فهمها في غاية الصعوبة . فهي تبدو لمن لم يأخذ بها غريبة ومفزعة ، ولكن من حافظ عليها يفخر بها ويمتاز . فهو يشعر بأنها تعظم من قدره وتسبغ عليه نبلا ، فتراه يحتقر الاغلف (١٨) ويظن به النجاسة . والى اليوم ايضا ما تزال احدى الشتائم التي يرمي التركي بها المسيحي هي «كلب أغلف» . وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن موسى ، الذي كان مختونا بصفته مصريا ، كان يأخذ بهذه النظرة . وعليه ، كان لا بد ان ينوب اليهود الذين هجر بصحبتهم وطنه مناب المصريين الذين بتّ صلته بهم ، فلا يكونون بحال من الاحوال ادنى منهم فدرا . كان موسى يريد ان يجعل منهم «شعبا مقدسا» ، على حد ما جاء بالحرف الواحد في التوراة . وكعلامة على تكريسهم هذا حملهم على الاخذ بالمادة التي تجعلهم على الاقل عدلاء للمصريين . فضلا عن ذلك ، ما كان لموسى الا ان يفتبط لتمييزهم على هذا النحو ، بالختان ، على الشعوب الاجنبية التي ستقودهم هجرتهم اليها ، فبدلك يتحاشى اليهود الاختلاط بهذه الشعوب ، مقتدين في هذا بالمصريين انفسهم الذين كانوا يميزون انفسهم عن جميع الاجانب (١٩) .

«الترجم»

١٨ - الاغلف : من لم يختن .

١٩ - يروي هيرودوس الذي زار مصر في حوالي عام ٤٥٠ ق.م. ، في قصة رحلته ، واقعة تصلح معلا لتمييز الشعب المصري ونطوي على محاكاة مدلهة لبعض الخصائص المعروفة عن اليهودية المناخرة : «انهم من جميع الوجوه اكثر ورعا ونقى من سائر البشر الذين تميزهم عنهم ايضا عادات اخرى . وهكذا كانوا يمارسون الختان الذي كانوا هم اول من اخذ به لدواعي النظافة . لم انهم يشتمون من الحنابرة ، وهذا يرجع بالتأكيد الى كون «ست» المنليس =



بيد ان التقاليد اليهودية سلكت في زمن لاحق مسلك من ارهقته الاستنتاجات التي عرضناها . فالتسليم بأن الختان كان عادة مصرية يعدل تقريبا الاعتراف بأن الديانة التي وهبها موسى كانت ديانة مصرية . ولما كان لليهود دواع قوية لانكار هذه الواقعة ، لم يكن لهم مناص من ان ينكروا ايضا كل ما يتعلق بالختان .

## - ٤ -

لقد موضعت قصة موسى في عصر إخناتون ، وقلت ان قراره بأن يمسك بين يديه بزمام مصالح الشعب اليهودي أملاه عليه ظرف البلاد السياسي في تلك الحقبة ، واعترفت أخيرا بأن الديانة التي وهبها لشعبه كانت ديانة آتون التي كان المصريون

---

= شكل حنزير اسود قد جرح «حوريس» . وأخيرا وعلى الاخص، براهم يجلون الابتكار التي لا يأكلونها البتة ولا يضحونها لانهم لو فعلوا لاهانوا ايوريس التي لها قرون بقرة . ولهذا يأبى الرجل او المرأة من المصريين تقبيل يوفاني او استعمال سكينه او فرشاته او قدره ويأبون اكل لحم بقرة طاهرة نحررت بسكين يونانية ، ... وكانوا في كبرياتهم الضيقة ينظرون من عل الى الشعوب الأخرى التي كانت نجسة وأكثر ابتعادا منهم عن الالهة» (نقلا عن إرمان : «الديانة المصرية» ، ص ١٨١ ، الخ) .

وطبيعي اننا لن ننسى قطعا هنا المقارنات المستمدة من حياة الهندوسيين . ولنتساءل ، بالمناسبة . من أوحى للشاعر اليهودي هنري هاينس ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، ان يشتكي من دينه بقوله انه «تلك الافة الواردة من وادي النيل ، تلك العقيدة الموبوءة لمصر القديمة» ؟

قد نبذوها لتوهم . واني انتظر الان ان ينهال علي اللوم بانسي  
شدت هذا البناء على محض مصادفات يتيقن لا يستند البتة  
الى وثائق اكيده . ويخيل الي ان هذا المآخذ بعيد عن الانصاف؛  
فلقد سبق لي ان ابرزت في مدخل مقالي عنصر الشك ، وسلطت  
عليه ساطع الاضواء ، مفترضا بان ذلك سيوفر علي مشقة المعاودة  
من البداية في كل مرة .

وسوف تحتل بعض ملاحظاتي النقدية بالذات مكانها في هذه  
الناقشة . والنقطة الاساسية في اطروحتنا ، ونعني بها تبعية  
التوحيد اليهودي للحقبة التوحيدية في التاريخ المصري ، قد  
استشفها ونوه بها العديد من المؤلفين . ولا جدوى من ايراد  
اقوالهم هنا لان ما من احد منهم استطاع ان يحدد الطريق الذي  
لعب من خلاله هذا التأثير دوره . وبالرغم من ان هذا التأثير يظل  
مرتبطا في نظرنا بشخص موسى ، فلا مرء في ان ثمة احتمالات  
اخرى تظل قائمة خارج نطاق الاحتمال الذي آثرناه على غيره .  
فلا شيء يبيح لنا الافتراض بان سقوط ديانة آتون الرسمية كان  
بمثابة النهاية التامة للحركة التوحيدية في مصر . فمدرسة كهنة  
اون ، التي انطلق منها التوحيد ، لم تتلاش مع النكبة ، وأرجح  
الظن انها استمرت في تدريس الاجيال وتعليمها بعد وفاة إخناتون  
بفترة طويلة . وحتى على فرض ان موسى لم يكن معاصرا لإخناتون  
وحتى على فرض ان النبي لم يتعرض لتأثير هذا الملك الشخصي،  
فلا شيء يحظر علينا الاعتقاد بأنه ربما كان من اتباع مدرسة أون  
او حتى من اعضائها . وهذه الفرضية ستقودنا الي ان نحدد  
بالقرن الثاني عشر زمن «الخروج» ، وهذا التحديد مقبول بشكل  
عام ، ولكن ليس ثمة ما يؤكد غير ذلك . ولكن كيف نفسر في  
هذه الحال الدوافع التي وجهت خطى موسى الذي ما كان  
«خروجه» ل يتم بالسهولة التي تم بها لو لم يتفق مع مرحلة من  
الفوضى في مصر ؟ فملوك الاسرة التاسعة عشرة ، أخلاف

إخناثون ، حكموا البلاد بحزم . وجميع الظروف الخارجية والداخلية القمينة بتسهيل «الخروج» لم تتوفر الا عقب موت الملك الزنديق مباشرة .

يملك اليهود ادبا غنيا خارج اطار التوراة ، نلقى فيه الخرافات والاساطير التي تراكمت على مر العصور حول شخصية الزعيم ، مؤسس الديانة ، فشوهت وشوشت هذا الوجه . ولعل بعض اجزاء من الماثور الصالح في هذه المادة الغزيرة قد أيدت بعد ان تعذر عليها ان تجسد لها مكانا في « اسفار موسى الخمسة» (٢٠) . وتصف واحدة من هذه الخرافات وصفا اخاذا كيف تجلت كبرياء موسى منذ نعومة اظفاره . فبينما كان فرعون يلاعبه ذات يوم ، اخذه بين ذراعيه ورفعه عاليا . فما كان من الطفل ، البالغ يومئذ من العمر ثلاثة أعوام ، الا ان انتزع منه تاجه ووضعه على راسه . فتطير الملك من ذلك واستشسار حكماؤه (٢١) . وتحدثت القصة في موضع آخر عن مآثر موسى الحربية في الحبشة ، وتضيف بأنه ان كان قد اضطر الى الهرب من مصر فهذا لانه بات يخشى حسد عصابة من البلاط ، بل حسد الفرعون نفسه . والرواية التوراتية ذاتها تنسب الى موسى بعض خصال نجدنا ميالين الى تصديقها . فالنبي يظهر في التوراة سريع الغضب ، عنيفا ، فقد قتل في نوبة غضب ناظرا فظا كان يسيء معاملة عامل يهودي ، وحطم لسخطه على انحطاط شعبه لوائح الشريعة التي أعطيت له في جبل سيناء . بل ان اللبنة نفسها ، في خاتمة المطاف ، عاقبه على بادرة من بوادر نفاذ الصبر نجهل طبيعتها . ولما كانت مثل هذه الخصال لا تحيط الشخص

---

٢٠ - الاسفار الخمسة الاولى من التوراة . «الترجم»

٢١ - يروي يوسفوس الحادثة نفسها مع شيء من التعديل .

بهالة مجيدة ، فأرجح الظن انها مطابقة للحقيقة التاريخية . ومن المحتمل ايضا ان تكون بعض الخصال التي اضافها اليهود الى تصورهم السابق عن الله قد اقتبست في الواقع من ذكرى موسى ، وعلى سبيل المثال حين يتكلمون عن إله غيور ، صارم ، قاسي القلب . وعلى كل ، ليس موسى ، لا إله من الآلهة لا يقبل التجزئة ، هو الذي نجا بهم من مصر ؟

نمة سمة اخرى تنسب الى موسى جديرة ، هي كذلك ، بان تحظى منا باهتمام خاص . فالنبي على ما يبدو كان «ثقيلا اللسان» ، اي انه كان يشكو ، ولا بد ، من علة في التعبير او من عيب في النطق ، وهذا ما اضطره الى ان يستعين بهارون ، الذي يقال انه كان اخاه ، في مناقشاته المزعومة مع فرعون (٢٢) . ولعلنا هنا ايضا امام حقيقة تاريخية ، وهذا ما يسهم لحسن الحظ في هذه الحال في بث الحياة في صورة الرجل العظيم . ولكن في وسعنا ان نستخلص من ذلك استنتاجا اعظم اهمية ايضا : افلا تشير القصة ، عن هذا الطريق المتتوي ، الى ان موسى كان اجنبيا يعجز ، على الاقل في بدء علاقاته مع المصريين الجدد الساميين ، عن الاتصال بهم بدون معونة مترجم ؟ ان لقي ذلك تأييدا للاطروحة : ان موسى كان مصرية .

يبدو اننا وصلنا هنا الى نتيجة اقل ما يقال عنها انها مؤقتة . فسواء اكانت فرضيتنا عن الجنسية المصرية صحيحة ام لم تكن ، فظاهر للوهلة الاولى اننا لا نستطيع ان نستخلص منها اكثر مما استخلصنا . ان اي مؤرخ لا يستطيع ان يرى في القصة التوراتية

---

٢٢ - «قال موسى للرب : استمع ايها السيد . لست انا صاحب كلام مند امس ولا اول من امس ولا من حين كلمت عبدك . بل انا ثقيل الفم واللسان» (سفر الخروج ، الاصحاح الرابع) . «الترجم»

عن حياة موسى و«الخروج» سوى اسطورة ورعة ادخلت تعديلا مفرضا على ماثور مفرق في القدم . ونحن لا نعلم ما كانه هذا الماثور في الاصل . ويودنا ايضا لو نتكهن بطبيعة تلك الاغراض المشوّهة ، ولكن الجهل بالاحداث التاريخية يبقينا في الظلمة الدامسة . واذا كنا لم نقم اعتبارا ، في اعادة بنائنا للقصة ، للمصائب العشر (٢٢) ولعبور البحر الاحمر ولنزول الشريعة في جبل سيناء ، فهذا لا ينبغي ان يشوش علينا افكارنا . بيد اننا حين نجد انفسنا في تعارض مع الابحاث التاريخية الموضوعية المعاصرة ، فان ذلك لا يمكن ان يتقابل منا بعدم الاكتراث .

ان هؤلاء المؤرخين المحدثين ، الذين نضع على راسهم ماير (٢٤) ، يتفقون مع التوراة في نقطة اساسية . فهم يقرون بان القبائل اليهودية ، التي التفت لاحقا لشعب اسرائيل ، اعتنقت في حقبة معينة ديانة جديدة . ولكن هذا الحدث لم يقع في مصر ، ولا عند سفح جبل في شبه جزيرة سيناء ، وانما في موضع يدعى مريبة قادش ، وهو واحة معروفة بغزارة بناييمها وميونها ، تقع جنوبي فلسطين ، بين الطرف الشرقي لشبه جزيرة سيناء والطرف الغربي لشبه الجزيرة العربية . وقد اعتنق اليهود فيها عبادة إله يدعى يهوه ، بعد اقتباسها في أرجح الظن من قبيلة المديانيين العربية المجاورة . ومن المحتمل ان تكون قبائل اخرى مجاورة قد تبنت ، هي الاخرى ، هذا الإله .

لقد كان يهوه بالتأكيد إله براكين . والحال ان ما من احد يجهل انه لا وجود لبراكين في مصر ، وأن جبال شبه جزيرة

---

٢٢ - هي المصائب التي تقول التوراة ان الرب انزلها بالمصريين . «الترجم»

٢٤ - إ. ماير : «اليهود والقبائل النسبية» ، ١٩٠٦ .

سيناء لم تكن قط هي الاخرى بركانية. وبالمقابل ، نرى السواحل الغربية لشبه الجزيرة العربية تربل ببراكين كانت ناشطة لحقبة طويلة من الزمن. ولا بد ان احد هذه الجبال كان حوريب المعروف باسم جبل سينا الذي قيل انه كان مقام يهوه (٢٥) . وبالرغم من كل التحوير الطارئ على النص يسعنا ، طبقا لراي إ. ماير ، ان نعيد بناء صورة الإله : فهو شيطان متسووم ودموي يجوس ليلا ويخشى ضوء النهار (٢٦) .

ومع ولادة الدين الجديد ، دمي الوسيط بين الإله والشعب بموسى . وكان هذا الاخير صهر كاهن مديان ، يثرون ، الذي كان يرعى له غنمه حين دعاه الرب . وقد قدم يثرون الى قادش حتى يراه ويلقنه تعاليمه .

ويصرح إ. ماير بأنه لم يشك قط بأن ثمة قسما من الحقيقة في قصة المقام في مصر والخطب الذي ألم بالمصريين (٢٧) ، ولكن من دون ان يدري بالطبع كيف يحدد زمن هذه الاحداث ولا كيف يستخدمها . وهو لا يرضى بأن يعزو اصلا مصريا الا الى عادة الختان وحدها . وهو يفني محاجتنا السابقة بإفادتين هامتين ، اذ يقول لنا اولا ان «يشوع (٢٨) سأل الشعب ان يأخذ بعبادة الختان تحاشيا لسخرية المصريين» ، واذ يستشهد ثانيا بـ «بهرودوتس الذي يروي ان الفينيقيين (المقصود بهم اليهود بلا ريب) والسوريين في فلسطين يقرون بأنهم اقتبسوا عادة الختان

---

٢٥ - جاء في عدة مواضع من النص التوراتي ان يهوه نزل من سيناء في مريية قادش .

٢٦ - المصدر الانف الذكر ، ص ٢٨ ، ٥٨ .

٢٧ - المصدر الانف الذكر ، ص ٤٩ .

٢٨ - يشوع بن نون : خادم موسى وخليفته . «المرجم»

من المصريين (٢٩) . ولكن فكرة موسى مصري لا تروق له البتة . يقول : «ان موسى الذي نعرفه هو سلف كهنة قادش ، اي وجه من خرافة الانساب يتصل بالعبادة ، وليس شخصا تاريخيا . وبالأصل ، واذا استثنينا اولئك الذين يعزون قيمة تاريخية الى كل تراث ، كائنا ما كان ، لم يفلح اي واحد من الذين عدوا موسى شخصية تاريخية في ملء هذا القلب الفارغ بمضمون ما ، ولم يتوصل اي واحد انى ان يجعل منه شخصية عينية ، ولم يستطع ان ينبتنا بأي شيء عما أبدعه او عن عمله التاريخي» (٢٠) .

وبالمقابل لا يكل إ. ماير ابدا من التنويه بعلاقات موسى بقادش ومديان . «ان وجه موسى مرتبط ارتباطا وثيقا بمديان وبمعابد الصحراء (٢١) . . .» . «ان وجه موسى هذا مرتبط ارتباطا لا تنفصم عراه بقادش . وبزواجه من ابنة كاهن مديان ، وثق تلك الروابط . وعلى العكس من ذلك ، فان صلاته بـ «الخروج» وقصة طفولته في مجملها ثانوية تماما ، وهي محض نتيجة لضرورة ادراج موسى في اطار قصة متماسكة متساوقة» (٢٢) . ويعيد ماير الى الاذهان بعد ذلك ان جميع الوقائع المهمة المذكورة في قصة موسى قد اُغفلت فيما بعد : «في مديان لم يعد موسى مصريا ولا صهرا لفرعون ، وانما راع يتجلى له الله . وفي قصة المصائب العشر لا يرد ذكر مطلقا لعلاقاته القديمة. على الرغم مما كان يمكن ان يكون لها من فائدة ، ويبدو في الوقت نفسه وكان ستارا من النسيان قد أسدل على الامر الصادر بقتل المواليد

---

٢٩ - المصدر نفسه ، ص ٤٤٩ .

٢٠ - المصدر نفسه ، ص ٤٥١ .

٢١ - المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

٢٢ - المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

اليهود . اما فيما يخص «الخروج» وهلاك المصريين ، فان موسى لا يعود يلعب اي دور ولا يرد ذكر حتى لاسمه . والطابع البطولي لقصة الطفولة يتلاشى تماما في الطور اللاحق من حياة موسى الذي يمسي مجرد صنيعه لله ، صانع معجزات جباه يهوه بقوة فوق طبيعية» (٢٢) .

هنا يخالجننا انطباع قاهر بان موسى قادش ومديان هذا ، الذي امكن للماتور حتى ان يمزو اليه القدرة على ان يجعل ثعبانا من القلز يمثل إلها من آلهة الشفاء يسعى وينتصب ، مختلف كل الاختلاف عن المصري المهيب الذي استنتجنا وجوده والذي وهب الشعب ديانة تحرم شديد التحريم جميع طقوس السحر او الشعوذة . ولعل موسانا المصري يختلف عن موسى مديان بقدر اختلاف الإله الكوني آتون عن قاطن الجبل المقدس : يهوه الشيطان . واذا ما صدقنا ، ولو بعض التصديق ، اكتشافات المؤرخين المحدثين ، نجد انفسنا مكرهين على التسليم بان الخيط ، الذي يفترض فيه ، بدءا من الايمان بالاصل المصري لموسى ، ان يفيدنا في نسج لحمتنا ، قد انقطع للمرة الثانية ودونما أمل هذه الكرة في ان يعاد وصله .

- ٥ -

ولكن ها هي ذي وسيلة غير متوقعة تتاح لنا هنا لتذليل الإشكال . فبعد إ. ماير ، بذل فرسمان وباحثون آخرون قصارى جهودهم لكي يرفعوا وجه موسى عاليا فوق وجه كهنة قادش

---

٢٢ - المصدر نفسه ، ص ٤٧ .



ولكي يثبتوا الصيت الذي أسبغه عليه الموروث . وقد اكتشف  
 إ. سيلن اكتشافا عظيم الأهمية (٢٤) عندما وجد في سفر النبي  
 هوشع (النصف الثاني من القرن الثامن) الآثار الأكيّدة للمآثور  
 ينص على أن مؤسس الدين ، موسى ، لقي نهاية مفجعة اثناء  
 تعرد قام به شعبه العنيد والمشاكس كما أن الدين الذي أسسه  
 تم هجره والنكوص عنه في الحقبة نفسها . وهذا المآثور لا نلفاه  
 اصلا في سفر هوشع وحده ، وانما يعاود ظهوره فيما بعد في  
 كتابات معظم الانبياء ، وعليه بالذات ، على حد تقدير سيلن ،  
 ستنبني جميع الآمال اللاحقة بقدم المسيح المنتظر . وفي أواخر  
 السببي البابلي على وجه التحديد شرع اليهود يعقدون الرجاء على  
 فكرة أن النبي الذي قتلوه غيلة بسفالة لا تضارعها سفالة سيبعث  
 من بين الاموات وسيقود شعبه التائب ، وربما شعوبا اخرى  
 غيره ، الى مملكة الهناء الابدي . وليس من مهمتنا ان نقيم مقارنة  
 مع المصير المماثل الذي سيقدر في زمن لاحق لمؤسس آخر  
 للدين (٢٥) .

لست مؤهلا بالطبع للبت في صحة تأويل سيلن للمقاطع  
 التنبؤية . ولكن اذا كان الصواب حليفه ، فسيكون من المباح لنا  
 في هذه الحال ان نعد المآثور الذي تعرفه سيلن حقيقة  
 تاريخية . وبالفعل ، ان مثل هذه الوقائع لا تختلق اختلاقا ، ولا  
 يمكن ان يكون هناك اي مبرر واقعي للاقدام على ذلك . ولكن في  
 حال حدوث هذه الوقائع فعلا ، يسهل علينا ان نفهم لماذا بدأ  
 تناسيها امرا مرجوا . ولا شيء يرغمننا على تصديق جميع تفاصيل

٢٤ - إ. سيلن : «موسى وأهميته في تاريخ الدين الإسرائيلي - اليهودي»

١٩٢٢ .

٣٥ - يقصد المسيح . «م»

المأثور . وسيلن يعتقد ان اغتيال موسى كان مسرحه شطيم في المنطقة الشرقية من الاردن . وسوف نرى عما قليل ان اختيار هذه المحلة لا يتفق وحججنا .

اننا نقتبس من سيلن الفكرة القائلة بان الديانة التي جاء بها المصري موسى قد هجرت بعد ان اغتاله اليهود . وهذه الفرضية تبيح لنا ان ننسج لحمطنا من دون ان نعاكس النتائج الجديرة بالثقة التي توصل اليها المؤرخون . بيد اننا نبيح لانفسنا الا نتبنى آراءهم جميعا وان نتابع طريقنا الخاص . ان «الخروج» من مصر بظل نقطة انطلاقنا . ولا شك في ان عددا كبيرا من الناس قد اضطروا الى مغادرة البلاد في اعقاب موسى . وبالفعل ، ان رجلا طموحا ، بعيد الهممة مثله ، ما كان ليتحمل مشقة قيادة جماعة صغيرة من اليهود . ولا ريب في ان مقام المهاجرين في مصر قد طال بما فيه الكفاية حتى يؤلف اليهود قوما كثير التعداد . بيد اننا لن نجازف باقتراح خطأ اذا سلمنا، مع معظم المؤلفين ، بان جزءا فقط مما سيتألف منه الشعب اليهودي عانى من نير الاسر في مصر . وبعبارة اخرى، ان القبيلة، العائدة من مصر ، انضمت ، في المنطقة الواقعة بين مصر وكنعان ، الى قبائل اخرى نسبية كانت قد استقرت فيها منذ امد بعيد . هذا الانصهار ، الذي انبثق عنه شعب اسرائيل ، تجلى في اعتناق ديانة جديدة تدين بها القبائل جميعا ، ديانة يهوه . ويقدر إ. ماير ان هذا الحدث تم في قادش تحت تأثير المديانيين . وغب ذلك أحس الشعب في نفسه القوة الكافية ليشرع بغزو كنعان . هذه الوقائع كافة تحول دون القبول بالفرضية القائلة ان الفاجعة التي مني بها موسى ودينه قد حدثت في المنطقة الواقعة شرقي الاردن ، اذ انها وقعت ، لا بد ، قبل التقاء القبائل بفترة طويلة .

لا مرأ في ان عناصر شديدة التنوع ساهمت في تكوين

الشعب اليهودي ، لكن الاختلاف الكبير بين القبائل سينجم بالتأكيد عن ان بعضها اقام في مصر فاثرت فيه جميع الاحداث التي جرت فيها ، بينما لبث بعضها الآخر مقيما حيث كان يقيم . وفي وسعنا القول ، آخذين بعين الاعتبار هذه الواقعة ، ان الامة اثبتت عن اتحاد مركبين اثنين ، ومن هنا كان انفصالها ، بعد فترة وجيزة من الوحدة السياسية ، الى شطرين : مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا . والتاريخ يحب هذه الضروب مسن الإحياء (٣٦) التي بفضلها تلتفي الانصهارات المتأخرة بينما تعاود على العكس الانفصالات القديمة ظهورها . وأسطم مثال على ذلك ، كما نعلم ، هو مثال الإصلاح اللوثيري الذي سمح ، بعد فاصل زمني دام اكثر من الف عام ، بمعاودة ظهور خط فاصل بين جرمانيا المرومنة (٣٧) وجرمانيا التي لبثت مستقلة . ونحن لا نعثر ، فيما يخص الشعب اليهودي ، على مثل هذا الاستسناخ الامين لوضع بائد ، ومعرفتنا بذلك العصر ليست على درجة كافية من التيقن لتبيح لنا ان نؤكد ان من بقي مقيما في البلاد كان موجودا في الشمال ، وان من رجع من مصر استقر في الجنوب . ولكن هنا ايضا لم يكن الانقسام اللاحق مبتور الصلة بالاتحاد المتحقق آنفا . ولا مرأ في ان المصريين القدامى ، الذين كانوا في ارجح الظن اقل عددا ، كانوا اكثر تطورا من وجهة نظر الحضارة . وقد كان لهم ، على التطور اللاحق للشعب ، تأثير كبير ، لانهم كانوا حاملين لماثور يفتقر اليه الآخرون .

ولعلمهم حملوا معهم شيئا آخر ايضا ، شيئا يقع اكثر من الماثور تحت الحس . فمسألة اصل اللاويين تشكل واحدا من

«الترجم»

٣٦ - يقصد إحياء الممالك الرائلة .

«الترجم»

٣٧ - المرومنة ، اي المطبوعة بالطابع الروماني .

اعظم الغاز ما قبل تاريخ اليهود . ونسبهم يرجع عادة الى واحد من اسباط اسرائيل الاثني عشر ، سبط لاوي ، ولكن لا بجرؤ اي ماثور ان يحدد من اين جاء هذا السبط او ان يعين اي منطقة من بلاد كنعان المغزوه خصصت له . وكانوا يشغلون في مراتب رجال الدين ارفع المناصب ، مع تميزهم في الوقت نفسه عن الكهنة . فاللاوي ليس بالضرورة كاهنا ، وهذا الاسم ليس اسما لطائفة . وفرضيتنا عن موسى توحى الينا بتفسير . فمن المستحيل ان يكون شخص عظيم كالمصري موسى قد مثل بلا مواكبة امام شعب اجنبي . بل كان يرافقه بالتاكيد حاشية : انصار مقربون ، كتبة ، خدم . هؤلاء جميعا كانوا اللاويين الاوائل . وحين يجعل الماثور من موسى لاويا ، ففي ذلك تشويه ظاهر للوقائع . فاللاويون كانوا بطانة موسى . والواقعة التالية ، المشار اليها آنفا ، تؤكد هذه الاطروحة : اننا لن نعثر على اسماء مصرية في الازمان التالية الا بين اللاويين (٢٨) . وفي وسعنا الافتراض بان عددا كبيرا من بطانة موسى هؤلاء قد امكن لهم النجاة من النكبة التي نزلت بالنبي وبالديانة التي اسسها . وقد تكاثر هؤلاء الناجون وتضاعفوا في الاجيال التالية . وقد لبثوا على وفائهم لقائدهم ، واکرموا ذكراه ، وحافظوا على ميراث مذهبهم ، وان اندمجوا مع سكان البلاد التي كانوا يحيون بين ظهرانيها . وفي حقبة التمازج مع المتشيعين ليهوه ، كانوا يشكلون اقلية فاعلة ، اكثر تمدنا من باقي السكان .

---

٢٨ - هذا الرأي يتفق مع ما كتبه يهودا حول التأثير المصري على الكتابات اليهودية القديمة . راجع ا. س. يهودا «Die Sprache des Pentateuch in ihren Beziehungen Zum Aegyptischen» .  
 ( «لغة اسفار موسى الخمسة في صلاتها باللغة المصرية» ) .

لنفترض لهنيهة من الزمن ان جيلين اثنين - ربما قرن - قد تصرما بين نهاية موسى وتوطد الديانة في قادش . فكيف نحدد ان كان المصريون المحدثون (اطلق هذا الاسم على العائدين من مصر تمييزا لهم عن سائر اليهود) ، اقول : كيف نحدد ان كان المصريون الجدد قد التقوا بأشقائهم في العراق قبل ان يعتنق هؤلاء ديانة يهوه او بعد اعتناقهم اياها ؟ أرجح الظن انهم التقوا بهم قبل اعتناقها . ولكن النتيجة النهائية كانت واحدة . فما حدث في قادش كان نسوية ساهمت قبيلة موسى بلا مرء في اقرارها .

لنعد هنا من جديد الى عادة الختان التي لا تني تؤدي لنا ، على طريقة الـ «Leit Fossil» (٢٦) اذا جاز التعبير ، أجلّ الخدمات . فقد اكتسبت هذه العادة قوة القانون في ديانة يهوه، ولما كانت مرتبطة بمصر ارتباطا لا تنفصم عراه ، فان الاخذ بها لا يمكن الا ان يكون تنازلا لصالح بطانة موسى . فقد كان أفراد هذه البطانة ، وعلى الاقل اللاويون منهم ، لا يريدون ان يتخلوا عن علامة تكريسهم . وكان هذا بالضبط ما يحرصون على الحفاظ عليه من ديانتهم القديمة ، وكانوا بالمقابل على استعداد لتبجيل الإله الجديد وتوقيره وتصديق كل ما كان الكهنة المديانيسون يروونه عنه . ولعل هؤلاء الاخيرين فازوا بتنازلات اخرى ايضا . وقد سبق ان ذكرنا ان كتاب الطقوس اليهودي يفرض بعض القيود على استعمال اسم الإله . فبدلا من «يهوه» ، كان ينبغي ان يقال «أدوناي» . ومن المغربي لنا ان نستخدم هذه الفروض لنعدم محتاجتنا ، ولكن المسألة كلها لا تعدو ان تكون مسألة فرضية بلا

---

٢٦ - تركيب مرجي الماي يقصد به «المستحالة الهادية» مثلما يقال في الموسيقى «Leit Motif» اي «اللحن الهادي» (اللازمة) . «الترجم»

اساس حقيقي متين . فتحظير النطق بالاسم الإلهي تابو قديم للغاية كما نعرف جميعا . ونحن لا نعلم حق العلم السبب الذي أدى الى تجدد ظهوره في الشريعة اليهودية ؛ وربما كان ذلك بتأثير دافع جديد . وليس بعة ما يدعو الى الاعتقاد بان التقيد بذلك التحريم كان متشددا . فقد بقي مباحا ادخال اسم الإله يهوه في اسماء الاعلام اللاهوتية النسبة ، اي في الاسماء المركبة مثل يوشانان وباهو ويشوع . ولكن هذه الاسماء كان لها مميزة خاصة . فمن المعلوم ان تفسير السوراة يقر بان لـ «الاسفار الستة» مصدرين يرمز اليهما حرفا «ي» و «إ» ، اي الحرفان الاولان من الاسم المقدس لكل من يهوه وإيلوهيم . صحيح إيلوهيم وليس ادوناي ، ولكن لننقل هنا ملاحظة احد مؤلفينا : «ان الاسماء المختلفة تشير بوضوح الى ان المقصود بها ايضا في البدء آلهة مختلفة» (٤٠) .

في رأينا ان الحفاظ على عادة الختان يثبت ان ثمة تسوية قد اقرت عند تأسيس الديانة الجديدة في قادش . و«ي» و«إ» ينبئانا بكنه هذه التسوية . وما دامت الروايتان تتفقان ، فهذا معناه ان مصدرهما واحد (كتابات او مانور شفهي) . ولقد كانت الفكرة الموجهة ابراز عظمة الإله الجديد يهوه وقوته . ونظرا الى ان اتباع موسى كانوا يعلقون أهمية كبيرة للغاية على خروجهم من مصر ، فقد كان من المناسب ان يُعزى الى يهوه مشروع التحرير هذا . ولهذا جُمِلَ الحدث بمختلف ضروب المحسنات القمينة بإبراز سلطان إله البراكين الرهيب ، وعلى سبيل المثال عمود الدخان الذي تحول ليلا الى عمود من نار ، والعاصفة التي شطرت المياه فأغرقت المطاردين ما ان عادت أمواجها الى

---

٤٠ - غرسمان : «موسى وعصره» ، ١٩١٣ .

التدفق . كذلك قربت المسافة الزمنية بين «الخروج» وتأسيس العقيدة الجديدة ، فنفي بذلك الفاصل الطويل الذي يفصل زمنيا بين الحداثين . وزعم ايضا ان الوسايا نزلت لا في قادش ، بل عند سفح الجبل المقدس ، متواكبة بثوران بركاني . بيد ان هذا الوصف انزل اجحافا بالغا بذكرى موسى . فموسى ، لا يهوه ، هو الذي اخرج شعبه من مصر ومن هنا كان لا بد من تعويضه على هذا الاجحاف ، ولهذا نقل الى قادش او الى جبل سينا - حوريب ، بدل الكاهن المدياني . وسوف نرى فيما بعد كيف اتاح هذا الحل امكانية ارضاء اتجاه آخر ملح لا يقبل مساومة . وبذلك يكون قد تم الوصول الى ضرب من تسوية : فقد اذن ليهوه ، قاطن الجبل المدياني ، ان يمد سلطانه الى مصر ، بينما حوّل وجود موسى ونشاطه الى قادش وحتى الى المنطقة الواقعة شرقي الاردن . وهكذا اندمج شخص موسى بشخص من أسس فيما بعد ديانة ، صهر يثرون المدياني ، الرجل الذي اخذ عنه اسم موسى . بيد اننا لا نعرف عن موسى الاخير هذا شيئا شخصيا ، لان الآخر ، اي موسى المصري ، ييزه بصفة مطلقة . لا نعلم عنه سوى الصورة التي تعج بالمتناقضات والتي يقدمها لنا النص التوراتي عن مزاج موسى . فغالبا ما يصوره لنا هذا النص في صورة مخلوق مستبد ، سريع الغضب ، بل فظ ، بيد انه يقول عنه في الوقت نفسه انه اكثر الرجال دماثة وصبرا . وواضح ان الصفات الاخيرة هذه ما كانت لتنتطبق البتة على موسى المصري الذي كان يعلل النفس بمشاريع واسعة وصعبة للغاية فيما يخص شعبه . ولا ريب في انها كانت بالاحرى صفات موسى المدياني . من المباح لنا اذن ، على ما اتصور ، ان نفصل بين كلا الشخصين ، وان نسلم بان موسى المصري لم يذهب قط الى قادش ولم يسمع قط باسم يهوه ينطق ، بينما لم تطل قدما موسى المدياني ارض مصر قط وكان جاهلا بكل شيء عن آتون .

وحتى يتم الانصهار بين الشخصين ، كان لا بد ان ينقل المأثور  
والخرافة موسى المصري الى مديان ، ولقد رأينا ان هذه الواقعة  
فسرت بصور شتى .

- ٦ -

اننا لو انقون باننا سنلام على جراتنا المتجاوزة للحدود في  
اعدتنا بناء التاريخ القديم لشعب اسرائيل ، وعلى ما ندلل عليه  
من ثقة مسرفة ليس لها ما يبررها . هذا النقد لن يبدو لسي  
متجاوزا للحدود في قسوته لانه يجد له صدى في استدلاسي  
بالذات . واني لاعلم حق العلم ان عملنا في اعادة البناء ينطوي  
على جوانب ضعف ، ولكنه يشتمل ايضا على جوانب قوة .  
واخيرا ، فان الكفة التي ترجح هي كفة الحجج التي تحدد بنا  
الى متابعة ابحاثنا في الاتجاه نفسه . والنص التوراتي الذي  
بين ايدينا يحتوي على معلومات تاريخية مفيدة ، بل لا تقدر  
بشمن . ولكن هذه المعطيات التاريخية حرفت بفعل مؤثرات  
مفرضة قوية ، وجُمِلت شعريا . ولقد اتاحت لنا ابحاثنا  
الحالية ان نخمن طبيعة واحد من هذه الميول المحرّفة ، وهذا  
الاكتشاف يدلنا على الطريق الواجب اتباعه ، ويحثنا في الوقت  
نفسه على تحري مؤثرات محرّفة مماثلة اخرى . واذا اكتشفنا  
الوسيلة لتعرف التحريفات الناجمة عن هذه الميول ، فسننوصل  
الى تسليط الضوء على عناصر اخرى من الحقيقة .  
لننظر اولا في ما تطلعنا عليه دراسة نقدية للتسوراة بصدد  
الطريقة التي تمت بها كتابة الاسفار الستة (اسفار موسى الخمسة



وسفر يشوع التي لا يعنينا غيرها هنا) (٤١) . ان ي ، اليهودي ، هو الذي يُعدّ أقدم المصادر ، وهو الذي تعرف فيه عدد من الباحثين المحدثين الكاهن إبيثار ، المعاصر للملك داود (٤٢) .

وبعيد ذلك بقليل ، وفي زمن ما أمكن تحديده ، يأتي الإيلوهي المزعوم الذي ينتمي الى شمالي المملكة (٤٣) . وبعد دمار هذه المملكة جمع كاهن يهودي أجزاء من «ي» و«إ» ، مضيفا اليها بعض الاضافات . وتلفيقه هذا هو ما يشار اليه بالحرفين «يإ» . وفي القرن السابع ، انضاف الى الكتاب السفر الخامس الذي قيل انه قد عثر عليه بمجمله في «الهيكل» . والى الحقبة التي تلت دمار الهيكل (٥٨٦) ، اثناء المنفى وبعد العودة ، تعزى الصيغة الجديدة المسماة «شريعة الكهنة» . وفي القرن الخامس اخذ الاثر شكله النهائي ، ولم يطرأ عليه منذ ذلك اليوم تعديل يذكر (٤٤) .

---

٤١ - الموسوعة البريطانية ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٩١٠ ، المادة :

التوراة .

٤٢ - انظر أوريخ : «الصحراء وارض الجاد» ، ١٩٣٢ .

٤٣ - في عام ١٧٥٣ ميز آشتروك ، لاول مرة ، اليهودي والإيلوهي

وأحدهما من الآخر .

٤٤ - من الثابت تاريخيا ان النمط اليهودي قد تحدد نهائيا بعد اصلاح

عزرا ونحميا في القرن الخامس ق. م . ، اي بعد المنفى ، وتحت سيطرة الفرس المتسامحة . وطبقا لتقديرانا ، كانت سنة ٩٠٠ سنة قد تصرمت آتلا منذ ظهور

موسى . وفي هذا الاصلاح حملت على محمل الجد الاوامر الهادفة الى تكريس

مجلد الشعب ، وكان تحظير الريبجات المختلطة بمثابة ضمانة للانفصال من

الشعوب الاخرى . واخذت يومثلا «اسفار موسى الخمسة» ، وهي كتاب الشريعة

الحقيقي ، شكلها النهائي ، وتم انجاز التنقيح الذي ترك لنا «شريعة الكهنة» .

ولكن يبدو بحكم المؤكد ان الاصلاح لم يأت بأي ميل جديد ، وانما اكتفى بسرد

المعطيات المكتسة وتعزيزها .

وأغلب الظن ان قصة الملك داود وعهده من كتابة احد معاصريه . وهي قصة تاريخية حقيقية ، متقدمة بخمسمئة عام على هيرودوتس ، «أبي التاريخ» . واذا سلمنا على حد تقديري بأن التأثير المصري كان له دوره ، كنا اقرب الى فهم هذا الاثر (٤٥) . بل ثمة من المح الى ان يهود العصور الابدع نأيا ، اي كتبة موسى ، ساهموا في اختراع الابدعية الاولى (٤٦) . وغني عن البيان اننا لا نعرف البتة مدى استناد قصص الازمنة القديمة الى روايات مكتوبة او الى ماثورات شفوية ، كما اننا نجعل مقدار الفاصل الزمني بين الحدث وبين روايته المكتوبة . بيد ان النص ، كما وصل الينا ، فصيح البيان عما طرأ عليه من تبدلات وامساخت ، ونحن نلقى فيه آثار معالجتين متعارضتين مطلق التعارض . فمن جهة اولى مسخ المنحون النص وحذفوا منه وزادوا عليه ، بل عكسوا معناه ، تبعا لخفي مآربهم ؛ ومن الجهة الثانية حفظه الورع المتحرز وسعى الى ابقاء كل شيء فيه على الحالة التي وجده عليها ، بصرف النظر عن توافق التفاصيل او تضاربها . وهكذا نلقى في كل موضع منه ثغرات ظاهرة للعين ، وتكرارا مزعجا ، وتناقضات صارخة ، وبقايا آثار من أحداث ووقائع ما أريد لها ان يطلع عليها احد . وتشويه النص شبيه ، من وجهة نظر معينة ، بجريمة القتل . فالصعوبة لا تكمن في ارتكاب الجريمة ، بل في اخفاء آثارها . وبودنا لو نعبد الى كلمة **Entstellung** معناها القديم المزدوج (٤٧) . وبالفعل ، ان هذه

٤٥ - راجع يهودا ، المصدر الانف الذكر .

٤٦ - ان كانت الصور محظورة عليهم ، فلقد كان لهم في ذلك حائل قوي على هجر الكتابة الهيروغليفية وعلى تعديل الحروف لتتلاءم مع تسمير لغة جديدة .

٤٧ - ان كلمة **Entstellung** الالمانية تعني في آن واحد التشويه

والانتقال .

«الترجم»

الكلمة ما كانت تعني «تعديل مظهر شيء ما» فحسب ، بل ايضا «النقل الى مكان آخر ، الانتقال» . ولهذا ، نحن واقفون من اننا سنعثر من جديد ، في العديد من تحريفات النص ، على ما حذف ونفي وان اخفي وعدل وفصل عن سياقه ، وان واجهتنا ايضا احيانا صعوبة في تعرفه .

ان الميول المحرفة التي نسعى الى ازاحة الستار عنها قد اثرت ، ولا بد ، على المآثور قبل روايته كتابة . ولقد اتيح لنا ان نكتشف احد هذه الميول ، ولعله اقواها جميعا . قلنا ان الضرورة دعت ، حين ارسيت أسس عبادة الإله الجديد يهوه في قادش ، الى ابتكار شيء ما لتوقيره وتبجيله . والاصح ان نقول ان الضرورة دعت الى توليته ، الى ايجاد مكان له ، الى محو آثار الاديان القديمة . ويبدو ان النجاح كان كاملا فيما يخص دين القبائل المستقرة هناك ، اذ لم يعد احد قط الى المباحكة في الموضوع . ولكن الامور لم تسر بمثل هذا النجاح مع اليهود المائدين : فقد كانوا مصممين على الا يجردهم احد لا من «خروجهم» من مصر ولا من شخص موسى وعادة الختان . صحيح انهم كانوا قد اقاموا في مصر ، ولكنهم آبوا منها ، ويات من الضروري منذ تلك الساعة ان ينفي كل اثر لتأثير مصري . ورتب الامر بحيث ينقل موسى الى مديان وقادش ويصهر في شخص واحد مع الكاهن المؤسس لدين يهوه . ولم يكن هناك مفر من الابقاء على الختان ، وهو ابلغ دليل على التبعية لمصر ، ولكن بذلت الجهود والمساعي لفصل هذه العادة عن مصر ولو على حساب المكابرة في البدهيات . وفي سفر «الخروج» مقطع ملفز ورد فيه ان يهوه سخط من رؤيته موسى يتخلى عن الختان ، وان زوجة هذا الاخير المديانية انفلتت حيازوجها باجرائها العملية

فورا (٤٨) ! وتهدف هذه القصة كما هو ظاهر للعيان الى دحض واقعة دالة كاشفة . وسوف نرى عما قليل ان ثمة اختلافا آخر كان يرمي ايضا الى الطعن في صحة دليل مزعج .

وهناك ميل آخر ، لا يمكننا على ما اعتقد وصفه بالجدة لانه ميل مستمر ، يسعى الى ان ينفي ان يهوه كان لليهسود إليها اجنبيا . وهذا ما ترمي اليه سير الآباء الاوائل ، ابراهيم واسحق ويعقوب . فيهوه يؤكد انه كان إله هؤلاء الآباء وان أقر هو نفسه بانه كان يعبد عصرئد تحت اسم آخر (٤٩) .

انه لا يبئنا بما كانه هذا الاسم . وهنا بالتحديد سنحت فرصة طيبة لشن هجوم حاسم على الاصل المصري للختان . فقد طالب يهوه ابراهيم بالختان سائلا اياه ان يجعله عادة متبعة كعلامة

---

٤٨ - هذه هي المرة الثانية التي يشير فيها ترويد الى هذا المقطع من سفر «الخروج» . وبالرجوع الى النسخة العربية المتداولة من التوراة (الطبعة الجامعية ، كامبردج - بريطانيا ١٩٥٢ ، باشراف «جسميات الكتاب المقدس المتحدة» ، يتبين لنا ان الرب توعد موسى بالقتل لانه لم يختن ابنه من زوجته صفورة، انة كاهن مديان . ونص المقطع هو كما يلي : «وحدث في الطريق الى المنزل ان الرب الغاه وطلب ان يقتله . فأخذت سفورة صوانة وقطعت فملة ابنتها ومست رجليه . فقالت انك عريس دم لي . فانفك عنه . حينئذ قالت عريس دم من اجل الختان» (سفر الخروج ، الاصحاح الرابع ، الايات ٢٤ . ٢٥ ، ٢٦) .

«المترجم»

٤٩ - ان القيد المعروضة على استخدام هذا الاسم لا تصبح بذلك اكثر مابلية للفهم ، بل على العكس موضع الريد من الشبهة .

على العهد بينه وبين نسل ابراهيم (٥٠) . ولكن هذا الاختلاق كان أخرق الى أبعد الحدود . فنحن حين نريد ان نميز انسانا من الناس عن غيره ، وان نخصه بالإيثار، نختار لذلك شيئا شخصيا، شيئا لا يملكه ملايين الآخرين . والحال انه لو وجد يومئذ يهودي في مصر لكان عليه ان يعد المصريين قاطبة اخوة متحدين بيهوه بعلامته هو ذاتها . وما كان في وسع اليهود الذين أنشؤوا نص التوراة ان يجهلوا حقيقة ان المصريين كانوا يُختنون . والمقطع الذي يورده إ. ماير من «سفر يشوع» يفر بذلك بلا صعوبة ، ولكن كان لا بد بأي ثمن من نفيه .

اننا لا ننتظر من الاساطير الدينية ان تحسب حسابا دقيقا للتلاحم المنطقي ، والا فان الوجدان الشعبي سيستاء بحق من مسلك إله يعقد مع الآباء حلفا ملزما للطرفين ، ثم يمتنع طوال قرون عن الاهتمام لشركائه البشريين ، الى ان يعن له على حين غرة ان يتجلى من جديد للديتهم . وانه لما يبعث على دهشة أكبر ايضا ان نرى هذا الإله «يختار» لنفسه على حين بفتة شعبا من الشعوب ليجعل منه شعب «ه» ويعلن انه إلهه . هذه ، على ما اعتقد ، واقعة يتيمة في تاريخ الاديان الانسانية . فالله والشعب في الاديان الاخرى لا ينفصلان احدهما عن الآخر ، ويؤلفان كلا واحدا منذ الازل . وقد يحدث احيانا ، كما هو معروف ، ان يختار شعب من الشعوب إلهها جديدا ، ولكن لم يحدث قط ان اختار إله من الآلهة شعبا جديدا . ولعلنا سنتوصل الى ان نفهم على وجه افضل هذه الواقعة الفريدة في نوعها اذا

---

٥٠ - «وقال الله لابراهيم : واما انت فتحفظ مهدي . انت ولسلك من بعدك في اجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . ويختن منكم كل ذكر . فتختنون في لحم فرلتكم . فيكون علامة عهد بيني وبينكم» (سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر) . «الترجم»

درسنا علاقات موسى بالشعب اليهودي . فموسى تنازل  
فأولى اليهود اهتمامه ، وجعل منهم شعبه ، «شعبه المختار» (٥١).

٥١ - كان يهوه بلا مراد إليها للبراكين . وما كان لسكان مصر من داع الى  
عبادته . وبديهي انني لست اول من دهش للتشابه بين اسم يهوه وبين جلد  
ذلك الاسم الالهي الاخر : يوبيتر (Jupiter) ، يوفيس (Jovis) .  
واسم يوشانان (Jochanan) ، المشتق من يهوه العبراني . والذي له  
لقريا نفس دلالة فودفروا (Godefroy) (نعمة الله) ، والذي يبادل  
عند القرطاجيين هنييل ، اسم يوشانان هذا من امسى ، في شكل يوهان وجون  
وجان وجوان ، واحدا من الاسماء المأثورة لدى المسيحية الاورويبية . وحين  
يجمل منه الايطاليون «جيوفاني» (Giovanni) ويطلقون على احد ايام  
الاسبوع اسم «جيوفيدي» (Giovedi) ، فانهم انما يسلطون الضوء على  
تشابه معين قد يكون عديم الدلالة . ولكن قد يكون ايضا عظيم الاهمية . هكذا  
تنتعج امامنا آفاق رجة للغاية ، ولكن مشكوك فيها الى ابد الحدود في آن  
واحد . ويبدو ان بلدان الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط كانت ،  
خلال تلك العصور المظلمة التي كانت ممتنعة الى عهد قريب على الابحاث  
التاريخية ، مسرحا لانفجارات بركانية عنيفة متتالية تركت اعمق اثر نفسي  
سكان تلك المناطق . حتى ان ايفانس يسلّم بأن الدمار النهائي لقصر مینوس في  
كنوسوس قد نجم عن هزة ارضية . وكانت الالهة العظمى الام هي المبودة في  
كريت ، كما في سائر انحاء العالم الايجي على الارجح . ولا ريب في ان اكتشاف  
عجربا عن حماية بيبها من هجمات موة اقوى قد ساهم في خلعها عن العرش  
الذي كانت تتبواه لصالح إله ذكر ، وكان اله البراكين اصلح من يخلفها في  
هذه الحال . افليس زفس «داك الذي يهز الارض»؟ ومن شبه المؤكد ان آلهة  
ذكورا قد حلوا ، في تلك الاماكن . محل الالهة الانثى (ولعلمهم كانوا في الاصل  
ابناءها) . ومصير بالاس اينا يسترعي الانتباه حقا ، لان هذه الربة كانت بلا  
جدال شكلا محليا من الالهة الاسطورية الام . ولكن الانقلاب الديني انزلها الى  
مرتبة الالهة الابنة ، فحرمت من امها ، وقضى الى الابد على كل امل لها  
بالامومة بحكم البتولة التي فرضت عليها فرضا .

ولقد كان لنسبة دين يهوه الجديد الى الآباء الاوائل هدف آخر ايضا . فهؤلاء الآباء قد عاشوا في كنعان ، وكانت ذكراهم مرتبطة ببعض اماكن البلاد . ولعلمهم كانوا هم انفسهم ابطالا كنعانيين او آلهة محليين انتحلهم اليهود المهاجرون ليدمجوهم بتاريخهم القديم . وكان الانتساب اليهم يعني ، اذا صح التعبير ، اشهار ارتباطهم بالارض واتقاء الكراهية التي تلاحق عادة الفاتحين الاجانب . وبفضل مناورة بارعة ساد الادعاء القائل بأن كل ما فعله يهوه هو انه اعاد الى اليهود ما كان ذات يوم ملكا لاسلافهم .

ومن الملاحظ ان الاضافات المتأخرة على النص التوراتي تنطوي على رغبة في ضرب الصفح عن قادش . فقد توطد بصورة نهائية الافتراض القائل بأن المكان الذي تأسس فيه الدين الجديد كان الجبل المقدس : سينا - حوريب . والدافع الى ذلك ليس بظاهر . وربما كانت هناك رغبة في تحاشي ذكرى تائمير مديان ، ولكن جميع التحريفات اللاحقة ، ولاسيما تدليس «شركة الكهنة» ، استهدفت هدفا آخر . لم يكن قد تبقى ثمة مجال لتعديل رواية الاحداث في اتجاه معين ، على اعتبار ان ذلك قد تم منذ مديد الزمن ، ولكن بذلت جهود لربط بعض قوانين المؤسسات الحديثة بعصور نائية ، وإنزالها منزلة الشرائع باسنادها الى قوانين موسى ، تبريرا لطابعها المقدس والالزامي . ومهما تكن التزويرات التي طرأت على هذا النحو على النص ، فلنقر بأن هذا النهج قابل للتبرير ، الى حد ما ، من وجهة النظر السيكولوجية . فهو يعكس واقع ان ديانة يهوه قد تعرضت على امتداد قرون طويلة - يفصل زهاء ٨٠٠ عام ، بالفعل - بين «الخروج» من مصر وبين تثبيت عزرا ونحميا للنص التوراتي - لتطور ارتجاعي افضى الى توافق ، بله الى تطابق مع ديانة موسى البدئية .

وتلكم هي بالضبط الواقعة الاساسية في تاريخ اليهود الديني ، وذلكم هو مضمونه الحاسم .

من بين جميع أحداث ما قبل تاريخ اليهود التي اخذ الشعراء والكهنة والمؤرخون على عاتقهم فيما بعد تدوينها كتابة ، ثمة حدث واحد كان حذفه منحندا بدوافع هي من اكثر الدوافع طبيعية وانسانية . اعني به اغتيال الزعيم الكبير ، المحرر موسى ، وهو الاغتيال الذي اتيح لسيلن ان يتكهن به بفضل اشارات الانبياء وتلميحاتهم اليه . وليس في الامكان وصف نوكيدات سيلن بانها خيالية ، لانها على قدر كبير بما فيه الكفاية من مشاكلة الواقع . فموسى ، المتلمذ على مدرسة إخناتون ، استخدم نفس الطرائق التي كان يستخدمها هذا العاهل . فقد أمر الشعب بأن يعتنق دينه ، وفرضه عليه فرضا (٥٢) . وربما كان مذهب موسى يفوق ايضا مذهب معلمه تشددا . فهو لم يكن بحاجة الى الإبقاء على إله الشمس ، على اعتبار ان مدرسة آتون لم يكن لها من معنى في نظر شعب اجنبي . وقد واجه موسى نفس مصير اخناتون ، المصير المقدر على المستبددين المجددين قاطبة . فقد كان يهود موسى ، متلهم مثل مصريي السلالة الثامنة عشرة ، غير مهيبين لاعتناق ديانة رفيعة في روحانيتها ، وللعثور فيها على تلبية لحاجاتهم . وفي كلتا الحالتين حدث الشيء نفسه : نمرد المسترقون المظلومون ، المحمّلون فوق طاقتهم ، ورموا عنهم بعبء الدين الذي فرض عليهم قسرا . ولكن في حين انتظر المصريون الودعاء ان يخلصهم القدر من شخص فرعون المقدس ، اخذ الساميون العتاة قدرهم بين ايديهم وتخلصوا من

---

٥٢ - لم تكن مكتنا ، بالاصل ، السيرة على الناس في ذلك العصر بغير هذه الطريقة .



## الطاغية (٥٣) .

ان النص التوراتي ، بالصيغة التي وصل بها الينا ، يهيننا ،  
والحق يقال ، لنهاية موسى هذه . فرواية «الارتحال عبر البرية»  
تتضمن بلا شك القصة الكاملة لسيطرة موسى ، وتصف سلسلة  
من افعال التمرد الخطيرة ضد سطوة هذا الاخير . وقد استتبعت  
افعال التمرد هذه ، بناء على امر يهوه ، قمعا داميا . وفسى  
وسمنا ان نتصور بسهولة ان واحدة من حركات التمرد هذه  
انتهت على غير الوجه الذي يقول به النص . فنحن نقرا فيه على  
سبيل المثال قصة ردة الشعب ، ولكن النص لا يعلق عليها اكثر  
من قيمة حادث عرضي . انها قصة العجل الذهبي التي تنسب ،  
بحيلة حاذقة ، تحطيم لوحى الشريعة - بما له من معنى رمزي -  
الى موسى نفسه («وكسرهما») وتعزو هذا التحطيم الى غضبه  
العنيف (٥٤) .

---

٥٣ - انه لما يسترعى الانتباه ان تاريخ مصر الذي يمتد على الالف  
السنين لا ينطوي الا على عدد ضئيل للغاية من العال خلع الفرانعة او اغتيالهم .  
وهذا بمكس ما يرويه تاريخ مملكة آشور . وربما كان مرد ذلك ان المؤرخين  
المصريين كانوا ملزمين بالامثال للمقاصد الرسمية .

٥٤ - سفر الخروج ، الاصحاح الثاني والثلاثون : فولا راي الشعب ان  
موسى ابلا في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا له اصنع  
لنا آلهة تسير امامنا ... فقال لهم هرون انزعوا اقراط الذهب التي في اذان  
نساكنم وبنيكم وبنالكم واتوني بها . فنزع كل الشعب اقراط الذهب التي في  
اذانهم واتوا بها الى هرون . فاخذ ذلك من ايديهم وصوره بالازميل وصنعه  
عجلا مسبوكا . فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي اصعدتك من ارض مصر ..  
يقال الرب لموسى اذهب انزل لانه قد فسد شعبك الذي اصعدته من ارض  
مصر... فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده ... وكان =

وجاء وقت ندم فيه الشعب على قتل موسى وسعى السى نسيان هذه المأثمة . ولقد تم ذلك بالتأكيد في زمن اجتماع قادش . وبالفعل ، ان تقريب المسافة الزمنية بين «الخروج» وبين تأسيس الديانة في الواحة ، واستبدال المؤسس الآخر لهذه الديانة بموسى ، ما كان مجرد ترضية لاتباع موسى ، بل كانا في الوقت نفسه علامة النجاح في نفي واقعة التصفية العنيفة للنبي . وفي الواقع ، ان الاحتمال ضعيف في ان يكون موسى قد شارك في احداث قادش ، حتى على فرض ان حياته لم تقصف قبل الاوان .

وسنحاول هنا ان نعيد بناء تسلسل الاحداث . لقد حددنا زمان «الخروج» من مصر بعد انقراض السلالة الثامنة عشرة (١٣٥٠) . ومن الممكن ان يكون هذا «الخروج» قد تم في تلك الفترة او بعديها بقليل لان مدوني الاخبار المصريين جعلوا زمن سني الفوضى هذه في عهد حورمحب . وقد وضع هذا العاهل حدا للفوضى وحكم حتى عام ١٣١٥ . وتقدم لنا بعد ذلك مسلة منفتاح (١٢٢٥ - ١٢١٥) المعلومات التاريخية الوحيدة التي نملكها . فمنفتاح يتباهى بانتصاره على إيسراعال (اسرائيل) وبتدميره لمحاصيل (?) هذه الاخيرة . ونحن لسنا متأكدين مع الاسف من القيمة التي يخلق ان نعزوها الى هذا النقش : وثمة من يرى انه يبرهن على وجود قبائل يهودية في كنعان منذ ذلك

---

== عندما اقترب الى المحلة انه ابصر المجل . . . فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في اسفل الجبل ، والجدير بالذكر ان هذه الردة اعقبتها قمع دموى نجم عنه سقوط «نحو ثلاثة آلاف رجل» على حد نصير الاصحاح الثاني والثلاثين .

«الترجم»

العصر (٥٥) . ويستنتج !. ماير بحق من هذا النقش دليلا على أن منفتاح لم يكن ، كما كان يسود الاعتقاد في الماضي ، فرعون «الخروج» . ولا بد ان يكون هذا «الخروج» قد حدث في عصر سابق . ويخيل الي ، على كل حال ، انه لا جدوى من التحري عن الفرعون الذي كان على العرش زمن «الخروج» ، على اعتبار ان «الخروج» قد تم في حقبة من خلو العرش . بيد ان مسألة منفتاح لا تزيج لنا الستار البتة ، هي الاخرى ، عن التاريخ المحتمل للاندماج وعن التاريخ المحتمل لاعتناق الدين الجديد في قادش . وكل ما يسعنا ان نؤكد به بيقين هو ان تلك الاحداث قد جرت بين ١٣٥٠ و ١٢١٥ . وفي تقديرنا ، ان «الخروج» قد تم ، ولا بد ، في ذلك القرن ، وفي زمن قريب للغاية من عام ١٣٥٠ ، وان احداث قادش قد جرت في اغلب الظن حوالي عام ١٢١٥ . وفي رأينا ، ان الجزء الاعظم من الزمن المتصرم بين هذين الحدين ينبغي ان يعد مجرد مرحلة انتعالية . فبعد مقتل موسى ، تصرم أمد من الزمن مديد بما فيه الكفاية لكي تهدأ العواطف المتأججة لدى اليهود العائدين من مصر ، ولكي يصبح نفوذ انصار موسى ، اللاويين ، قويا الى الحد الذي تفترضه ضمنا تسوية قادش . ولقد كان كافيا لذلك جيلان ، اي ستون عاما ، وهذا الردح من الزمن يبدو معقولا الى حد ما . ولكن التوقيت المستنتج من مسألة منفتاح يبدو بالمقابل سابقا لاوانه ، وبما ان احد الحسابين ينبع من الاخر في فرضيتنا ، فاننا سنسلم بطيبة خاطر بأن هذه المناقشة تميظ اللثام عن جانب واهن في اعادة بناثنا للوقائع . ومن سوء الحظ ان كل ما يتعلق باستقرار الشعب اليهودي في

كنعان يظل شديد الإبهام والغموض . الا انه يبقى من المباح لنا مع ذلك ان نفترض ان الاسم المنقوش على مسلة منفتح لا يخص القبائل التي نحاول هنا ان ندرس مصيرها والتي كوّن اجتماعها فيما بعد شعب اسرائيل . وبالأصل الم يطلق ايضا اسم «عابرو» (العبريين) العائد الى زمن العمارنة على هذا الشعب؟! على كل ، وايا يكن تاريخ اجتماع القبائل التي كونت امة باعتمادها ديانة مشتركة ، فان هذا الاجتماع كان من الممكن كل الامكان ان يؤلف حدثا عديم الاهمية بالنسبة الى تاريخ العالم . وكان من الممكن ان يحرف تيار الاحداث الديانة الجديدة ، وكان بهوه سيحتل مكانه في هذه الحال في مصاف الآلهة الاسطورية الزائلة، على نحو ما استشف فلوبير، وكانت الاسباط الاثنا عشر، لا الاسباط العشرة فقط التي طال تحري الانكلو - ساكسونيين عنها ، «ستضيع» . فلا مراء البتة في ان الإله بهوه ، السذي اهداه موسى المدياني شعبا جديدا ، لم يكن كائنا اعلى ، بل كان إليها محليا محدودا وشرسا ، عنيفا ودمويا . وكان قد وعد اتباعه بأن يهبهم ارضا ، «ارضا تفيض لبنا وعسلا» ، وحثهم على اخلاء هذه الارض من جميع سكانها ب «حد السيف» . ويبدو من المدهش حقا الا يكون النص التوراتي ، على كثرة ما ادخل عليه من تحوير ، قد اسقط منه هذا القدر الوفير من المقاطع القمينة بان تميظ اللثام عن طبيعة بهوه البدائية . بل ليس من المؤكد ان دياناته كانت ديانة توحيدية حقيقية او انها انكرت على الآلهة القرابية صفتها الإلهية . انما كان يكفي على ما يبدو ان يبرز سلطان هذا الإله القومي سلطان سائر الآلهة الاجنبية . ولئن سارت الاحداث فيما بعد في غير الوجهة التي كان يمكن توقعها من تلك البداية ، فاننا لا نستطيع ان نجد لذلك سوى سبب وحيد .

فقد كان موسى المصري وهب جزءا من شعبه تصورا مفايسرا واكثر روحانية عن الالهية ؛ وهبه فكرة إله اوحده يشمل الكون بأسره ، كله حب ، كلي القدرة ، يابى كل سحر وشعوذة ، ويرى في الحقيقة والعدالة اسمى اهداف الانسانية . وبالفعل ، ومهما تكن ناقصة الوثائق المتعلقة بالاخلاق في ديانة آتون ، فانه لما يسترعى الانتباه ان نلاحظ ان اخناتون يشار اليه على الدوام في نقوشه على انه «الحي في معاط» (الحقيقة ، العدالة) (٥٦) .

وبمرور الزمن لم يعد ذا موضوع ان يكون الشعب قد تخلى عن تعاليم موسى ، في أجل بالغ القصر على الأرجح ، وان يكون قد وضع حدا لحياته . ولكن الماثور بقي ، وتمكن سلطانه بتوعدة ، وعلى مر القرون ، من تحقيق ما لم يتمكن موسى نفسه مسن تحقيقه . فاسيغت على الإله يهوه ، بدءا من قادش ، مكسارم ومآثر لا يستحقها ، وهزي اليه انقاذ اليهود الذي تم على يدي موسى ، ولكنه دفع غالبا ثمن هذا التمدي والافتصاب . فقد اصبح ظل الرب الذي احتل مكانه اقوى منه ؛ وقبض للاله الموسوي المنسي ، في ختام هذا التطور التاريخي ، ان يكسف شمسه بصورة كاملة . وفكرة هذا الإله هي وحدها - لا يمكن لاحد ان يشك في ذلك - التي اتاحت لشعب اسرائيل ان يتحمل ضربات القدر كافة وان يستمر حتى ايامنا هذه (٥٧) .

---

٥٦ - اناشيده لا يمجد كونية الله الاوحد فحسب ، بل ايضا عطفه الحنون على المخلوقات جميعا ، وهي تدعو البشر الى التمتع بالطبيعة وجمالها. راجع بريستد : «عجر الوجدان» .

٥٧ - بالرغم من المنطلق المادي بوجه عام للمذهب التحليل النفسي ، فان فرويد يقع هنا. في تقديرنا ، في نزعة مثالية سافرة ، لانه يفسر - بخلاف =

ماذا كان دور اللاويين في الانتصار الختامي للاله الموسوي؟ هذا ما بات مستعصيا على التحديد . ففي زمن تسوية قادش تحزب اللاويون مطلق التحزب لموسى لان ذكرى القائد الذي كانوا رفاقه وابناء بلده كانت ما تزال حية في نفوسهم . وفي العصور التالية انصهر اللاويون في الشعب او في السلك الكهنوتي ، وولد ذلك باتت مهمة الكهنة تطوير الطقوس ، والسهر عليها ، وكذلك الحفاظ على الكتب المقدسة وتنقيحها في الاتجاه المناسب . ولكن هذه الاضاحي جميعا وهذه الطقوس كافة ، هل كانت شيئا آخر في حقيقتها غير اشكال من السحر والشعوذة شبيهة بتلك التي كان المذهب الموسوي القديم قد اذاتها بلا تحفظ ؟ يومئذ ظهرت في وسط الشعب سلسلة متصلة من رجال لا يتحدرون بالضرورة من صلب اتباع موسى ، ولكن قلوبهم عامرة بالمأثور العظيم والقوي الذي نما وكبر رويدا رويدا في الخفاء . ولسوف ينصرف هؤلاء الرجال ، الانبياء ، الى التبشير بلا كلل بالمذهب الموسوي القديم ، مؤكدين ان الله كان يحتقر الاضاحي والطقوس ولا يتطلب سوى الايمان وسوى حياة مكرسة برمتها للعدالة والحقيقة (معاط) . وقد كللت جهود الانبياء بالنجاح : فالمذاهب التي بفضلها احيوا العقيدة القديمة غدت الى الابد مذاهب الدين اليهودي . وانه لما يذكر للشعب اليهودي انه حافظ هلي مثل هذا المأثور وانجب رجالا قادرين على المجاهرة به ، وان كان خارجي المصدر ، جاء به رجل عظيم اجنبي .

---

= ماركس الشاب باللات - اليهود بدنيهم بدلا من ان يفسر الدين اليهودي بهم، وذلك عندما يرجع استنرارهم في التاريخ الى «فكرة» معينة عن إله معين .  
«الترجم»

وما كنت لأجازف بقول ما قلته لو ان العديد من الباحثين المختصين ، بمن فيهم اولئك الذين لا يقرون بالاصول المصري للنبي ، لم يعترفوا ، من وجهة نظري عينها ، بأهمية موسى بالنسبة الى تاريخ الدين اليهودي . واني لمغوض امري لحكمهم . من قبيل ذلك ، على سبيل المثال ، ما يقوله سيلن (٥٨) : « لهذا نعتقد ان ديانة موسى الحقيقية ، الايمان الذي نادى به ياله اخلاقي اوجد ، لم تجد من يتبناها في البدء غير حلقة ضيقة من الناس من ابناء الشعب . ولا يسعنا ان نتوقع وجودها من البداية في العبادة الرسمية ، في ديانة الكهنة وفي العقيدة الشعبية . نحن لا نتوقع الا ان نصادف هنا وهناك قبسا من النار الروحية التي اضرها موسى ، وهذا القبس يدلنا على ان افكار النبي لم تكن قد اختنقت نهائيا وعلى انها كانت مستمرة في التأثير ، في الخفاء ، على العقيدة والاخلاق الى ان قبض لها ، في زمن متأخر بقدر او بأخر ، بفعل بعض احداث او بغضائل اشخاص مفعمين بتلك الروح الدينية ، ان تتقد من جديد ، وان تفرض نفسها ، وان تأخذ بناصرها جماهير شعبية اوسع . من هذه الزاوية يجدر بنا فعلا ان ننظر الى التاريخ القديم للدين الموسوي . اما من سيحاول ان يصف هذا الدين كما تحسده الوثائق التاريخية في القرن الخامس ، في كنعان ، فانه سيقع في فاحش الخطأ المنهجي» . وراي فولز اكثر صراحة وجلاء ايضا (٥٩) ، فهو يرى ان «صنيع موسى العظيم اسيء فهمه في البداية ، وكان حظه من التطبيق واهنا . بيد انه تفلقل تدريجيا ،

٥٨ - سيلن ، المصدر الانف الذكر ، ص ٥٢ .

٥٩ - بول فولز (Volz) : «موسى» ، ١٩٠٧ ، ص ٦٤ .

على مر العصور ، في روح الشعب ، الى ان وجد اخيرا ، في شخص الانبياء العظام ، نفوسا تضارع روح موسى . وهؤلاء الانبياء هم الذين تابعوا العمل الذي شرع به المتوحد الكبير .

لقد بات في وسعي الان ان اختتم هذا البحث الذي كان غرضي الوحيد منه ان ادخل وجه موسى مصري في اطار التاريخ اليهودي . وحتى نصوغ نتائج عملنا في أوجز صيغة ، فنستقول اننا اضفنا الى ثنائيات التاريخ اليهودي المعروفة : شعبين ينصهران ليؤلغا أمة ، مملكتين تتفرعان عن انقسام هذه الأمة ، إله يحمل اسمين في مصادر التوراة ، اضفنا الى هذه الثنائيات ثنائيتين أخريين : تأسيس ديانتين جديدتين ، تدحر ثابتيهما اولاهما في البداية ولكن الاولى لا تتأخر في انتزاع لواء النصر من جديد ، ثم مؤسسي ديانة اثنتين يسمى كل منهما موسى ، ولكن لا مفر لنا من التمييز بين شخصيتيهما . وجميع هذه الثنائيات تتفرع بالضرورة عن الثنائية الاولى : كون شطر من الشعب قد عانى من حدث مفرح لم يمان منه شطره الآخر . ولكن تبقى بعد ذلك وقائع كثيرة تستلزم نقاشا وتفسيرا وتثبيتا . ودراستنا التاريخية الخالصة لن تكون ذات فائدة مبررة الاغب ذلك . وبالفعل ، انه سيكون من المثير ان ندرس ، انطلاقا من الحالة الخاصة للتاريخ اليهودي، الجوهر الذي يقوم عليه ماثور من الماثورات ، والاساس الذي تستند اليه قوته الدائمة ، وان نلاحظ ان تأثير بعض عظام الرجال في التاريخ الكوني امر لا مرية فيه . ومثل هذه الدراسة ستتيح لنا ايضا ان نبين ان مسن لا يعترف الا بالدوافع ذات الصفة المادية الخالصة انما يتعدى على التنوع العظيم للحياة الانسانية ويفتث عليه ، وستمكننا من ان نكتشف المصدر الذي تستمد منه الافكار ، ولاسيما الافكار



الدينية ، قوتها التي تتيح لها ان تأسر الالباب الافراد والشعوب .  
ومثل هذه التكملة لعلمي سترتبط ، ولا بد ، بالابحاث التسي  
نشرتها ، منذ ربيع قرن من الزمن ، في الطوالم والتابو ، ولكن  
يخيل الي ان مشروعا كهذا يتخطى قواي في الوقت الحاضر .



## الفصل الثالث

موسى وشعبه والتوحيد



## توطئة

١ - كتبت في فيينا قبل آذار ١٩٣٨ .

بجراة من أمسى لا يخشى ان يفقد شيئا ذا قيمة او لا يخشى ان يفقد اي شيء البتة ، سأرجع هنا ، للمرة الثانية ، عن قرار كان له ما يسوغه ، وسأعطي بحثي عن موسى (ايمافو ، المجلد ٢٣ ، العددان ١ و٣) الخاتمة التي لم أكتبها بعد . قلت في ختام بحثي الاخير ان قواي لن تبيع لي في أغلب الظن ان أدون تلك الخاتمة (١) . وبديهي اني كنت أشير بذلك الى أفول الملكسات المبدعة بفعل التقدم في السن ، ولكن الفكر كان يذهب بي ايضا

---

١ - اني لا اشاطر رأي معاصري ، برنارد شو ، الذي يزعم ان البشر لن تكتب لهم القدرة على فعل شيء ذي قيمة الا اذا قبيض لهم ان يعمرؤا للاثمة عام . قاطالة امد الحياة لن تجدي قليلا ما لم تتبدل شروط الحياة كامل التبدل .

الى عقبات اخرى . فنحن نحيا في عصر غريب فعلا ، ونلاحظ بدهشة ان النقدم متواكب بالبربرية . ففي روسيا السوفياتية نبذل المحاولات لضمان شروط حياة افضل لشعب يناهز تعداده مئة مليون نسمة ، كان يرسف في اغلال الاضطهاد . لقد كان للسلطات القدر الكافي من الجراة لتفطمه عن مخدر الدين ، والقدر الكافي من الحكمة لتهبه مقداراً معقولاً من الحرية الجنسية . ولكنها اخضعته في الوقت نفسه لاعتسى القيود اذ سلبته كل حرية في التفكير الحر . وبنظير هذه الوحشية اشرب الايطاليون حب النظام وحس الواجب . وان المرء ليتنفس الصعداء حقاً حين يلاحظ ان التقهقر نحو بربرية تكاد تكون ما قبل تاريخية يمكن ان يتم ، بالنسبة الى الشعب الالماني ، بدون اي ارتباط بفكرة النقدم . ومهما يكن من امر ، فاننا نلاحظ اليوم ان الديموقراطيات المحافظة غدت حارسة التقدم والحضارة ، وأن الكنيسة الكاثوليكية - وهذا موضع الغرابة - تصدى للخطر بمقاومة قوية ، هي التي كانت حتى اليوم العدو اللدود لحرية الفكر ولتقدم المعرفة !.

اننا نعيش هنا في بلد كاثوليكي ، تحت حماية هذه الكنيسة، غير متاكدين من الزمن الذي ستظل فيه هذه الحماية موفورة لنا . وطبيعي انها ما دامت قائمة ، فسنتردد في الاقدام على اي عمل قد يجر علينا بغضاء الكنيسة . وليس هذا جيبنا ، وانما تبصر وحصافة . فالعدو الجديد (٢) ، الذي سنحترس من ان نخدم مصالحه ، اعظم خطراً من العدو القديم الذي تعلمنا كيف نعيش معه في سلام . وعلى كل حال ، ان الابحاث التحليلية النفسية نقابل من الكاثوليكيين باهتمام مستريب ، ونحن لن نؤكد ان هذه الاسترابة مخطئة . فحين تقودنا ابحاثنا الى الاستنتاج بان الدين

ما هو الا عصاب تشكو منه الانسانية ، وحين تبين لنا ان قوته الهائلة تجد تفسيرها على نفس النحو الذي نفسر به الوسواس العصابي لدى بعض مرضانا ، ففي وسعنا ان نطمئن الى اننا نستعدي على انفسنا غل سلطات هذا البلد وضحيتها . ولنحدد بانه ليس لدينا ما نضيفه الى ما سبق لنا ان قلناه بكل وضوح وجلاء ، منذ ربع قرن من الزمن ، بيد ان ما قلناه قد طسواه النسيان ، ولا بد ؛ وعليه فان التذكير به لن يكون ، في ارجح الظن ، بلا جدوى ، ولا سيما اذا مثلنا عليه بمثال نموذجي على الطريقة التي تتأسس بها الاديان . ولكن قد تحظر علينا في هذه الحال ممارسة التحليل النفسي . فأساليب القمع العنيفة هذه ليست غريبة البتة عن الكنيسة التي ترى بالاحرى في استخدام الآخرين لها مساسا بامتيازاتها . ومهما يكن من امر ، فان التحليل النفسي الذي رأيت ينتشر ويعم الامصار قاطبة على امتداد حياتي الطويلة (٢) ، لا يجد له من موطن وموئل افضل من ذلك الذي يجده في المدينة التي رايت فيها النور ، وفيها ترعرعت .

انني لا اتكهن فحسب ، بل اعلم علم اليقين ان ذلك الخطر الخارجي سيحول بيني وبين نشر القسم الاخير من هذا البحث عن موسى . ولقد حاولت ايضا ان اذلل هذه العقبة بقولي بيني وبين نفسي ان مخاوفي متأتية من انني ابالغ في تقدير اهميتي الشخصية ، وان السلطات ستقف في ارجح الظن موقف اللامبالاة من كتاباتي عن موسى وعن اصل الديانات التوحيدية . ولكن

---

٢ - ولد فرويد عام ١٨٥٦ ، وعلى هذا فقد كان عمره يوم كتب هذه التوطئة ٨٢ عاما ، ولكن الاجل لم يمتد به اكثر من ذلك بكثير ، فقد وافته المنية في ايلول ١٩٣٩ .  
« المترجم »

الكيد هذا حقا ؟ يخيل الي بالاحرى ان نية الابداء والحاجة الى  
اثارة الضجة ستسدان مسد النزر اليسير من الثقة التي بمحضني  
اياها المعاصرون لي . وعليه فاني ساكتب هذا البحث من دون  
ان اتوي نشره ، ولاسيما انني سجلت ملاحظات منذ نحو عامين ،  
ولم يبق علي الا ان اتقحها لاضيفها الى المقالين السابقين . وسوف  
تنتظر دراستي ، بعد ذلك ، في الخفاء الاوان المناسب للظهور ،  
هذا اذا لم يصبح في المستطاع ذات يوم ان يقال لمن يكون قد وصل  
الى نفس النتائج التي وصلت اليها : « في آونة اشد حلقة ، عاش  
انسان فكر مثلك » .



## توطئة ثانية

٢ - حزيران ١٩٣٨ ، في لندن .

ثناء تحريري لهذه الدراسة عن موسى انقلت علي بوطانها مصاعب جلى - وساوس داخلية وعقبات خارجية على حد سواء . ولهذا السبب تجدون القسم الثالث والاخير من عملي مسبوفا بتوطئتين تناقضواحدتهما الاخرى بل تنقضها . والحق ان شروط حياة المؤلف قد تبدلت راسا على عقب في الفترة الوجيزة المنصرمة بين المقدمتين . فيوم كتبت توطئتي الاولى كنت احيا تحت حماية الكنيسة وكنفها واتوجس خيفة من ان افقد هذا الملاذ لو اقدمت على نشر كتابي . وكنت اخشى ايضا ان اتسبب في صدور امر يحظر العمل على جميع ممارسي التحليل النفسي وتلامذته في فيينا . ثم وقع فجأة الغزو الالمانى، وقدمت الكاثوليكية الدلال على انها «قصة لدنة» حسب تعبير التوراة . وليقيني من انني سالتى الاضطهاد ، لا بسبب آرائى فحسب ، بل

ايضا بسبب «جنسي» (٤) ، غادرت مع العديد من اصدقائي من المدينة التي كنت اعدّها منذ نعومة اظفاري ، وطوال ٧٨ عاما ، وطني .

ولقد وجدت في انكلترا الجميلة والحرّة والكريمة ودود الترحاب . وفيها اعيش في الوقت الحاضر ضيفا عزيزا كريما، اثنشق طلق-الهواء بعيدا عن المضطهدين ، متمتعا بحرية القراءة والكتابة ، بل اكاد اقول : بحرية التفكير ، على النحو الذي افهمه او على النحو المفترض فيّ . وهانذا املك الجراة اخيرا لنشر القسم الاخير من بحثي .

لم تعد امامي عقبات ، او على الاقل ، لم تعد امامي عقبات مخيفة . وقد تلقيت ، منذ ان اقيمت هنا قبل بضعة اسابيع ، عددا لا يحصى من الرسائل من اصدقاء اعرّبوا فيها عن سرورهم بوجودي في لندن ، ومن مجهولين ، وحتى من اشخاص غرباء كل الغربة عن اعمالهم ارادوا ان يعبروا لي بكل بساطة عن اغتباطهم بما لقيته هنا من امان وحرية . وقد تلقيت ايضا ، وبكثرة قد تثير الدهشة في نظر اجنبي مثلي ، نوعا آخر من الرسائل ، يعرب فيها مرسلوها عن اهتمامهم بخلاص روحي ، ويدلونني فيها الى طرق الرب ، قاصدين تنويري بصدد مستقبل اسرائيل . ان هؤلاء الناس الطيبين الذين كتبوا الي تلك الرسائل لا يعلمون وما كان في وسعهم ان يعلموا الشيء الكثير عني ، بيد انني اتوقع ان اخسر مودة عدد كبير من هؤلاء المرسلين - ومودة غيرهم ايضا - يوم يطلع من اتفيا وإياهم ظل هذا الوطن الجديد على ترجمة مؤلفي هذا عن موسى .

اما فيما يخص مصاعبي الداخلية ، فلا التقلبات السياسية ولا تغيير مكان الاقامة امكن لها ان تبدل شيئا منها . فانا ما زلت

اشك اليوم ، مثلي بالامس ، في عملي بالدات ، ولا أشعر ، كما ينبغي ان يسعر كل مؤلف ، بالتواصل الحميم مع كتابي . وليس ذلك لانني لست مقتنعا بصحة استنتاجاتي ، فانا لم اغير رأيي منذ ربع قرن من الزمن ، منذ الطوطم والتابو (١٩١٢) . بل على العكس من ذلك ايضا ، فاعتقادي ما زاد الا ترسخا . فانا ما ازال على يقين بان الظاهرات الدينية تماثل الاعراض العصابية الفردية ، تلك الاعراض التي بانمت معروفة لدينا حق المعرفة بوصفها اصدقاء لاحداث هامة ، طواها النسيان منذ امد بعيد ، وقعت في التاريخ البدائي للاسرة البشرية . وانما من هذا الاصل على وجه التحديد تستمد الظاهرات الدينية طابعها التسلطي، ولئن كان لها تأثير على البشر فهي تدن به للمقدار الذي تنطوي عليه من الحقيقة التاريخية . وشكوكي لا تتناول الا المثال السلي اختاره ، مثال الديانة التوحيدية اليهودية ، وانني لاتساءل عما اذا كنت قد افلحت حقا في الدفاع عن أطروحتي .

ان هذا المؤلف عن موسى يبدو ، في تقدير حسي النقدي ، اشبه براقصة تجس موطيء قدميها . فلو لم اتمكن من الاستناد الى التأويلات التحليلية لاسطورة الهجر عند المياه ، ولو لم تتح لي امكانية الانتقال بعدئذ الى افتراضات سيلن عن نهاية موسى، لما كنت كئبت هذا الكتاب . ومهما يكن من حال ، فقد قضى الامر الان .

وسأبدأ بنلخيص دراستي الثانية عن موسى ، اعني تلك التي لها طابع تاريخي صرف . ولن أنبري هنا لنقدها لان جميع النتائج التي تم الوصول اليها ما هي الا اسندالات سيكولوجية تتفرع عنها وترجع اليها باستمرار .

## القسم الاول

- ١ -

### فرضية تاريخية

ان خلفية الاحداث التي تستائر باهتمامنا هنا هي اذن التالية : لقد جعلت فتوحات السلالة الثامنة عشرة من مصر قوة عالمية . وتنعكس نزعة الدولة الجديدة الى التوسع في تطوور المفاهيم الدينية ، ان لم يكن لدى الشعب قاطبة ، فعلى الاقل لدى الدوائر العليا الفعالة فكريا . فتحت تأثير كهنة الإله الشمسي في أون (هليوبوليس) ، وهو التأثير الذي ربما عززته ايضا ايجاعات آسيوية المصدر ، ظهرت فكرة الإله آتون - الذي لم يعد إله شعب واحد وبلد واحد . وفي شخص أمنحوتب الرابع الفتي ، تسنم العرش فرعون يقدم مصلحة انتشار الفكرة الإلهية

على كل شيء آخر . وقد جعل من ديانة آتون الديانة الرسمية ، وبفضله أصبح الإله العام إليها **أوحد** ، وأمسى كل ما يروى عن الآلهة الأخرى كدبا وخداعا . وقد عارض بشراسة جميع اغراءات الفكر السحري ، ونبد الوهم العزيز للغاية على قلوب المصريين ، وهم الحياة بعد الموت . وأعلن مستبقا بذلك على نحو مدهش الآراء العلمية اللاحقة ، ان الطاقة الشمسية هي مصدر كل حياة على الأرض ، وأن عبادتها واجبة بوصفها رمزا للقدرة الإلهية . وكان يشعر بالاعتزاز لتمنعه بالخلق وبحياته الخاصة في معاط (الحقيقة والعدالة) .

هذا هو المثال الاول ، والاصفى بلا ريب ، للديانة الموحدة في تاريخ البشرية . وليس لنا ان نقدر بشن أي امكانية قد تتاح لنا لتعميق معرفتنا بالشروط التاريخية والسيكولوجية لظهور هذا المثال ! ولكن المقادير شاءت الا تتوفر لدينا معلومات كثيرة عن ديانة آتون . فكل ما بناه إخناتون قد تقوض منذ أن خلفه على العرش أخلاف ضعفاء . وقد سنحت يومئذ فرصة للكهنة، الذين كان اضطهدهم ، للظلم في ذكراه وتجريحها ثأرا وانتقاما . والغيت ديانة آتون ، ونهب قصر الفرعون وهدم . وفي حوالي عام ١٣٥٠ ق. م. انقرضت السلالة الثامنة عشرة . وبعد فترة من الفوضى وطد القائد حورمحب ، الذي حكم حتى عام ١٣١٥ ، النظام من جديد . اما اصلاح إخناتون فقد بدا وكأنه محض حادث عارض مقيض له ان تطويه يد النسيان .

تلكم هي الوقائع الثابتة تاريخيا ، اما ما يلي فهو محض افتراضات . كان بين المصريين الى إخناتون رجل يدعى ، ظنا وتخمينا ، تحوتس ، مثله مثل كثيرين غيره (١) . وعلى كل ، فان اسمه الحقيقي ليس بلدي أهمية ، ولكن لا بد ان الجزء الأخير منه

---

١ - هذا ما كانه ايضا اسم النحات الذي اكتشف مشمله في تل العمارنة.

كان «موس» . وكان تحوتمس يشغل مركزا رفيعا ، وكان يدي حماسا بالغة لديانة آتون ، ولكنه كان ، بعكس الملك الميال الى التأمل ، رجلا ذا عزم وهمة وشغف . ولقد كان موت إخناتون وسقوط الديانة الجديدة ضربة قاضية بالنسبة الى مطامع هذا الرجل . فهو لم يعد في نظر المصريين غير كائن جدير بالازدراء ، كائن مارق . ولعل الفرصة سنحت له ، بوصفه حاكم مقاطعة تقع عند التخوم ، لكي يتصل بقبيلة سامية استقر بها المقام هناك منذ بضعة اجيال . فالتفت ، وهو على ما هو عليه من عزلة وخيبة امل ، الى اولئك الغرباء ، باحثا لديهم عن تعويض عما خسره . فجعل منهم شعبه ونهض الى تحقيق مثلثة الاعلى بواسطتهم . وبعد ان بارح مصر معهم ، تصحبه بطانته ، كرسهم بالختان ، وسن لهم شرائع ، ولقنهم ديانة آتون التي كفر بها المصريون . ولعل الشرائع التي سنها موسى هذا ليهوده كانت اشد قسوة وصرامة من شرائع سيده ومعلمه إخناتون ، ولعله امتنع ايضا عن الاعتماد على إله أون الشمسي الذي كان اخناتون قد استمر في توقيه .

ونحن نفترض ان «الخروج» نم في فترة خلو العرش ، بعد عام ١٣٥٠ . اما المراحل التالية ، حتى الاستقرار في كنعان ، فيحيط بها غموض شديد . بيد ان الابحاث التاريخية الحديثة قد سلطت الضوء على واقعتين اثنتين وانتشلتهما من الظلمة المتروكة او بالاحرى المخلوقة في الرواية التوراتية . الاولى ، ومكتشفها سيلن ، هي ان اليهود ، حتى بحسب أقوال التوراة ، ابوا انصياعا وامثالنا لمشرعهم ، وتمردوا ذات يوم ، وقتلوه ، والفوا ديانة آتون تماما كما كان فعل المصريون . والواقعة الثانية، ومكتشفها إ. ماير ، هي ان اليهود العائدين من مصر انصهروا فيما بعد مع قبائل اخرى نسيية تقطن البلاد الواقعة بين فلسطين وشبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية . وهناك ، فسي

منطقة خصيبة تسمى قادش، اعتنقوا تحت تأثير المديانيين العرب  
ديانة جديدة ، عبادة إله البراكين ، يهوه . وبعيد ذلك بقليل ،  
باتوا على أهبة الاستعداد لغزو ارض كنعان .

انه ليكاد يتعدى تحديد زمن هذه الاحداث المختلفة بدقة ، او  
تحديد زمنها نسبة الى بعضها بعضا او نسبة الى الهرب من  
مصر . وتقدم لنا بعد ذلك مسلة الفرعون منفتاح (الذي حكم  
حتى عام ١٢١٥) قدرا آخر من المعلومات التاريخية . فهذه المسلة  
تحدث عن حملة على سورية وفلسطين وتذكر اسرائيل بين  
المقهورين . واذا اعتبرنا التاريخ الذي تحدده المسلة المذكورة  
على انه «Terminus Ad Quem» (٢) ، ترتب على ذلك ان  
جميع الاحداث التي اعقبت الهرب من مصر قد حدثت على مدى  
حوالي قرن من الزمن ، بعد عام ١٣٥٠ وحتى عام ١٢١٥ . ولكن  
من المحتمل ان اسم اسرائيل لا يخص القبائل التي نهتم بها هنا،  
ومن المحتمل بالتالي ان يكون لدينا ، في الواقع ، فسحة اكبر  
من الزمن . ولا جدال في ان استقرار الشعب اليهودي في  
كنعان ، في زمن اكثر تأخرا ، لم يأخذ شكل فتح سريع ، بل  
شكل تغلغل بطيء على موجات متعاقبة . واذا ضربنا صفحا عن  
الافادة الواردة في مسلة منفتاح ، غدا من الاسهل علينا ان نسلم  
بان عصر موسى (٣) دام ما يقارب اجل حياة رجل واحد اي ٣٠  
عاما ، وأن جيلين على الاقل ، واكثر من جيلين في اغلب الظن،

---

٢ - باللاتينية في النص - ومن الممكن ترجمتها بالحد الابد . والمقصود  
به الحد الابد للتاريخ المحتمل لحدث تاريخه الاكيد مجهول . «الترجم»  
٣ - هذا سيكون بمثابة توكيد للاربعين عاما من الإقامة في الصحراء كما  
تذكر التوراة .

يفصلانه عن زمن اجتماع قادش (٤) ، ومن الممكن ان يكون الزمن المتصرم بين قادش وفتح كتعان قصيرا للغاية . ولقد رأينا آنفا ان الماثور اليهودي كانت له بواعت قوية لاختصار الزمن الفاصل بين «الخروج» وبين توطد الديانة الجديدة في قادش . اما نحن فسنميل الى الاخذ بالعكس .

ولكن هذا كله لا يعدو ان يكون من باب التاريخ ، ولا يتجاوز كونه محاولة لسد الثغرات في معارفنا التاريخية وتكرارا لما قلناه في مقالنا الثاني . اما فضولنا فينصب على مصر موسى وعلى مصر مذهب الذي لم يضع تمرد اليهود حدا له الا في الظاهر . فالأخبار اليهودية (٥) المكتوبة حوالي العام ١٠٠ ق. م . ، والمستندة قطعا الى أسانيد أقدم عهدا ، تنبئنا بان تسوية ما قد تم الوصول اليها بعد اجتماع القبائل وتأسيس ديانة في قادش ، وبأن طرفي هذه التسوية كانا ما يزالان منمیزين واحدهما عن الآخر بجلاء . فقد كان الهم الوحيد لأحد الطرفين ان ينفي عن الإله يهوه طابعه الجديد والأجنبي وأن يوسع حقوقه في انصياع الشعب له ، وكان الطرف الآخر يأبى التخلي عن ذكريات عزيزة ، ذكريات التحرير والهرب من مصر ووجه موسى العظيم ، وقد أفلح في ان يفسح مجالا للحدث وللرجل في هذا السرد الجديد لما قبل التاريخ اليهودي ، او أفلح على الأقل في الإبقاء على العلامة الخارجية للدين الموسوي : الختان . ولعله فرض بعض القيود على استخدام اسم الإله الجديد . وقد قلنا آنفا ان اللاويين ، ذرية انصار موسى ، هم الذين أخذوا بناصر وجهات النظر تلك .

---

٤ - ان حوالى ١٢٥٠ - ١٢٤٠ الى ١٢٢٠ - ١٢١٠ بالنسبة الى موسى ، و١٢٦٠ او ربما في زمن اكثر تأخرا بالنسبة الى قادش ، اما بالنسبة الى مسلة منفتاح فقبل ١٢١٥ .

«الترجم»

٥ - نسبة الى انصار يهوه .



وبالفعل ، كانت اجيال قليلة تفصل بينهم وبين معاصري النبي وصحابته الذين كان يشدهم الى ذكراه ميراث حي . اما القصص المجتملة على اروع نحو شعري والمنسوبة الى اليهودي ، والسى مزاحمه اللاحق الإيلوهي ، فقد كانت نوعا من انصاب ماتميسة يفترض فيها ان تحجب عن انظار الاجيال المقبلة القصص الحقيقية لتلك الوقائع الماضية ولطبيعة الدين الموسوي وليئة الرجل العظيم العنيفة ، وأن تضمن لتلك القصص الحقيقية عينها راحة ابدية ، اذا جاز التعبير . واذا صحت فرضياتنا ، انقشع كل غموض في هذه القصة . ومع ذلك ، فقد كان من الممكن ان تكون خاتمة فصل موسى في تاريخ الشعب اليهودي .

والغريب ان الامور لم تبر في هذا المنحى . فاقوى اصداء تلك الاحداث لم تظهر الى حيز الوجود الا في زمن متأخر جدا ، ولم تتمكن الا رويدا رويدا ، على مر القرون ، من التعبير عن نفسها . وليس هناك الا احتمال ضعيف في ان يكون يهوه قد تميز بصفاته تميزا واضحا عن الآلهة التي كانت تعبدها القبائل والشعوب المجاورة . كان يهوه مشتبكا في صراع مع هذه الآلهة ، مثلما كانت القبائل نفسها مشتبكة في صراع مع بعضها بعضا ، ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بان عابد يهوه ، في ذلك العصر ، كان واهن الميل الى انكار وجود آلهة كنعان وموآب وعماليك ، الخ ، مثلما كان واهن الميل الى انكار وجود الشعوب التي تؤمن بها .

هكذا عادت الفكرة التوحيدية ، التي ولدت مع إخناتون ، الى التواري من جديد . وقد اماطت اكتشافات جرت في جزيرة الفيلة ، القريبة من اول شلالات النيل ، اللثام عن الواقعة المدهشة التالية ، وهي ان مستعمرة يهودية عسكرية قد اقيمت هناك منذ قرون عديدة . وفضلا عن الإله الرئيسي ياهو ، كانت ضروب العبادة تؤدي ، في الهيكل المشيد في المستعمرة ، الى

إلهتين اثنتين كانت احدهما تدعى أنات - ياهو . ولا مرأه في ان هؤلاء اليهود كانوا منفصلين عن الوطن الام ، فما أمكن لهم ان يعرفوا التطور الديني نفسه . والامبراطورية الفارسية (القرن الخامس قبل الميلاد) هي التي نقلت اليهم تعاليم اورشليم الدينية الجديدة (٦) . ومن حقنا ان نقول ، برجعنا الى عصور اكثر نايا ، ان الإله يهوه لم يكن يشبه من قريب او بعيد إله موسى . فقد كان آتون مسالما ، شأنه شأن ممثله الارضي ، او بالاحرى بعيمة (٧) ، الفرعون إخناتون الذي راح يشهد ، مكتوف اليدين ، تقطيع اوصال الامبراطورية الشاسعة التي خلقها اجداده . ومن المؤكد ان يهوه كان اصلح وانسب لشعب شره الى الفتوحات . وطبيعي ان كل ما كان يستأهل الاعجاب حقا في إله موسى كان يستعصي ، ولا بد ، على فهم الجماهير البدائية .

لقد سبق لي ان قلت - وراي يتفق في هذه النقطة مسح راي مؤلفين آخرين - ان ثمة واقعة مركزية تلاحظ في التطور الديني اليهودي : فالإله يهوه فقد في نهاية المطاف ، ومع مر العصور ، طابعه الخاص ليضارع اكثر فاكثر إله موسى القديم ، آتون . صحيح انه بقي يختلف عنه يسير الاختلاف ولكن لا ينبغي لنا ان نتسرع في التحويل من شأن هذه الفروق التي يسهل تفسيرها : فعهد آتون قد بدأ في مصر في عصر مزدهر كانت وحدة اراضي الامبراطورية تبدو بمصانة فيه . وحتى عندما شرعت هذه الامبراطورية تترنح ، امكن لعباد آتون ان يضربوا صفحا عن تلك النوائب وان يستمروا في تمجيد ابداعات إلههم والتمتع بها .

وقد خبا القدر للشعب اليهودي سلسلة من امتحانات قاسية

٦ - اورباخ : «الصحراء وارض المياده» ، المجلد ٢ ، ١٩٣٦ .

٧ - البعيم : النموذج الاصلي . «الترجم»

ومؤلة ، وصار إليه طاغيا ، صارما ، محاطا بالظلمات . وقد لبث هذا الإله يحتفظ بطابعه الكوني ، بسيادته على البلدان قاطبة والشعوب كافة ، بيد ان انتقال عبادته من المصريين الى اليهود افصح عن نفسه على النحو التالي : فاليهود سيكونون الشعب المختار الذي سيكافأ ذات يوم على التزاماته الخاصة بمكافأة خاصة ايضا . ولا مرأء في ان الشعب لاقى بعض المشقة في ان يتفهم كيف يمكن لفكرة التميز الذي خصه به إلهه ان تتفق مع التجارب المحزنة التي قضى بها عليه قدر منحوس . ولكنه لم يدع الارتياح يستولي عليه ، وكان شعوره بالذنب يتعاظم ليخفق الشك والارتياح في وجود الله . ولعل اليهود سلموا امرهم يومئذ ، كما يفعل أتقياء الناس في ايماننا هذه ، الى «مقاصد العناية الإلهية التي تستعصي على الفهم» . وحين كانوا يدهشون من ان هذا الإله يتوعدهم على الدوام بظهور طغاة ومضطهدين وغلادين جدد : الأشوريين ، البابليين ، الفرس ، كانوا يعاينون قوته المتجلية في ان هؤلاء الأعداء القساة القلوب كانوا على الدوام ايضا يغلبون على امرهم في خاتمة المطاف وتضمحل ممالكهم .

وأخيرا ، تعادل إله اليهود اللاحق في ثلاث نقاط هامة مع إله موسى القديم . فبالفعل - وهذه هي أبرز النقاط - تسم الاعتراف به إلهها اوحدا ، يستحيل تصور إله آخر الى جانبه . وهكذا حمل مذهب اخناتون التوحيدى على محمل الجد من قبل شعب برمته ، وهذا الى حد غدت معه هذه الفكرة جوهر حياته الروحية واستأثرت باهتمامه كله . وقد اتفق الشعب ورجال الدين ، الذين اصبحوا اصحاب اليد الطولى في المسألة ، على هذه النقطة . ولكن الكهنة ، الذين نذروا نشاطهم كله لاقرار الطقوس الدينية ، وجدوا انفسهم في موقع المعارضة تجاه التيار الجارف الذي كان يحث الشعب على إحياء مذهبين دينيين آخرين لموسى . وبالفعل ، كانت اصوات الانبياء تعلن باستمرار

ان الله يحقر الطقوس والاضاحي ولا يطلب سوى الايمان وحياة  
مبنية على الاستقامة والعدالة . وحين كان الانبياء يشيدون  
ببساطة الحياة في الصحراء وبقداستها ، كانوا متأثرين قطعاً  
بالمثل العليا الموسوية .

ولكن هل ثمة ما يوجب التدرج بتأثير موسى حتى نفسر  
كيف تكونت الفكرة النهائية للاله اليهودي ؟ الا يكفي ان نسلم  
بوجود تطور عفوي نحو روحانية أعلى واسمى عبر حضارة ممتدة  
على قرون عدة ؟ ان هذا التفسير الممكن لقمين بأن يضع حداً  
لفلز الذي يشغلنا ، ولكن لي عليه تعليقين ؛ وسأقول أولاً انه لا  
يفسر شيئاً على الاطلاق . فتواجد شروط مماثلة لم يدفع  
بالشعب الاغريقي المحبو بأسمى المواهب الى اعتناق التوحيد ،  
ولكنه أدى الى اغلال الشرك ومذهب تعدد الآلهة والى بدايات  
الفكر الفلسفي . والحق ان التوحيد في مصر لم يكن ، وهذا  
بقدر ما نملك ان نفهمه ، سوى انعكاس ثانوي لنزعة الدولة الى  
التوسع . فالله لم يكن سوى انعكاس للفرعون الذي يمارس  
سلطاناً مطلقاً ، بلا اكراه ، على امبراطورية شاسعة . اما لدى  
اليهود فقد كانت الشروط السياسية تتنافى مع تحول الإله  
القومي المحض الى إله كوني . فمن أين تأتي لهذا الشعب الصغير  
البائس والعاجز صلف الادعاء بأنه الابن الحبيب للرب ؟ ان  
معضلة اصل التوحيد لدى اليهود تظل على هذا النحو بلا حل ،  
او انه يتحتم علينا ان نكتفي بالاعلان ، كما جرت العادة ، بأن  
الامور تجد تفسيرها في العبقرية الدينية الخاصة لهذا الشعب .  
وكل انسان يعلم ان العبقرية عجيبة عصية على الفهم ، ولهذا  
يحسن الا تلجأ الى هذا التفسير الا اذا استباننا لنا استحالة كل  
حل آخر ( ٨ ) .

---

٨ - هذا الكلام ينطبق على المثال الفلد الذي يقدمه لنا وليم فكسبير سليل

مدينة ستراتفورد .

ولا مفر ، فضلا عن ذلك ، من الاقرار بأن الاخبار والروايات والتاريخ تدلنا هي نفسها على الطريق اذ تزعم ، من دون ان تتناقض هذه المرة ، ان موسى هو الذي اعطى الشعب فكرة إله اوحده . والاعتراض الوحيد الذي يمكن ان نعترض به على هذا التوكيد هو ان الكهنة نسبوا الى موسى وقائع كثيرة تفوق الحد المعقول حين انكبوا بالتنقيح والتعديل على النصوص التوراتية التي هي اليوم في متناولنا . فبعض المؤسسات ، وبعض الشعائر الطقسية، التي لا مراء في انها تعود الى زمن اكثر تاخرا، قد صوّرت وكأنها شرائع سنّها موسى ، وهذا لهدف جلي ظاهر وهو احاطتها بالمزيد من الوقع والهيبة . وهذا حافظ لنا على الارتباب في هذه المعطيات ، ولكن من دون ان نطرحها جانبا . وبالفعل ، ان الباعث العميق على هذه المبالغة ظاهر للعيان . فلقد تحرى الكهنة ، في سردهم ، ان يوجدوا استمرارا بين عصرهم وعصر موسى ، وأرادوا ان ينفوا ما يمثل في نظرنا ابرز واقعة في تاريخ الدين اليهودي : اعني بها وجود ثغرة بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمن ، ثغرة سدت في البداية بعبادة يهوه ، ثم تم التخلص منها فيما بعد رويدا رويدا وعلى مهل . ورواية الكهنة تنفي ، بالاستناد الى شتى انواع الحجج ، هذه المجموعة من الوقائع بالرغم من انه لا سبيل الى الممارسة في صحتها التاريخية ، وبالرغم من ان معطيات كثيرة في النص التوراتي تؤيدها حتى بعد كل ما طرأ عليه من تنقيح وتعديل . ولقد كانت رواية الكهنة تخضع لنفس الميل المحرف ، المشوه ، الذي سبق ان جعل من الإله الجديد ، يهوه ، إله الآباء الاوائل . واذا اخذنا بعين الاعتبار هذا الدافع المتضمن في «شريعة الكهنة» ، صعب علينا الا نفترض ان موسى هو السدي اعطى اليهود فعلا وحقا الفكرة التوحيدية . ومما يبرز فينا هذا الاعتقاد علمنا بالمصدر الذي اخذ عنه موسى هذه الفكرة ، وهذا

امر نسيه الكهنة اليهود بالتاكيد .  
ولكن قد يتساءل متسائل عن الفائدة من معرفة هل كان التوحيد اليهودي مستمدا حقا وفعلا من التوحيد المصري ؛ فالمشكلة لا تكون بذلك قد تقدمت اكثر من درجة واحدة ، ولا نكون نحن انفسنا قد كسبنا شيئا يذكر فيما يتعلق بمنشا الفكرة التوحيدية . وردنا على ذلك ان هدفنا ليس الكسب ، بل البحث في ذاته . وربما كان في استطاعتنا ، لو عرفنا المجرى الحقيقي للامور ، ان نصل الى معلومات جديدة .

## - ٢ -

### مرحلة الكمون والماتور

نحن نسلم اذن بان فكرة إله اوحيد وكذلك نبذ الطقوس السحرية وتشديد المتطلبات الاخلاقية باسم هذا الإله ، كانت فعلا وحقا مذاهب موسوية لقيت في البداية قليلا من الاتباع ، ثم انتهى بها المطاف ، بعد فترة انتقالية طويلة ، الى ان تفصل فعلها وترجح كفتها . فكيف نفسر هذا التأثير المتأخر وأبسن نجد ظاهرات مماثلة في غير هذا المضمار ؟

ان مثل هذه الظاهرات تتبادر سراعا الى ذاكرتنا ، ونلقاها بكثرة في ميادين عديدة شديدة التنوع . وهي تحدث ، بوجه الاحتمال ، بصور شتى يسهل بقدر أو بآخر فهمها . لناخذ كنموذج المصير الذي عرفته نظرية علمية جديدة ، هي نظرية داروين عن التطور ، على سبيل المثال . ففي بادىء الامر قوبلت بالعداء ونبذت . وعلى امتداد عشرات السنين كانت قيمتها موضع مباحة وممارسة ، ولكن لم يتصرم اكثر من جيل واحد حتى تم التسليم بأنها بمثابة خطوة كبيرة نحو الحقيقة . وداروين

نفسه كان له الشرف بأن يدفن في ويستمنستر (٩) . ومثل هذه الحالة لا تنطوي على إنغاز شديد . فالحقيقة الجديدة اثارت بعض المقاومات العاطفية ، وتمثلت هذه المقاومات في حجج استهدفت نقض البراهين التي شيدت عليها النظرية المكافحة . واستمر صراع الآراء لحقبة من الزمن . ومن البداية التحسم الانصار والخصوم ، وما ونى الاوائل يتعاضمون عددا وأهمية ، ثم كانت الغلبة في النهاية للمؤيدين . وطوال زمن الصراع ، لم ينس احد البتة ما كنه المسألة . ونحن نكاد لا ندهش اذ نلاحظ أن السيرة في جعلتها قد دامت زمنا طويلا بنوع ما . وأغلب الظن اننا لا ندرك كافي الادراك ان الظاهرة تتعلق بسيكولوجيا الجموع .

وليس من الصعب ان نعثر على تشابه تام بين هذه الظاهرة وبين ما يحدث في الحياة النفسية لكل فرد . لناخذ شخصا كوشف بواقعة جديدة ، البرهان على صحتها قائم ، ولكنها تعاكس بعضا من رغباته وتجرح بعضا من أعر معتقداته . ان هذا الشخص سياتردد ، وسيبحث عن دوافع للشك ، وسيشارك نفسه لحين من الزمن ، الى ان يرغب أخيرا على التسليم بالحقيقة وعلى القول بينه وبين نفسه: «ان هذا كله، وايم الحق ، صحيح؛ ولكن ما أصعب القبول به وما أشق الاعتراف به علي ا» . ان هذه السيرة تعلمنا بأنه لا بد من بعض الوقت حتى يفلح العمل العقلي للأنا في التغلب على الاعتراضات التي تثيرها تركيزات نفسية غيرية قوية . على اننا نقر بأن التشابه بين هذه الحالة والحالة التي ندرسها هنا ليس كبيرا جدا .

والمثال الذي سنتناوله بالدراسة الان يبدو أكثر نأيا ايضا عن المشكلة . قد يحدث أحيانا ان يخرج فرد من الأفراد سليما

---

٩ - دير في لندن يضم قبور ملوك الانكليز ومشاهيرهم . «المترجم»

معاقى ، في الظاهر ، من حادث رهيب ، من تصادم قطارين على سبيل المثال . ثم تظهر عليه في الاسباع التالية جملة من اضطرابات خطيرة ، نفسية وعصبية محرّكة ، يمكن عزوها الى الصدمة ، الى الهزة ، او الى اي سبب مرتبط بالحادث .

ها هوذا قد امسى مريضاً بـ «عصاب رضّي» *Névrose Traumatique* . وهذه واقعة لا تعليل لها بالمرّة ، وبالتالي جديدة . والوقت الذي يفصل بين الحادث وبين اول ظهور للاعراض يسمى «زمن الحضانة» ، وهو مصطلح ينطوي على اشارة شفافة الى علم الامراض السارية . وبالرغم من الفارق الجوهرى بين الحالتين ، فاننا نلاحظ في خاتمة المطاف وجود توافق بصدد نقطة واحدة بين مشكلة العصاب الرضى ومشكلة التوحيد اليهودي . هذا التشابه يتمثل في ما يمكن ان نسميه بالكمون . وبالفعل ، من حقنا ان نفترض ان حقبة مديدة من الزمن تصرمت ، في تاريخ الدين اليهودي ، غب سقوط الديانة الموسوية ، فتواترت فيها عن الانظار الفكرة التوحيدية وانحطت قيمة الطقوس واحتجبت تعزير الجانب الاخلاقي . وهكذا نجد انفسنا مهيبين ، بحكم هذا كله ، لامكانية البحث عن حل مشكلتنا في وضع سيكولوجي خاص .

لقد تكلمنا آنفاً ، في مواضع عدة ، عما حدث في قادش حين ارتبط شطرا الشعب اليهودي المقبل بديانة مشتركة . كانت ذكريات «الخروج» وشخص موسى ما تزال منطبعة بقوة وبكل حيويتها لدى العائدين من مصر ، فلم يكن هناك مندوحة من ادراجها في كل سرد لقصة تلك الازمنة القديمة . وربما كان بين هؤلاء الرجال أحفاد لاشخاص عرفهم موسى ، وربما كان بعضهم يعد نفسه مصرياً ويتسمى بأسماء مصرية . على انه كانت لهم دوافع قوية لكبت ذكرى المصير الذي قبض لزعيمهم ومشرعهم . اما بالنسبة الى الآخرين فقد كان مطلب تمجيد الإله الجديد



وإنكار أصله الإجنبي يتقدم على كل ما عداه . وعليه ، فقد كان للطرفين مصلحة متعادلة في نفي وجود ديانة سابقة لديهما وفي نفي طبيعة مزاعمها . وهكذا تم التوصل الى تسوية أولى لسم تتأخر ، في ارجح الظن ، في ان تأخذ صفة التدوين القانوني : فقد كان قوم مصر قد حملوا معهم الكتابة وحب رواية الوقائع التاريخية . ولكن لا بد ان تكون حقبة طويلة من الزمن قد تصرمت قبل ان يتوصل المؤرخون الى تصور مثل اعلى له صفة الحقيقة الموضوعية . وقبل ذلك ، ما كانوا يتخرجون عن تدوين رواياتهم تبعا للحاجات وللميول الآتية ، وكان عي التزوير غائب عنهم . وقد ترتب على ذلك احتمال حدوث تباين بين تثبيت حدث من الاحداث كتابة وبين تناقله الشفوي ، اي المأثور . فما اهمل او حرّف في الرواية المكتوبة كان يمكن ان يظل سليما ، لم يعيب به عايب ، في المأثور . وكان المأثور تنمّة ونقيضا فسي آن واحد للرواية المكتوبة ، وأقل خضوعا منها للميول المشوّهة ، ولعله نجا منها تماما في بعض النقاط ، فكان حظه من الصحة اكبر من حظ الرواية المكتوبة . بيد ان التناقل الشفوي من جيل الى جيل كان اكثر تعرضا ، حتى من القصة المكتوبة ، لتعديلات عديدة وتعريفات لا تقع تحت حصر . وكان من الممكن ان يؤول مثل هذا المأثور الى مصائر شتى ، ولكن الاحتمال الاكبر بالنسبة اليه كان ان تخنقه الكتابات ، فلا يعود يفرض نفسه الى جانبها، ويرداد ابهاما باستمرار الى ان تطويه يد النسيان نهائيا فيضمحل . ولكن كان من الممكن ايضا ان ينتظره مصير آخر ، وذلك حين يقبض للمأثور نفسه احيانا ان يندوّن ويثبت كتابة . وسوف نتكلم في صفحات لاحقة عن احتمالات اخرى ايضا .

كيف نفسر ظاهرة الكمون في تاريخ اليهودية ؟ اننا نرى ان الوقائع والمعطيات الثابتة ، التي تسمى الروايات المكتوبة المسماة بالرسمية الى نفيها قصدا وعمدا ، لم تضع البتة في الحقيقة . فقد ظلت ذكرها ماثلة في المأثورات الباقية حية في صدور

الشعب . ويؤكد إ. سيلن ان هناك ، حتى بصدد موت موسى، ماثورا يناقض بلا لبس الرواية الرسمية ويظل اقرب منها الى الحقيقة . ولا بد ان الشيء نفسه حدث بالنسبة الى معتقدات اخرى اخفت ، في الظاهر ، مع اختفاء موسى ، وكذلك بالنسبة الى مذاهب الدين الموسوي التي نبذها معظم معاصري النبي .

وتواجهنا هنا واقعة جذبرة بالملاحظة: فهذه الماثورات ازدادت قوة على مر القرون بدلا من ان تضعف مع الزمن ، وشقت طريقها الى التنقيحات والتعديلات اللاحقة الطارئة على الروايات الرسمية ، ودلت في خاتمة المطاف على قوة كافية للتأثير بصورة حاسمة على فكر الشعب وافعاله . والشروط التي اتاحت امكانية مثل هذا التطور ما تزال مجهولة بالنسبة الينا .

ان هذه الواقعة غريبة الى درجة تستاهل معها ان تأسر انتباهنا . ان مشكلتنا برمتها تكمن هنا . فالشعب اليهودي الذي هجر ديانة آتون التي لفته اياها موسى اعتنق عبادة إله آخر يمت بصلة وثيقة الى بعل الشعوب المجاورة . وجميع الجهود التي بذلت فيما بعد لاختفاء هذه الواقعة المدلة منيت بالفشل . ولكن ديانة موسى تركت ، بالرغم من زوالها ، آثارا ، نوعا من ذكرى ، وليثت ، وان محاطة بلا ريب بالغموض والتشويه، ماثورا من ماض عظيم استمر يفعل فعله في الخفاء وتوطدت ، رويدا رويدا ، سطوته على النفوس ، إلى ان قدر له في خاتمة المطاف ان يحول الإله يهوه الى إله موسوي وأن ينفخ الحياة من جديد في ديانة كان موسى قد اقامها قبل قرون طوال ثم كان مالها الهجر . وانه ليشق علينا ان نفهم كيف امكن لاثور مخنوق ان يكون لمثل هذا التأثير على الحياة الروحية لشعب من الشعوب. والحق اننا نتحرك هنا في مضمار سيكولوجيا الجموع الذي لا نشعر فيه بالارض ثابتة كل الثبات تحت أقدامنا . فلنبحث اذن عن تشابهات ، عن وقائع ذات طبيعة مماثلة حتى في ميادين مختلفة . ولا يخامرنا شك في اننا ملاقوها .

في الفترة التي كان يتبها فيها لدى اليهود إحياء الديانة الموسوية ، كان الشعب الاغريقي يملك كنزا منقطع النظر من خرافات الابطال واساطيرهم . ومن المعتقد ان اللحمتين الهوميريتين اللتين اقتبستا موضوعاتهما من مجمل تلك الاساطير قد ظهرتا حوالي القرن التاسع او الثامن . وبفضل معارفنا السيكولوجية الراهنة امكنا ، قبل سليمان وايفانز بحقبة طويلة ، ان نطرح على انفسنا السؤال التالي : من اين افترق الاغريق جميع موضوعات الاساطير التي استحوذ عليها هوميروس وكبار الكتاب المسرحيين ليبدعوا رواعهم ؟ وكان من الممكن ان يأتي جوابنا على النحو التالي : ارجح الظن ان هذا الشعب عرف ، خلال ما قبل تاريخه ، مرحلة من الرخاء والازدهار الثقافي ؛ ثم اتت على هذه الحضارة نائبة جائحة تحدث عنها التاريخ ، ولكن ماثورا غامضا منها بقي على قيد الحياة في الخرافات . وقد اكدت التنقيبات الاثرية المعاصرة صحة هذه الفرضية التي كانت تبدو جريئة ، لا جدال ، في حينه ، وافضت الى اكتشاف الحضارة المينوية - الميقينية العظيمة التي انقرضت ، في ارجح التقدير ، في البر اليوناني حوالي عام ١٢٥٠ ق. م. ويكاد المؤرخون الاغريقيون في العصور المتأخرة لا يأتون بذكر هذه الحضارة : مجرد ملاحظة عن العصر الذي كانت فيه سيادة البحار للكريتيين ، او مجرد اشارة الى ملك مينوس والى القصر والمتاهة ، وهذا كل شيء . ولم يبق من ذلك العهد العظيم سوى ماثورات استحوذ عليها الشعراء .

هناك شعوب اخرى تملك ملاحم ، كالالمان والهنود والفنلنديين . وعلى مؤرخي الادب ان يكتشفوا هل في الامكان تطبيق الفرضيات ، التي افترضناها بالنسبة الى الاغريق ، على تلك الآثار . وفي ظني ان مثل هذه الابحاث ستفضي الى نتيجة ايجابية . وإليكم في رأيي كيف نستطيع ان نفسر اصل الملاحم الشعبية : ان ثمة مرحلة من التاريخ القديم تبدو فور انتهائها

هامة ، جليلة ، عظيمة ، مليئة بأحداث اخاذة ، وبطولية في كل تفاصيلها على الارجح . بيد ان هذه الحقبة تعود الى ازمان نائية ، موهلة في القدم ، بحيث لا يصل شيء من أخبارها الى الاجيال الا من خلال مآثور مبهم ناقص . ولقد اعرب بعضهم عن دهشتهم حين لاحظ ان الملحمة ، بوصفها نوعا ادبيا ، اختفت مع مرور العصور ، ولعل مرد ذلك ان الشروط التاريخية لازدهارها لم تعد متوفرة . فالمادة القديمة قد استهلكت ، وحل التاريخ محل المآثور بالنسبة الى جميع الاحداث اللاحقة . ومهما سمت بطولة الاعمال في ايماننا هذه فانها لا يمكن ان تكون معين إلهام للحملة . أفلم يتشك الاسكندر الكبير نفسه من انه لم يستطع ان يجسد شخصا كهوميروس قادرا على تعظيمه ؟

ان للعصور النائية على المخيلة سحرا اخاذا غامضا . فما ان يدب الاستياء في الناس من الحاضر ، وهذا كثير الوقوع ، حتى يلتفتوا الى الماضي آمليين ان يلتقوا فيه من جديد بحلمهم ، الذي لم يغب عنهم قط ، بعصر ذهبي (١٠) . ولا ريب في انهم يظنون واقعين في أسر سحر طفولتهم التي تصورها لهم ذكرى مفروضة وكأنها عهد من هناء لا يرتقه مرثق . وحين لا تبقى من الماضي سوى الذكريات الناقصة المهمة التي نسميها مآثورات ، يجد الفنان عظيم اللذة في سد نقرات الذاكرة بحسب هوى خياله ، وفي توفيق صورة العصر الذي اخذ على عاتقه ان يصفه مع رغباته . بل يسعنا حتى ان نقول انه كلما زاد المآثور ابهاما انفسح المجال امام الشاعر واسعا لاستخدامه . فكيف ندهش ، والحالة هذه ، من اهمية المآثور للشعر ؟ ان التشابه مع الشروط

---

١ - ان «قصائد روما القديمة» لماكولي مبنية على مثل هذا الوقف . فهي تصور شاعرا مطربا خيبت امله صرامات عصره السياسية العنيفة ، فالتفت بتفنى بروح التضحية عند الاسلاف وياتحادهم ووطنيتهم .

الضرورية لازدهار الملحمة سيحطنا على القبول بسهولة اكبر بتلك الفكرة الغربية ، فكرة ان الماثور الموسوي هو الذي أرجع عبادة يهوه ، لدى اليهود ، الى ديانة موسى القديمة . ولكن بين هاتين العاليتين اختلافا بصدد نقطة اخرى ، فالفرض هنا انتساج قصيدة ، والفرض هناك تشييد ديانة . والحال اننا سلمنا ، بالنسبة الى الحالة الاخيرة ، بان الديانة قد أعيد انتاجها ، تحت دفع الماثور ، بأمانة لا نلغى لها مثالا البتة في الملحمة . على انه تبقى مع ذلك نقاط غامضة عديدة في المشكلة تبرر حاجتنا الى العثور على تشابهات افضل .

- ٣ -

### التشابه

في ميدان بعيد غاية البعد في الظاهر عن مشكلتنا سنكتشف التشابه الوحيد المرضي والمقنع بصدد السيرورة الغربية المحوطة في تاريخ الدين اليهودي ، ولكن هذا التشابه على درجة من الكمال يمكننا معها ان نتكلم حتى عن تطابق ووحدة هوية . فنحن نلغى فيه ظاهرة الكمون ، وظهور أعراض لا تعليل لها ولكن لا مفر مع ذلك من تفسيرها ، وضرورة وجود حدث ماض ثم منسي ، وكذلك تلك القوة المكروهة التي تهيمن على الحياة النفسية بسيطرتها على الفكر المنطقي ، على نحو لا نجد له مثيلا في نشأة الملحمة .

ان هذا التشابه سنلغاه في علم النفس المرضي ، في نشأة العصاب البشري بمختلف ضروبه ، اي في مضمار هو من اختصاص علم النفس الفردي ، في حين ان الظواهرات الدينية هي من اختصاص علم النفس الجمعي . ولسوف نرى ان هذا

التشابه لا يبعث على عظيم الدهشة كما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى ، وانما هو اقرب ما يكون الى الامر المسلم به .  
يطلق اسم الرضات Traumatismes على الانطباعات التي يكتسبها المرء منذ نعومة اظفاره ثم لا يلبث ان ينساها فيما بعد، ونحن نعزو اليها دورا بالغ الاهمية في علم اسباب العصاب .  
ولكن اصحيح حقا ان مبحث اسباب العصاب هو بوجه عام رضي (١١) ؟ ان اولئك الذين يؤكدون هذا المنشأ يمكن الاعتراض عليهم على الفور بأنه لا سبيل في بعض الحالات الى العثور على مثل تلك الرضة ولا الى اظهارها للعيان في التاريخ المبكر للانسان المعصوب névrosé . وغالبا ما نجد انفسنا مكرهين على الا نكتشف من شيء سوى رد فعل شاذ تجاه بعض الاكراهات التي لا مناص من ان يكابد منها كل فرد . وما اكثر الافراد الذين يتحملونها بصورة نصفها نحن بانها سوية .  
وحين لا يكون في مقدورنا ان نفسر ظهور عصاب ما الا بالتدريج بهذا او ذلك من الاستعدادات التكوينية ، الوراثية ، فاننا نميل بالطبع الى القول بأن العصاب لم يكتسب اكتسابا وانما تطور بتوعدة .

بيد انه يخلق بنا هنا ان نلاحظ واقعتين اثنتين : اولا ان منشأ ضروب العصاب يرتد دوما وابدا الى انطباعات طفولية مبكرة جدا (١٢) ، وتانيا ان النتائج في بعض حالات الرضات ننجم بالبداية عن انطباع او عدة انطباعات قوية يعانيتها المرء في طفولته . فهذه الانطباعات تكون قد افلتت من تصفية سوية ،

١١ - رضي Traumatique : نسبة الى الرضة . «م» .

١٢ - وعلية فان من الخرق واللغو الادعاء ، كما يفعل بعضهم ، بأن في المستطاع ممارسة التحليل النفسي بدون تحري احداث مرحلة الطفولة وبلون اخذ هذه المرحلة بعين الاعتبار .

ومن هنا قد نجنح الى القول بأن العصاب ما كان ليظهر الى حيز الوجود لو ان الاحداث التي نحن بصددنا لم تقع . وسيكون كافيا ، كي ندرك هدفنا ، ان نفصر ابحاثنا عن التشابه على هذه الحالات المرضية ، ولكن الهوة بين هاتين المجموعتين لا تبدو متعذرة العبور . فمن الممكن كل الامكان الجمع بين الطرفين المتحكمين في نشأة العصاب في تصور واحد ، ولا يكون من لزام علينا في هذه الحال الا ان نحدد ما المقصود بالرضة . فاذا سلمنا بأن العنصر الكمي هو وحده الذي يضفي على حدث من الاحداث صفة الرضة ، توجب علينا ان نستنتج ان هذا الحدث اذا كان قد سبب بعض ردود الفعل المرضية الشاذة فهذا راجع الى انه تطلب من الشخص اكثر مما ينبغي . وعليه ، نقول ان بعض الوقائع لها على بعض الامزجة تأثير رضي ، في حين انها عديمة المفعول بالنسبة الى امزجة اخرى . ومن هنا كان التصور القائل بوجود سلم متحرك ، اي ما يسمى بـ «سلسلة متكاملة» يسهم فيها عاملان اثنان في مبحث اسباب المرض ، عاملان غير متساويين ولكنهما متكاملان بالنتيجة . وبصورة عامة يفعل كلا العاملين فعله في وقت واحد ، ومن هنا فاتنا لا نستطيع الكلام عن علة بسيطة الا عند طرفي السلسلة . ان هذه الملاحظات تقودنا الى الاستنتاج بأنه لا ينبغي ، فيما يخص تشابهنا ، ان نعلق من اهمية على الفارق بين مبحث في اسباب الامراض يعطي الاعتبار الاول للرضة وبين مبحث مماثل لا يقيم لها وزنا .

وبالرغم من اننا نجازف بالسقوط في التكرار ، فاننا نرى ان من المفيد ان نجتمع هنا الوقائع التي تعرض التشابه الهام الذي نحن بصدده . اليكم اذن هذه الوقائع : لقد ابانت لنا ابحاثنا ان ما نسميه بتظاهرات العصاب او اعراضه يرتد في علته الى بعض احداث وانطباعات تمثل في نظرنا ، بسبب ذلك على وجهه التدقيق ، رضات لها وزنها في علم اسباب الامراض . ومن هنا كان علينا ان نجز مهمتين اثنتين : ان نتقصى ، من جهة اولى:

ولو بصورة مبسطة ، الصفات المشتركة بين تلك الاحداث ، وان نتقصى ، من الجهة الثانية ، الصفات المشتركة بين أعراض العصاب .

أ - لندرس في المقام الاول الرضات . فزمنها جميعها ينحصر بين الطفولة الاولى وبين السنة الخامسة تقريبا . والانطباعات التي يتلقاها الطفل في الفترة التي يشرع فيها بالكلام جديرة بعظيم اهتمامنا . ويبدو ان المرحلة المتسدة بين السنتين والسنوات الاربع هي اهم المراحل . وليس في مستطاعنا ان نحدد بدقة الزمن الذي تبدأ فيه هذه القابلية للتأثر بالرضات .

ب - ان الاحداث المشار اليها تفرق بصورة عامة في عالم النسيان وتغيب عن الذاكرة غيابا تاما . فهي تنتمي الى مرحلة الامه (١٢) الطفولي التي تتخللها هنا وهناك بعض أجزاء من ذكريات .

ج - هذه الاحداث هي عبارة عن انطباعات ذات صفة جنسية او عدوانية ، وهي بالتأكيد كذلك جروح ميكرة يصاب بها الانسا (جروح نرجسية) . أضف الى ذلك ان الاطفال الصغار يكونون ما يزالون عاجزين - خلافا لشأنهم فيما بعد - عن تمييز الافعال الجنسية من الافعال العدوانية المحضة (تاويل «سادي» مفلوط للفعل الجنسي) . وهيمنة العامل الجنسي هذه ، الالفة للنظر بل الباعثة على الدهشة ، بحاجة الى التفسير نظريا .

ان هذه النقاط الثلاث : الظهور المبكر ابان السنوات الخمس الاولى ، والنسيان ، والمضمون العدوانى - الجنسي ، وثيقة الترابط فيما بينها . فالرضات هي إما أحداث تتعلق بجسم الطفل وإما ادراكات حسية ، وبوجه خاص ادراكات حسية



بصرية او سمعية ، وبالتالي هي إما أحداث معاشة وإما انطباعات . والارتباط بين تلك النقاط الثلاث قام البرهان على وجوده نظريا بفضل العمل التحليلي . وهذا العمل التحليلي هو وحده الذي يفترض فيه ان يتيح لنا ان نتعرف الاحداث المنسية ونستعيدھا ، او بتعبير اكثر جرأة ولكن اقل دقة وصحة ، ان نرجع الى الذاكرة أحداثا معينة . وبخلاف الاعتقاد الشائع ، تعلمنا النظرية ان الحياة الجنسية للكائنات البشرية (او ما سيناظرھا في وقت لاحق) تعرف في زمن مبكر تفتحا ينتهي في حوالي السن الخامسة . ويعقب ذلك ما يسمى بمرحلة الكمون التي تمتد الى زمن البلوغ ، والتي يكف اثناءها تطور المشاعر الجنسية بل ينكفئ على أعقابه متقهقرا . وهذه النظرية ، التي تؤيدھا الدراسة التشريحية لنمو الاعضاء التناسلية الداخلية ، تحملنا على الاعتقاد بأن الانسان يتحدر من نوع حيواني يدرك مرحلة التضج الجنسي في حوالي السنة الخامسة . كما أنها تدفع بنا الى الاشتباه بأن التوقف المؤقت للحياة الجنسية وتطورها على مرحلتين مرتبطان وثيق الارتباط بتاريخ التطور البشري ، اي بـ «الصرورة البشرية» . ويبدو ان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يعاني من ذلك الكمون ويعرف ذلك النشاط الجنسي المرجأ . ولم تجر اي دراسة من هذا القبيل حتى الان، على حد علمي ، على رتبة الرئيسات (١٤) ، مع ان مثل هذه الدراسة ستكون ثمينة للغاية بالنسبة الى نظريتنا . وعلى كل ، لئن كانت مرحلة الامه الطفولي تتوافق مع النمو المبكر للمشاعر الجنسية ، فان هذه الواقعة لا يمكن ان يقابلھا علم النفس بلا اکتراث . فعمل هذا الوضع هو الذي يوفر الشروط الضرورية لظهور ضروب العصاب والامراض التي تبدو وكأنها امتياز

---

١٤ - رتبة من الثدييات تجمع بين البشرية والقردية . «الترجم»

موقوف على بني الانسان ، والتي تظهر ، اذا ما نظرنا اليها من هذا المنظور ، وكأنها مخلفات من عصور بدائية ، شأنها شأن بعض أجزاء جسمنا .

ما السمات والخصائص المشتركة بين جميع الاعراض العصابية ؟ يخلق بنا هنا ان نلاحظ نقطتين هامتين :

1 - ان للرضات نوعين من النتائج : نتائج موجبة ونتائج سالبة . فالنتائج الموجبة عبارة عن محاولات لاعادة استثمار الرضة ، اي لإحياء ذكرى الحادث النسي ، او بتعبير أدق ، لاعادة الصفة الواقعية اليه ولبث الحياة فيه من جديد . فاذا كان هذا الحادث عبارة عن رابطة عاطفية مبكرة ، عادت هذه العاطفة الرقيقة الى الحياة لتنصب هذه المرة على شخص آخر . ويطلق على جملة هذه الجهود اسم «تثبيت الرضة» ، او كذلك «آليات التكرار» . ومن الممكن ان تندمج في انا يفترض فيه انه سوي ، فتضفي بصفتها ميولا دائمة طابعها الثابت على هذا الاثاء ، بالرغم من ان الاساس الواقعي لهذه الميول وأصلها التاريخي قد طوتهما يد الانسان ، او بالاحرى ، بحكم ذلك لا بالرغم عنه . وهكذا فان الرجل الذي كان يكنّ ، في طفولته ، حبا مفرطا لامه ، ثم نسي ذلك ، قد يفتش طوال حياته عن المرأة التي سيكون في وسعه ان يوكل اليها امره ، والتي ستطعمه وترعاه . كذلك فان الفتاة ، التي غرر بها منذ نعومة اظفارها ، قد تنظم حياتها الجنسية اللاحقة كلها على نحو تستثير معه دوما مثل ذلك الامتلاك عنوة . واذا درسنا مشكلة العصاب من هذا المنظار ، نتاح لنا المقدرة على معالجة مشكلة تكوين الطبع بوجه عام .

اما ردود الفعل السالبة فترمي الى هدف مختلف كسل الاختلاف . فالرضات المنسية تغيب عن الذاكرة نهائيا ، فلا يعود شيء يتكرر . ونحن نطلق عليها اسم «ردود الفعل الدفاعية» التي تجد ترجمتها في «تحاشيات» قد تتحول بدورها الى ضروب

من «الكف» و«الرهاب» (١٥) . وتساهم ردود الفعل السالبة هذه كبير المساهمة ، بدورها ، في تكوين الطباع . وحاصل الكلام انها لا تعدو ان تكون هي الاخرى ، شأنها شأن ردود الفعل الموجبة ، تثبيتات للرضات ، وان تكن معكوسة الاتجاه . اما اعراض العصاب بحصر معنى الكلمة فهي بمثابة تسويات تشارك فيها جميع الميول السلبية او الايجابية الناجمة عن الرضات . وهكذا تكون الغلبة تارة لهذا العامل وطورا لذلك . وردود الفعل المتناحرة هذه تتولد عنها صراعات لا يتمكن بوجه عام من يعاني منها من ان يجد حلا لها .

ب - ان جميع هذه الظاهرات ، بما فيها الاعراض العصائية وانكماشات الأنا والتعديلات الطارئة على الطبع ، لها صفة الازام والفسر ، اي انها تستقل بنفسها على نحو لافت للانتباه ، فيما اذا كانت شدتها النفسية كبيرة ، وذلك تجاه سائر السيوروات النفسية المتكيفة مع العالم الخارجي والخاضعة لقوانين الفكر المنطقي . ونظرا الى ان هذه الظاهرات لا تكون متأثرة البتة او على نحو كاف بالواقع الخارجي ، فانها لا تقيم وزنا للاشياء الواقعية او للمعادلات النفسية للواقع الخارجي ، الامر الذي يترتب عليه بكل يسر وسهولة قيام صراع حاد بين الظاهرات المذكورة وبين الاشياء الواقعية . انها تشكل ، اذا صح التعبير ، دولة في الدولة ، حزبا منيعا حريزا غير اهل للعمل المشترك ، ولكنه يفلح احيانا في قهر الاحزاب الاخرى ، الاحزاب المسماة بالسوية ، وفي تطويعها . وحين يحدث ذلك ، يكون الواقع النفسي الباطني قد توصل الى الهيمنة على الواقع الخارجي ، ويكون الطريق الى اللهاان *psychose* قد بات مفتوحا .

وحتى عندما لا تصل الامور الى هذا الحد المتطرف ، لا يسعنا بحال من الاحوال ان نتجاهل اهمية تلك الظواهرات . فضروب الكف وعجز الناس الواقعين فريسة عصاب ما عن التكيف مع الحياة هنا عامل بالغ الاهمية في المجتمع البشري . ونفسى مقدورنا ان نعد العصاب مظهرا مباشرا لـ «تثبيت» هؤلاء المرضى في زمن مبكر من ماضيهم .

لندرس الان الكمون الذي يحظى بفائق اهتمامنا من وجهة نظر مقارنتنا التشابهية . فالرضة الطفولية قد يعقبها مباشرة عصاب طفولي . ويتجلى هذا العصاب في جهود دفاعية متواكبة بأعراض . وقد يدوم مثل هذا العصاب حقبة طويلة من الزمن فيتسبب في تظاهرات لافتة للنظر ، او قد يلبث كامنا فلا يفتن اليه احد . والدفاع هو الذي ترجح كفته في هذه الاحوال ، ولكن مهما يحدث فان الانا يتعرض لبعض التبدلات التي تبقى كما تبقى الندوب . ويندر ان يستمر عصاب طفولسي من دون ان يعترضه عصاب راشدي . ويغلب في اكثر الاحوال ان تعقبه حالة سوية ، والكمون الفيزيولوجي هو الذي يسهل بلا ريب هذا التطور او يتيح امكانيته . ولا يفتدو العصاب ظاهرا للعيان كل الظهور الا في زمن لاحق بتأثير مفعول الرضة المرجأ . وهذا ما يحدث في زمن البلوغ او بعينه . ففي الحالة الاولى تستأنف الحوافز الجنسية ، معززة بالنضج الجسماني ، الصراع الذي كانت قد منيت فيه بالهزيمة في البدء . وفي الحالة الثانية ، يظهر العصاب في وقت متأخر لان ردود أفعال الانا والتبدلات الطارئة عليه والناجمة عن إوالية *mécanisme* الدفاع تلحق الاذى والضرر بتحقيق المهام الجديدة التي تفرضها الحياة على الانا ، الامر الذي يترتب عليه قيام نزاعات خطيرة بين عالم خارجي له متطلباته وبين أنا يسمى الى حماية التنظيم الذي لاقى من المشقة ما لاقاه في صراعه الدفاعي ليوفر له اسباب الاستتباب . وفترة الهدنة هذه بين ردود الفعل الاولى على الرضة

وبين ظهور المرض نبي وقت لاحق هي ظاهرة نموذجية . وفي  
وسعنا ان نعد المرض محاولة للشفاء ، مجهودا يبذل في سبيل  
تجميع عناصر الانا التي فصلت بينها وقرقتها الرضة ليجمع منها  
كلا واحدا قويا في مواجهة العالم الخارجي . بيد انه يندر ان  
تكفل هذه المحاولة بالنجاح اذا لم يهب العمل التحليلي للمساعدة  
والنجدة ، وحتى في هذه الحالة الاخيرة لا يكون النجاح مضمونا  
دوما . ففي كثير من الاحيان تنتهي العملية بتدمير الانا او تجزئته،  
او بانتصار يحزره على هذا الانا العنصر المفضل من زمن مبكر  
والواقع تحت هيمنة الرضة .

ولا بد ، لاقتناع القارئ ، من ان نقدم له عرضا مفصلا لحياة  
العديدين من المصابين بالعصاب . ولكن سعة هذا الموضوع  
وصعوباته قمينه بان تخرج هذا البحث عن غايته وبان تحوله الى  
دراسة عن العصبيين . ناهيك عن ان مثل هذا العمل لن يحظى  
الا باهتمام عدد محدود من الناس ، من اولئك الذين نلدروا  
حياتهم لدراسة التحليل النفسي وممارسته . وبما انني اتوجه  
هنا الى جمهور اوسع ، فليس لي من خيار الا ان ارجو القارئ  
ان يمحضني ثقته فيما يخص التوكيدات التي اصوغها . وانني  
لاسلم عن طواعية بدوري بان من حق القارئ الا ياخذ باستنتاجاتي  
الا بعد ان يتحقق من صحة نظرياتي .

مهما يكن من امر ، فاني سأحاول هنا ان اعرض لحالة  
تبرز فيها بجلاء جميع خصائص العصاب التي تحدثت عنها .  
ومن ناقل القول ان حالة واحدة ليست اهلا لكي تقدم لنا جميع  
التوضيحات الضرورية . ولهذا يخلق بالقارئ الا يشعر بخيبة  
الامل اذا ما بدا انه مضمونها بعيدا غاية البعد عن التشابه الذي  
نجد في اثره .

الحالة التي نتحدث عنها حالة صبي صغير كان يشاطر  
والديه غرفتيهما ، كما يحدث غالبا في اوساط البورجوازية

الصغيرة ، وكانت تتاح له فرص عديدة ومنتظمة ، حتى قبل ان يمتلك المقدرة على الكلام ، ليلاحظ افعالها الجنسية وليراها ، وليسمعها بوجه خاص . وكان الارق ابكر وأزعج اعراض العصاب الذي ابتلي به في وقت لاحق والذي برزت امراضه منذ اول احتلام له . فقد كان مفرط الحساسية بالاصوات الليلية ، وكان يتمدر عليه ، حالما يفيق ، ان يخلد الى النوم من جديد . وكان هذا الارق علامة حقيقية على تسوية تعبر من جهة اولى عن دفاعه ضد الادراكات الحسية الليلية ، ومن الجهة الثانية عن مجهوده للبقاء في حالة يقظة قميئة بأن تحيي في نفسه انطباعاته القديمة . ونظرا الى ان تلك المشاهدات قد ايقظت في الطفل قبل الاوان رجولة عدوانية ، فقد شرع يلامس قضيبه ، وأبدى تجاه والدته ، منتحلا شخصية والده ومحتلا مكانه ، ضروبا مسن التقريبات الجنسية . وسارت الامور على هذا المنوال الى ان حظرت عليه والدته ذات يوم تلك الملامسات وهددته بأن تروي كل شيء لآبيه الذي لن يحجم عن معاقبة الطفل بقطعه قضيبه على حد قول الام . وأثار هذا التهديد بالخصي ، لدى الصبي الصغير ، رد فعل عنيفا له طابع الصدمة الرضية . وهكذا ألقع عن نشاطه الجنسي وتبدل طبعه . فبدلا من ان يتشبه بوالده بات يخشاه ، ويقف منه موقفا سلبيا ، ولا يحجم في بعض الاحيان عن استفزازه بما يصدر عنه من مشاكسات لا تطاق . والعقوبات الجسدية التي يسببها على هذا النحو لنفسه تتلبس دلالة جنسية ، فيتوسل بها ليتشبه بوالده المكابدة من سوء المعاملة . ويوما بعد يوم يزداد تشبثه الخائف بالأم ، فكانه لا يستطيع ان يستغني للحظة واحدة عن حباها الذي أمسى يرى فيه حماية من خطر الخصي الذي مصدره والده . وهذا التعديل الطارئ على عقدة اوديب انسحب على امتداد مرحلة الكمون التي لم تتسم بأي اضطراب ظاهر للعيان . وغدا الطفل صبيا نموذجيا ينال رفيع العلامات في المدرسة .

لقد امكنا حتى الان ان نلاحظ مفعول الرضفة المباشر والفوري ، وان نؤكد واقعة الكمون .

ومع البلوغ طرات التظاهرات العصبية ، وظهر الى حيز الوجود عرض ثان من أعراض العصاب ، وهو العنة (العجز الجنسي) . فالفتى ما عاد يسعى الى لمس قضيبه الذي تجرد من كل حساسية ، وفقد الجرأة على التقرب جنسيا من اي امرأة . ويات نشاطه الجنسي كله مقتصرا على استمئاء نفسي من خلال تخيلات سادية - مازوخية يمكن لنا بسهولة ان نستشف فيها نتائج مشاهداته المبكرة للجماع بين والديه . اما انطلاقة الرجولة العارمة التي توابك البلوغ فلم تشعل فيه غير سحر الحقد الضاري على ابيه وشعور بالتمرد عليه . ولقد بلغ هذا الموقف السلبي المتطرف من والده مبلغا أنساه مصلحته بالذات ، ففشل في الحياة ونشبت بينه وبين العالم الخارجي نزاعات . ولسم يحالفه النجاح في مهنته لان والده هو الذي حملة على امتهاتها . ولم تجمعمه صلة ود بإنسان ، ولم يكن في يوم من الايام علسى وفاق مع رؤسائه .

وعقب وفاة والده بادر الى الزواج في خاتمة المطاف ، ولكنه كان مرهقا بأعراض العصاب ، يشن تحت وطأة العجز ، فتجلى طبعه على حقيقته واذاق كل من يعيش معه حنظل الحياة . كان بامس الحاجة ، وهو الاناثي العتيد والمستبد الفظ ، السى ان يعذب الآخرين . وهكذا غدا نسخة طبق الاصل عن ابيه كما استقر في ذاكرته ، اي انه احيا من جديد تشبهه بهذا الاب ، وهو التشبه الذي دفعته اليه في طفولته اسباب ذات طابع جنسي . ونحن نتعرف في هذا الشطر من العصاب عبودة المكبوت الذي قلنا انه ينبغي ان يعد ، مع الآثار المباشرة للرضفة وظاهرة الكمون ، من الاعراض الرئيسية لعصاب ما .

## التطبيق

رضة مبكرة ، دفاع ، كمون ، انفجار العصاب ، عودة المكبوت الجزئية : هذا هو ، في رأينا ، منحى تطور العصاب . واني ادمو القارئ الان الى ان يتقدم خطوة اخرى الى الامام ، فيسلم بأن في الامكان اجراء مقارنة بين تاريخ النوع البشري وتاريخ الفرد . وقصدنا من ذلك ان النوع البشري عرضة ، هو الآخر ، الى سيرووات ذات مضامين عدوانية - جنسية تترك بدورها آثارا دائمة بالرغم من ان معظمها قد نحي جانبا وأسدل عليه ستار النسيان . بيد انها تعود الى فاعليتها في وقت لاحق ، بعد مرحلة كمون طويلة ، وتسبب ظاهرات تضارع في بنيتها واتجاهها الاعراض العصابية .

اعتقد انني ازحت النقاب عن طبيعة تلك السيرووات ، واريد الان ان ابين ان نتائجها ، التي تشبه غاية الشبه الاعراض العصابية ، هي الظاهرات الدينية . فبعد اكتشاف النشوء والارتقاء لا يسع احدا ان يماري في ان النوع البشري كان له ما قبل تاريخ . وبما ان ما قبل التاريخ هذا ما يزال مجهولا - او منسيا ، والامر سيان - فان قيمة استنتاجنا لا تزيد ، على وجه التقريب ، عن قيمة مسلكة من المسلمات . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان الرضات ، الفاعلة والمنسية ، ترتبط في كلتا الحالتين بحياة الاسرة البشرية ، لم نجد مناصا من ان نسنقبل بترحاب هذه المعطية وكأنها هبة لطيفة وغير متوقعة لم تسمح لنا المناقشات السابقة بأن نتكهن بها .

لقد قلت بهذه الاطروحة منذ حوالي ربع قرن من الزمن ، في عام ١٩١٢ ، في كتابي الطوطم والتابو ، وسأقتصر هنا على تكرار ما سبق لي ان قلته يومئذ . ان محاجتي تستند الى ايعاء



من ش. داروين وكذلك الى فرضية لا تكنسون : ففي الازمنة البدائية كان بنو الانسان يحيون في شكل عشائر صغيرة يحكم كل عشيرة منها ذكر ذو بأس وقوة . وليس في مستطاعنا تحديد ذلك الزمن بدقة ، ولا تفيدنا معارفنا الجيولوجية بشيء بخصوص هذا الموضوع . ولا ريب في ان اللغة كانت عصرئذ في بداية تكوينها . واحدى النقاط الاساسية في محاجتنا هي ان المصير الذي سنعيد رسم معالنه كان مصير البشر البدائيين كافة ، وبالتالي مصير اجدادنا واسلافنا ايضا .

يبدو هذا التاريخ ، بالطريقة التي نسرده بها ، في منتهى التكشيف ، فكان ما اقتضى سنوات وسنوات لكي يحدث ويتم ، وكان ما تكرر بلا انقطاع ، لم يحدث في الواقع الا مرة واحدة يتيمة . فقد كان الذكر ذو البأس والقوة ، سيد العشيرة قاطبة ووالدها ، يحوز حسبما يحلو له ، وبفظاظة وشراسة ، سلطانا لا يحده حد . وكانت الاناثى كافة رهن امره : نساء عشيرته وبناتها ، وكذلك النساء والبنات المسبيات من العشائر الاخرى . وكان قدر الابناء قاسيا : فقد كانوا يقتلون او يخلصون او يطردون اذا ما اثاروا ذات يوم غيرة الاب ، وكانوا يجدون انفسهم مكرهين على العيش في جماعات صغيرة ، ولا يعرفون من سبيل الى اقتناء النساء وحيازتهن غير سبيل الخطف والسبي . وكان يحدث ان يتوصل بعضهم الى ان يخلق لنفسه مركزا يضاھي مركز الاب في العشيرة البدائية . اما الابناء الاصغر سنا فقد كانوا يتمتعون ، بالطبع ، بوضع ممتاز ، اذ كان حب والدتهم وسن والدهم يوفران لهم الرعاية والحماية . ومن هنا كان حظهم في ان يخلفوا الاب اكبر وايسر . وفي مستطاعنا ، على ما يبدو ، ان نجد في عدد كبير من الخرافات والاساطير آثارا وبقايا من طرد الابن البكر وإيثار الابن الاصغر .

اعقبت هذه المرحلة من التنظيم «الاجتماعي» مرحلة اخرى تعاضد فيها ، في أرجح الظن ، الاشقاء المطرودون والمتجمعون

في جماعات صغيرة ، على قهر والدهم ، وعلى افتراسه - كما جرت العادة في تلك الأزمنة . ولا داعي لان تقشعر أبداننا اشمزازا من هذه النزعة الى اكل لحم البشر ، فقد استمرت هذه النزعة الى ازمة متأخرة فعلا . اما النقطة الجوهرية فهي اننا ننسب الى اولئك الرجال البدائيين مشاعر وانفعالات تضارع تلك التي اتاحت لنا الابحاث التحليلية النفسية ان نكتشفها لدى البدائيين المعاصرين لنا ولدى اولادنا ، لنخلص من ذلك الى القول بأنهم كانوا يجلون اباهم ويتخذونه قدوة وهذا في الوقت نفسه الذي كانوا يخشونه فيه ويكرهونه . وبالفعل ، كان كل واحد منهم يتمنى لو يحتل مكانه . وعليه ، ينبغي ان نعد اكل لحم البشر محاولة للتشبه بالاب من خلال التمثل الجسدي لقطعة منه .

وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن الاخوة اختصموا فيما بينهم على خلافة الاب ، بعد قتله ، لحقبة مديدة من الزمن ، لحرص كل واحد منهم على ان يستأثر وحده بالمراث كله . وكان لا بد ان يأتي زمن يفهمون فيه خطر تلك الصراعات وعدم جدواها . وقادتهم ذكرى التحرر الذي حققوه سوية ، والروابط العاطفية التي عقدوها فيما بينهم خلال فترة نفيهم ، قادتهم الى نوع من التفاهم ، الى نوع من عقد اجتماعي . ونجم عن ذلك شكل اول من التنظيم الاجتماعي يقوم على نكران الغرائز ، وعلى القبول بالتزامات متبادلة ، وعلى انشاء بعض المؤسسات التي يتم الاعلان عن عدم جواز انتهاكها وعن طابعتها الحرمي ؛ وزبدة القول ، نجم عن ذلك ابتداء الاخلاق والحقوق . وقد تخطى كل امرئ عن الحلم في ان يحتل مكان والده او ان يمتلك امه او اخته . وهكذا جرى تحظير حب المحارم (١٦) وسن قانون الزواج الخارجي (١٧).

Inceste . - ١٦

Exogamie . - ١٧

وانتقل قسم لا بأس به من السلطة المطلقة ، غب موت الاب ، الى النساء ، وبذلك قام نظام الامومة . وطوال هذه المرحلة التي يمكن ان نسميها بمرحلة «عشيرة الاخوة» لبثت ذكرى الاب ثابتة راسخة ، ووقع الاختيار على حيوان مفعم قوة ، كان هو الآخر على الأرجح مهاب الجانب في سالف الأزمان ، ليقوم مقام الاب وليكون عنه بديلا . ولا مرية في ان مثل هذا الاختيار قمين بأن يثير دهشتنا ، بيد ان الهوة التي اختلقها الانسان في زمن لاحق بينه وبين الحيوان لم يكن لها من وجود في نظر الانسان البدائي ، وليس لها من وجود حتى في أيامنا هذه في نظر اطفالنا الذين لا تعليل لرهابهم من الحيوانات ، كما اتيح لنا ان نلاحظ-، الا خوفهم من والدهم . وقد حافظت العلاقات مع الحيوان الطومبي على ازدواجية العواطف التي كان يوحى بها الاب . فقد كسان الطومب يعد ، من جهة اولى ، سلفا متجسدا ، روحا حامية للعشيرة ومن الواجب ان تقدم لها ، بصفتها هذه ، ضروب الرعاية والإجلال ، وصار يحتفل ، من الجهة الثانية ، بعيد يلاقي فيه الحيوان الطومبي مصيرا مشابها لذلك الذي لاقاه الاب . فقد كان جميع اعضاء العشيرة ينفذون فيه حكم الموت مجتمعين ثم يأكلونه (الوليمة الطومبية على حد تعبير روبرتسون سميث) . وكان هذا العيد الكبير في الحقيقة عيدا يحيي ذكرى انتصار حلف الابناء على والدهم .

ولكن ابن موضع الدين اذن بين جميع هذه الوقائع ؟ الحق ان الطومبية بتوقيرها بديل الاب ، وبازدواجية دلالتها كما تشهد على ذلك الوليمة الطومبية ، وباقامتها اعيادا تذكارية ، وبفرضها محرمات يكون الموت عاقبة من لا يتقيد بها ، اقول : الحق ان الطومبية هذه يمكن ان تعد فعلا صيغة اولى للدين في تاريخ البشرية ، وهذا ما تؤكدُه الرابطة الوثيقة التي تجمع ، من البداية ، بين القواعد الاجتماعية والفرائض الاخلاقية . ولا يسعنا هنا ان نقدم اكثر من نبذة في منتهى الاقتضاب عن التطور اللاحق

للدن . ولا ريب نى ان هذا التطور تم بالتوازي مع تقدم الحضارة ومع التغيرات التى طرات على بنية الجماعات البشرية. لقد تطورت الطوطمية وتقدمت باتجاه أنسنة (١٨) الكائن المعبود . فقد حلت محل الحيوان آلهة انسانية لا يخفى علينا اصلها الطوطمي . وحافظ الإله على شكله الحيواني ، او على الأقل على رأس حيواني ، فى بعض الحالات ، وصار الطوطسم رفيقا ملازما للإله لا يقبل عنه فكاكا فى حالات اخرى ، وفى حالات ثالثة اخيرا تصور لنا الاسطورة الإله وهو يقتل الحيوان الذى لم يكن الا سلفا له . وفى مرحلة يصعب تحديدها من هذا التطور ، ظهرت الآلهة الامومية الكبرى التى سبقت نسي الظهور ، على الاغلب ، الآلهة المذكور ، والتي استمرت قائمة الى جانب هذه الاخيرة حقبة مديدة من الزمن . وفى أثناء ذلك ، حدث انقلاب اجتماعي هائل : فقد دبت الحياة من جديد نسي نظام الأبوة ، وأطاح بنظام الامومة . والحق ان الآباء الجدد ما كانوا اقوياء بمثل قوة الاب البدائي . فقد كان تعدادهم كبيرا ، وكانوا يعيشون فى جماعات اوسع واكبر من العشيرة البدائية. وكان لزاما عليهم ان يتفاهموا فيما بينهم وان يضموا الاسس لبعض القواعد الاجتماعية التقييدية . ومن المحتمل ان تكون الآلهة الامومية قد ظهرت يوم وضع حد لنظام الامومة ، وذلك تعويضا على الامهات المخلوعات . وقد صنورت الآلهة المذكورة فى البداية فى صورة ابناء بجانب امهاتهم القويات ، ولم تتليس هذه الآلهة الوجه الابوي الا فى زمن لاحق . والحق ان الآلهة المذكورة تعكس شروط المرحلة الابوية : فقد كانت كثيرة التعداد ، ملزمة بتقاسم السلطة فيما بينها ، بل منصاعة فى بعض الاحيان لإله اعظم قوة

منها . وبذلك لا تعود بيننا وبين الموضوع الذي يشغلنا هنا سوى خطوة تالية واحدة : العودة الى إله اب ، واحد ، أوحد ، كلي القدرة .

لا مندوحة لنا من التسليم بأن هذه اللوحة التاريخية مليئة بالثغرات ، تحفها الريب والشكوك في اكثر من ناحية ، ومع ذلك لا يسع احدا ان ينعت طريقتنا في فهم التاريخ البدائي وتصوره بانها تشط في الخيال الا اذا استهان عظيم الاستهانة بغيرى المادة التي نستند اليها ويقوتها على الاقناع . وبالفعل ، لقد قام البرهان تاريخيا على صحة عدد كبير من وقائع الماضي التسي جمعناها هنا في كل واحد ، ومن قبيل ذلك الطوطمية وجماعات الدكور . كما ان بعض الوقائع الاخرى وجدت وقائع مطابقة لها مطابقة شبه حرفية . فقد ابدى اكثر من مؤلف دهشته من التشابه القائم بين طقس تناول القربان المقدس لدى المسيحيين - وبه يمثل المؤمن رمزيا جسد إلهه ودمه - وبين الولىمة الطوطمية التي لها دلالة مماثلة . كذلك تشتمل الخرافات والحكايات الشعبية على عدد لا حصر له من بقايا العصر البدائي المنسي ومخلفاته . وعلاوة على ذلك ، اتاحت الدراسة التحليلية لحياة الاطفال النفسية امكانية جني حصيد وافر وغير متوقع من الوثائق القمينة بردم الثغرات في معرفتنا بالازمنة البدائية . وحتى نسلط المزيد من الاضواء على أهمية العلاقات بين الابن والابن ، حسبنا ان نستشهد برهاب الحيوانات ، وبخوف الابن الباصت على الدهشة من ان يأكله والده ، وبرهبته العظيمة من ان يقع ضحية للخصي . والحق أننا لم نبتكر شيئا من بنات خيالنا في اعادة بنائنا للماضي ، ولم نفرض فرضا لا يرتكر الى اسس متينة .

لنفترض على كل حال ان هذه اللوحة التاريخية معقولة وقابلة للتصديق ، ولسوف نتبين في هذه الحال ان المذاهب الدينية والطقوس تنطوي على نوعين من العناصر : من جهة أولى

تركيزات على القصص العائلية القديمة وبقايا بائدة من هذه القصص ، ومن الجهة الثانية إحياء للماضي ، وبعث ، بعد فاصل زمني طويل ، لما طوته يد النسيان . وهذا العنصر الاخير هو الذي غاب عن الانظار حتى اليوم ، فأفلت بالتالي من ادراكنا . ولعل قيمته الحققة لن تبرز الا اذا ضربنا مثالا ساطعا .

يخلق بنا هنا ان نلفت النظر الى ان كل عنصر منبثق من الماضي يفرض نفسه بقوة فائقة ، ويمارس على الجموع تأثيرا هائلا ، ويصبح بلا منازع وعلى نحو لا يقاوم موضوع ايمان ، ايمان لا يستطع حياله اي اعتراض منطقي شيئا ، على طريقة Credo Quia Absurdum (١٩) . وهذه السمة الغريبة لا يمكن فهمها الا بالمقارنة مع هدايات الذهان . ونحن نعلم منذ امد بعيد ان كل فكرة هاذية تنطوي على شيء من حقيقة منسية طرا عليها بدورها بعض تحريفات ، فباتت عرضة لسوء الفهم . والمريض بحسب فكرته الهاذية حقيقة ، ويقينيه الهوسي ، المرضي ، يتخطى نطاق تلك النواة من الحقيقة ليحتضن ايضا الاخطاء التي تغلف هذه النواة . واننا لنلغى نواة الحقيقة هذه ، التي نسميها بالحقيقة التاريخية ، فسي عقائد شتى الاديان . وللاديان في الواقع - لنقر بذلك - طابع الاعراض العصائية ، ولكنها تنجو من لعنة العزلة الفردية باعتبارها ظاهرات جماعية .

از من جزء من اجزاء التاريخ الديني يبدو لنا جليا بيانا مثل قيام الديانة التوحيدية لدى اليهود واستمرارها فسي المسيحية ، لكن يتقدم على ذلك في الجلاء والوضوح التطور

---

١٩ - تعبير لاتيني ينسب خطأ الى القديس اوسطينوس ، وترجمته الحرفية «انني اؤمن بذلك لانه غير معقول» ، ويقصد به ان الايمان لا يحتاج الى فهم .  
«الترجم»

- وهو تطور مفهوم تماما بالنسبة الينا ولا بغمض علينا فيه شيء - من الطوطم الحيواني الى الإله الانساني الممثل او المشخص دوما مع رفيقه (الحيواني) . (ان لكل واحد من واضعي الاناجيل الاربعة حيوانه المفضل) . ولو ارتضينا بأن نسلم ، ولو للحظة واحدة ، بان القوة العالمية لامبراطورية الفراعنة هي العلة الكامنة وراء ظهور الفكرة التوحيدية ، لاتضح لنا ان هذه الفكرة، التي اجتثت من تربتها ونقلت الى شعب آخر ، قد تم تبينها من قبل هذا الشعب عينه بعد فترة كمون طويلة ، فصانها وحافظ عليها وكأنها ائمن ما يملك اطلاقا ، في حين انها اتاحت له بالمقابل ان يقف ويستمر على قيد الحياة اذ افعمته كبرياءه واعترازا لاعتقاده بأنه شعب مختار . انها ديانة الاب البدائي التي يناط بها الامل بمكافأة ، بتميز وإيثار ، واخيرا بسيطرة على العالم . وهذه الامنية الوهمية الاخيرة ما تزال موجودة ، بعد حقبة طويلة من تخلي اليهود عنها ، لدى اعدائهم الذين يصرون بعناد على الاعتقاد بمؤامرة «حكماء صهيون» . ولسوف نرى في فصل تال كيف ان خصائص التوحيد الآتي من مصر قد تركت اثرها ، ولا بد ، في الشعب اليهودي ، ووسمت بعيسمها الى الابد طباعه اذ حثته على اطراح السحر والتصوف جانبا ، وعلى التقدم صعدا في مراقي الروحانية والتسامي . ولسوف نبين كيف توصل هذا الشعب ، السعيد باعتقاده بان الحقيقة هي في حوزته ، الواعي ملء الوعي سعادته من حيث انه شعب مختار ، اقول : سوف نبين كيف توصل هذا الشعب الى اعلاء شأن القيم الفكرية والاخلاقية عظيم الاعلاء ، وكيف ان هذه الميول جميعا قد تمزقت لديه بحكم مصير تعيس وواقع مخيب للامال . اما في الوقت الراهن فاننا سنتناول تطوره التاريخي من زاوية اخرى .

ان اعادة الحقوق التاريخية الى الاب البدائي كانت بمثابة تقدم مرموق ، ولكنها لم تكن خاتمة الشوط . فقد كانت سائر اقسام المأساة ما قبل التاريخية تنزع ، هي الاخرى ، الى ان

تزيح النقاب عن نفسها لتحظى بالاعتراف بها . كيف تمكنت هذه  
السيرورة من الانطلاق وشق طريقها ؟ هذا ما تعسر الاجابة عليه .  
ويبدو ان شعورا متعاضما بالذنب قد استولسى على الشعب  
اليهودي ، وربما ايضا على العالم المتمدين بأسره في ذلك العصر ،  
وهو شعور جعل هذا الشعب يتكهن ويحدث بعودة ما كان قد  
كبت . ولقد سارت الامور على هذا المنوال الى ان قام فرد من  
افراد هذا الشعب ، عقب انحيازه الى جانب محرض سياسي -  
ديني (٢٠) ، بتأسيس ديانة جديدة ، هي الديانة المسيحية التي  
استقلت عن الديانة اليهودية . فقد بادر بولس الطرسوسي ، وهو  
روماني يهودي ، الى ارجاع ذلك الشعور بالذنب ، بحق وعدل ،  
الى منبعه ما قبل التاريخي ، مطلقا عليه اسم الخطيئة الاصلية:  
تلك الجريمة التي اقرت بحق اللات الإلهية والتي لا سبيل الى  
التكفير عنها الا بالموت والموت وحده . ومع الخطيئة الاصلية دخل  
الموت الى العالم (٢١) . والواقع ان تلك الجريمة التي تستتبع  
الموت هي جريمة قتل الاب البدائي الذي جرى تأليهه فيما بعد .  
بيد ان جريمة القتل لم يأت لها ذكر ، وانما جاء فقط ذكر  
استيهام (٢٢) التكفير عنها ، ولهذا جرى الترحيب بهذا الاستيهام  
باعتباره رسالة خلاص (الانجيل) . فابن الله ، البريء من كل  
خطيئة ، ضحى بنفسه واخذ على عاتقه وزر الجميع وذنبهم .  
ولقد كان من المفروض فيه فعلا ان يكون ابنا، لان ضحية الجريمة

---

٢٠ - يدعي ان فرويد يقصد بهذا المعرض السياسي - الديني المسيح:

«الترجم»

٢١ - المفروض ، من وجهة نظر المسيحية ، ان آدم وحواء كانا خالدين في  
الجنة الى ان ارتكبا الخطيئة فصارا من الفانيين ، وهي الخطيئة التي يتحمل  
وذرها ابناؤها وابناء ابنائهما من بعدهما .

«الترجم»

٢٢ - استيهام : **Fantasma** .



كان ابا . وأرجح الظن ان بعض ماثورات الاسرار الشرفيصة  
والاغريقية كان لها تأثيرها في صياغة استيهام الخلاص . ولكن  
اليد الطولى في الموضوع كانت ، على ما يبدو ، لبولس السدي  
كان ، بكل ما في الكلمة من معنى ، انسانا ورعا . فقد كانت  
عقايل الماضي البهمة الدامسة تنتظر ، في نفسه ، الساعة التي  
تبزغ فيها في مناطق الوعي .

ولئن يكن بريء من كل جرم هو الذي ضحى بنفسه ، فهذا  
لا يعدو ان يكون ، بالبداهة ، تشويها مفرضا يصعب كل الصعوبة  
تصوره وفهمه من وجهة نظر المنطق . وبالفعل ، كيف يسعنا ان  
نتصور ان يتحمل بريء وزر جريمة فيقبل صاقرا بأن تنزل به  
عقوبة الموت ؟ ان التاريخ لا يقدم لنا اي مثال على مثل هذه  
المنافاة للمنطق . فقد كان المفروض ان يكون «الفادي» المذنب  
الرئيسي ، زعيم عشيرة الاخوة ، ذاك السدي قهر الاب وتغلب  
عليه . ولكن هل وجد حقا هذا الرأس المدبر المتمرد ، هذا  
الزعيم ؟ هذا في رأيي سؤال ينبغي ان يترك بلا جواب . والحادثة  
على كل حال ممكنة كل الامكان ، ولكن لناخذ في حسابنا ان كل  
واحد من الاخوة المتآمرين كان يملل نفسه ، بكل تأكيد ، بالامل  
في ان يكون المستفيد الوحيد من الجرم ، وفي ان يخلق لنفسه  
وضعا فريدا قميئا بأن يسد مسد التماهي مع الاب . وبالفعل ،  
كان من الواجب التخلي عن هذا التماهي وتدويبه في الجماعة .  
واذا لم يكن ذلك الزعيم قد وجد ، فان المسيح يكون في هذه  
الحال وريث استيهام رغبة غير مشبعة . اما اذا كان ذلك الزعيم  
قد رأى النور وعاش حقا ، فالمسيح في هذه الحال خلفه وتجسده  
المتجدد . ولكن سواء اكانت المسألة مسألة استيهام ام مسألة  
عودة واقع منسي ، فليس لذلك من اهمية تذكر ، على اعتبار  
ان ما نتعرفه هنا هو اصل مفهوم البطل ، البطل الذي يتمرد  
دوما وأبدا على والده وينتهي به الامر ، بصورة من الصور ، الى

قتله (٢٢) . كما اننا نتعرف هنا المنبع الحقيقي لـ «الذنب  
الماساوي» الذي يختلج في أعماق البطل في الدراما ، وهو الذنب  
الذي يعسر توضيحه وتعليله بصورة اخرى . فمن المحتمل جدا  
ان يكون البطل والجوقة في المآسي المسرحية القديمة ممثلين  
للابطال المتمردين انفسهم ولؤامرة الاخوة عينها ، وليس من عديم  
الاهمية ان نلاحظ ان الحياة دبّت في اوصال المسرح من جديد  
في القرون الوسطى مع قصة آلام المسيح .

لقد سبق لنا ان قلنا ان الاحتفال المسيحي الطقسي بتناول  
القربان المقدس الذي يتمثل المؤمن عن طريقه جسد الفلادي ودمه،  
ما هو الا تكرار للوليمة الطوطمية القديمة ، ولكن بعد فقدانها  
كل طابع عدواني وإحاطتها ، على العكس ، بالحنان والتقوى .  
على ان الازدواجية السائدة في العلاقات بين الاب والابن تتم عن  
نفسها وتتجلى بوضوح في النتيجة النهائية للاصلاح الديني  
الذي كان الهدف منه الوصول الى مصالحة مع الاب ، فما نجم  
عنه الا خلق الاب وإقالته . فلقد كانت اليهودية ديانة الاب ،  
فقدت المسيحية ديانة الابن ، وانحطت مكانة الإله القديم ،  
الإله - الاب الى المرتبة الثانية ، واخذ المسيح ، ابنه ، مكانه ،  
تماما كما اراد ان يفعل ذلك ، في دائل الازمنة ، كل واحد من  
الابناء المتمردين . أما بولس ، متابع اليهودية ومتممها ، فقد كان  
ايضا مهدهما ومقوضها . ولئن حالفه النجاح ، فهلما يرجع اولا ،  
وبالتأكيد ، الى انه توصل ، بفضل فكرة الفداء ، الى ابعاد شبح  
الاثم الانساني وطرده ، ويرجع ثانيا الى انه تخلى عن الفكرة

---

٢٣ - يلفت ارنست جونو انتباهي الى الواقعة التالية وهي ان الاله ميترا  
الذي يقتل الثور ربما كان يمثل ذلك الزعيم ، اي ذلك الذي يتباهى بصنيعه.  
ومعروف ان عبادة ميترا صارمت ، لحقبة طويلة من الزمن ، المسيحية الوفيده  
على اقتراع راية النصر النهائي .

القائلة بأن الشعب اليهودي هو «الشعب المختار» والى انه تخلى ايضا عن العلامة الظاهرة الخارجية على هذا الاختيار والاصطفاء: تقصد بها الختان . بذلك امكن للديانة الجديدة ان تغدو ديانة عامة كونية ، وأن تتوجه الى بني الانسان قاطبة . وحتى اذا افترضنا ان حافز بولس كان حس الانتقام الشخصي - اذ اصطدم مذهبه الجديد بمعارضة الاوساط اليهودية - فان هذا الافتراض لا يغير شيئاً من حقيقة ان احدى سمات ديانة آتون القديمة (سمة الشمولية والكونية) قد جرى توطيدها من جديد. فلقد عاد الدين عاما كونيا مثلما كان قبل ان ينتقل الى مشاييعه الجدد : اليهود .

لقد مثلت العقيدة الجديدة ، من بعض وجهات النظر ، تراجعا وتقهقرا بالنسبة الى العقيدة اليهودية القديمة ، مثلما هي الحال في كل مرة تقتحم فيها موجة جديدة من البشر بلدا من البلدان او تلقى بين ظهرانيه قبولا وان يكن سكانه اعظم تمدينا وتحضرا من الوافدين الجدد . وبالفعل ، لم تكن المسيحية قد بلغت الدرجة التي بلغتھا اليهودية من الروحانية ، ولم تكن قد حافظت على نقاء مذهب التوحيد . فقد اعادت المسيحية الاعتبار، بعد ان اقتبست عن الشعوب المجاورة العديد من الطقوس الرمزية ، الى الالهة الانثى الكبرى ، والحقت بها ايضا العديد من آلهة الشرك ، وان تكن في الوقت نفسه قد البست هذه الالهة ثيابا تنكرية لم تغلح في اخفاء هويتها ، وان تكن ايضا قد حطت مقامها الى مرتبة ثانوية . والاهم من هذا انها قصرت عن ديانة آتون وعن الديانة الموسوية التالية لها صرامة وتشددا في استبعاد عناصر الخرافة والسحر والتصوف التي وقفت عقبة كاداء امام تطورها الروحي على مدى الفي عام .

لقد كان انتصار المسيحية ظفرا جديدا لكهنة آمون على إله اخناتون ، وهذا بعد فاصل زمني يناهز الفا وخمسمئة عام ،

وعلى نطاق اوسع وارحب بما لا يقاس . على ان المسيحية كانت مع ذلك خطوة متقدمة في تاريخ الديانات، وعلى الاقل فيما يتعلق بعودة المكبوت . ومنذ ذلك الحين لم تعد اليهودية أكثر مسن مستحاة ان جاز التعبير .

ومن المثير للاهتمام ان نعرف كيف مارست الفكرة التوحيدية على الشعب اليهودي على وجه التحديد ذلك التأثير العظيم، ولماذا لبث هذا الشعب على وفائه لها بعناد عظيم هو الآخر . يخيل الي ان في المستطاع الاجابة على هذا السؤال . فلئن كان القدر قد حث الشعب اليهودي على ان يجدد الجريمة البدائية باقترافها هذه المرة بحق موسى، ذلك البديل السامي المقام من الاب، فان قتل الاب قد اتاح له ان يفهم هذا الصنيع الباهر . فقد حل «العمل» او «الفعل» محل الذكرى ، كما يحدث في غالب الاحيان انشاء تحليل المعصوبين . وكان رد فعل اليهود على مذهب موسى ، الذي يحثهم على التذكر ، ان نفوا وانكروا فعلتهم ، واكتفوا بالاعتراف، لا اكثر، بالاب السامي المقام . وبدلك سدوا على انفسهم طريق الوصول الى النقطة التي سيستأنف منها بولس ، فيما بعد ، القصة البدائية ويكملها . وليس من قبيل المصادفة المحض ان يفدو تنفيذ حكم الموت برجل عظيم نقطة انطلاق لديانة جديدة، هي تلك التي اسسها بولس . وفي حينه كان عدد ضئيل فقط من التلاميذ في بلاد اليهودية يؤمنون بان ذلك الذي عذب وتكل به هو ابن الله ، المسيح المنتظر . وبعد مرور فترة من الزمن غدت قصة طفولة موسى في جزء منها عين قصة يسوع الذي لا يزيد معلوماتنا عنه ، والحق يقال ، عن معلوماتنا عن موسى نفسه . فنحن نجعل هل كان فعلا هو ذلك الرجل العظيم الذي تصفه الاناجيل ، او هل تعود شهرته فقط الى موته والسي الظروف التي احاطت بموته هذا . اما بولس ، الذي صار رسوله، فلم يعرفه قط معرفة شخصية .

ان مقتل موسى على يد شعبه - وهي الجريمة التي امكن

لسيلان ان يجد آثارها في الماثور والتي سلم غوته الفتى (٢٤) بواقعتها من دون ان يكون بين يديه ، وهذا موضع الغرابة ، اي دليل او برهان - نقول ان مقتل موسى على يد شعبه حجر من أحجار الزاوية في استدلالنا ، وهو بمثابة رباط هام بين الحادث المنسي الذي وقع في العصر البدائي وبين عودته السى الظهور في زمن لاحق في شكل الاديان التوحيدية (٢٥) . وطبقا لفرضية لها جاذبيتها واغراؤها ، فان الندم على قتل موسى هو الذي ولد استيهام التوق الى مسيح منتظر يرجع الى الارض ليحمل لشعبه الخلاص وليحقق له السيطرة التي وعد بها على العالم . واذا كان موسى هو حقا وفعلا ذلك المسيح المنتظر ، فان يسوع يصبح في هذه الحال بديله وخلفه . ولهذا امكن لبولس ، بحق ، ان يهتف مخاطبا الشعب : «انظروا ، هوذا المسيح المنتظر قد جاء حقا وفعلا . افلم يقتل على مرأى منكم ؟» . وبذلك يضاف على بعث المسيح شيء من الحقيقة التاريخية ، لان المسيح كان حقا موسى المبعوث ، وكان يخفي وراءه الاب الاول لعشيرة البدائية ، ولكن بعد ان تغيرت معالته وقسماته ، واحتل بوصفه ابنا مكان ابيه .

اما الشعب اليهودي التعيس ، الذي ركب رأسه بعناده المعروف عنه واصر على انكار جريمة قتله اياه ، فقد لقي صارم العقاب على مر العصور . فقد كان دوما عرضة لهذه الملامة : «لقد قلتم إلهنا !» . واذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار ، فان هذا الاتهام ثابت حين يجري تأويله من خلال علاقته بتاريخ

٢٤ - «اسرائيل في الصحراء» ، المجلد ٧ من طبعة فايسار ، ص ١٧٠ .

٢٥ - أنظر في هذا الموضوع كتابات فرايرر . «الفن الذهبي» ، المجلد ٢ :

«الاله المحتضر» .

الديانات . وإليكم في هذه الحال معناه الدقيق : «انكم تابون الاقرار بقتلكم الله (بعيم الله ، الاب البدائي وتجسداته المتكررة التالية)» . بيد انه يخلق بنا ان نضيف ما يلي : «لقد فعلنا ، والحق يقال ، الشيء عينه ، ولكننا أقرونا به ، وبذلك كتب لنا الغداء» . اما التهم التي لا تني اللاسامية توجهها الى أحفاد اليهود ، فليست بثابتة كلها بالدرجة ذاتها . ولا مرنة في ان ظاهرة ثابتة مستمرة ، لها ما لها من الحدة والانتساع ، كظاهرة الكراهية الشعبية لليهود (٢٦) ، تنطوي بالضرورة على اكثر من علة واحدة . وليس من العسير ان نتكهن بأن الدوافع اليها عديدة ، بعضها يعلل نفسه بنفسه ومستتبس من الواقع ، وبعضها الآخر ، وهو الاعمق ، يمتح من منابع خفية ينبغي ان نرى فيها الاسباب الاساسية للاسامية . ويجب ان ندرج في الزمرة الاولى أمكر تلك المآخذ وأعظمها نفاقا ، أعني ما يؤخذ عليهم من انهم يظنون في كل مكان اجانب غرباء . هذا مع العلم بأن اليهود يؤلفون ، في العديد من المناطق التي تعيث فيها اللاسامية فسادا وتدرك فيها اليوم أوج ضراوتها ، عنصرا من أقدم عناصر السكان، وقد استقروا فيها قبل استقرار سكانها الحاليين بحقب مديدة . ذلكم هو ، على سبيل المثال ، شأن مدينة كولن (٢٧) التي قدم اليها اليهود مع الرومان وقبل غزو الجرمانيين . وثمة دوافع اخرى للحقد والكراهية اقوى وأعتى ايضا ، ومن ذلك ان اليهود يتجمعون بوجه عام في شكل اقلية بين ظهرائي الشعوب الاخرى . وبالفعل ، ان الشعور بتضامن متين بين الجماهير لا يمكن ان يقوم الا اذا توفر لديها شيء من العداء والبغضاء تجاه

---

٢٦ - لا نس ان فرويد كتب هذا الفصل في عام ١٩٢٨ ، في أوج صعود

«الترجم»

النازية والاسامية .

٢٧ - كولن (كولونيا) : من مدن المانيا الكبيرة ، أسسها الرومان . «الترجم»

اقلية من الاقليات الاجنبية، ناهيك عن أن الضعف العددي للاقلية هو خير حافز على اضطهادها . على أن لليهود سمتين آخرين لا تفتقران بحال من الاحوال : فهم يختلفون اولاً ، من بعض وجهات النظر ، عن «مضيفهم» ، ولكن من دون أن يكون هذا الاختلاف جوهرياً . إذ ليسوا ، بخلاف ما يزعم اعداؤهم ، آسيويين من عرق اجنبي ، وانما الاختلاف مقتصر على بعض الطباع والامزجة التي ورثوها عن ثقافة شعوب حوض البحر الابيض المتوسط . على أنهم قد يختلفون احياناً عن الشعوب الاخرى ، ولاسيما شعوب الشمال ، على نحو غير قابل للتحديد . والغريب نفسي الامر ان التعصب المنصري يتجلى تجاه الفروق الصغيرة بقوة اكبر مما تجاه الفروق الاساسية . والسمة الثانية لليهود لها اهمية اعظم ايضاً : فهم يتحدثون كل اضطهاد ايا كان . فأقصى اشكال القمع والاضطهاد لم تفلح قط في ابادتهم واستئصال شأفتهم . بل على النقيض من ذلك ، إذ نراهم يتوصلون الى فرض انفسهم في المهن كافة ويرفدون الحضارة ، حيثما امكن لهم ان يتغلغلوا ، بشمين العطاء .

ان جدور كراهية اليهود والحقد عليهم تعود الى ازمنة سحيقة . وانما من لا شعور الجموع يتفجر بغضهم ومقتهم . وانني لا اجعل ان الدوافع الى هذه الكراهية ستبدو ، للوهلة الاولى ، غير قابلة للنصديق . على انني لا أحجم عن القول بان الغيرة التي يثيرها شعب كان يزعم انه حبيب الله الاب وانّه اول شعب ظهر الى حيز الوجود لم تنطفئ الى يومنا هذا ، فكان الشعوب الاخرى صدقت بنفسها تلك المزاعم . ثم ان عادة الختان ، من بين سائر عادات اليهود ، تترك انطباعاً مزعجاً ، مستكرهاً ، مقلقاً ، وهذا بلا ريب لانها تعيد الى الاذهان الوجداني بالخصي الذي يبعث الرعب في النفوس ، فتحيي بذلك جزءاً من الماضي البدائي المنسي عن طيبة خاطر . ولا ننسى ان ندرج في

هذه اللائحة أحدثت علل اللاسامية ومسبباتها ، فنتذكر ان جميع الشعوب التي تنهج اليوم نهج اللاسامية لم تعتنق المسيحية الا في عصر متأخر نسبيا ، وفي كثير من الاحيان لانها اكرهت على ذلك اكراما تحت الوعيد بالموت . وفي استطاعنا القول انها جميعها كانت «سيئة المعمودية» ، وانها لبثت ، تحت طلاء رقيق من المسيحية ، على ما كان عليه اسلافها ، اي برابرة مشركين . ونظرا الى ان هذه الشعوب لم تفلح في التقلب على مقتها وبفضها للديانة الجديدة التي فرضت عليها فرضا ، فقد اسقطت تلك البغضاء على المصدر الذي جاءتها منه المسيحية . ومما سهل عليها هذا الاسقاط ان الاناجيل لا تروي سوى قصة تجسري أحداثها بين اليهود ولا دخل لها بغير اليهود . وما حقد تلك الشعوب على اليهود في جوهره سوى حقد على المسيحية . فلا تأخذنا الدهشة اذن حين تجد صلة الرحم والقربى الوثيقة هذه بين الديانتين التوحيديتين تعبيرها الصريح الصافي في ما تلقاه كلتاهما من سوء معاملة في ظل الثورة القومية - الاشتراكية الألمانية (٢٨) .

- ٥ -

### نقاط شائكة

لعلنا افلحنا في الفصل السابق في بيان التشابه القائم بين السرورات العصابية والوقائع الدينية ، كاشفين النقاب بذلك عن المصدر غير المتوقع لهذه الاخيرة . ونحن حين ننتقل على هذا النحو من علم النفس الفردي الى علم النفس الجمعي ،

٢٨ - معلوم ان النازية كلت تسمى بالثورة القومية - الاشتراكية .

«المرجم»



نصلدم في الحقيقة بعقبتين اثنتين، مختلفتين طبيعة ومتفاوتتين أهمية ، ستكونان موضع اهتمامنا فيما يلي . فنحن اولاً لسم ندرس حتى الان سوى حالة واحدة يتيمة من بين تلك الحالات العديدة التي تشتمل عليها فينوميتولوجيا الاديان ، وبناء على ذلك يستحيل علينا ان نسلط الاضواء على الحالات الاخرى .

ويقر المؤلف آسفا بأنه مكره على الاقتصار على ذلك المثال الوحيد لان معلوماته التقنية لا تسمح له بتكملة ابحاثه . بيد ان معرفته المحدودة تبيح له ان يضيف بان تأسيس ديانة محمد يبدو له تكراراً مختصراً للديانة اليهودية التي تقولت بقالبها . ويظهر ان النبي فكر بادية الامر بان يختار لنفسه ولشعبه اليهودية كما كانت مألوفة للانظار عصرئذ . وقد اكتسب العرب ، باستعادتهم للاب البدائي الاكبر والواحد ، وهيا طائفا بدواتهم اتاح لهم اجترار نجاحات مادية كبيرة ، لكن هذه النجاحات استهلكت ديناميتهم . وقد اظهر الله تجاه شعبه المخار قدراً من عرفان الجميل اكبر من ذلك الذي اظهره يهوه تجاه شعبه . غير ان التطور الداخلي للديانة الجديدة لم يلبث ان توقف ، وربما لانها كانت تفتقر الى ذلك العمق الذي تاتي للديانة اليهودية من مقتل مؤسسها (٢٩) . ان ديانات الشرق ، ذات النزعة العقلانية ظاهراً،

---

٢٩ - ان اصرار فرويد على تفسير جميع الديانات التوحيدية ، بما فيها الاسلام ، وفق مخطط نموذجي واحد قد اوقعه في وهم التصور بان «تأسيس ديانة محمد ... تكرار مختصر للديانة اليهودية» . ومن دون ان ننفي اثر اليهودية والمسيحية في ديانة شبه الجزيرة العربية ، فاننا لا نرى وجهاً للمقارنة بين منشأ تينك الديانتين ومنشأ الاسلام . فالاختلاف في ظروف النشأة كبير وهو مابل للاختصار . وعلى كل ، فان فرويد نفسه يقر بان نقص معلوماته التقنية لا يسمح له بان يدرس في العمق فينوميتولوجيا الاديان الا من خلال مال يسم هو مثال الديانة الموسوية .

«الترجم»

هي في جوهرها عبادات أسلاف ، ومن هنا فانها تتوقف عند مرحلة مبكرة من اعادة بناء الماضي . واذا صح اننا لا نجد لدى البدائيين المعاصرين لنا من مضمون لديانتهم سوى عبادة كائن أسمى ، فان علينا ان نرى في هذه الواقعة توقفا في التطور الديني ، كما يمكننا ان نقارن ونوازن بينها وبين تلك الامثلة التي لا تقع تحت حصر من الحالات العصابية غير النامية التي نصادفها في علم النفس المرضي . فلماذا لم يستمر التطور هنا كما هو الامر هناك؟ هذا ما لا نملك له تفسيراً . وفي اعتقادنا ان مسؤولية ذلك تقع على الملكات الفردية للشعوب المذكورة ، وبوجه عام على اتجاه نشاطها ووضعها الاجتماعي . ومهما يكن من امر ، فقد اتخذ التحليل النفسي لنفسه قاعدة اساسية ، وهي ان يسعى الى فهم ما هو موجود ، من دون ان يحاول تفسير ما لم يحدث . اننا نصطدم ، في انتقالنا هذا الى علم النفس الجمعي ، بمقبة ثانية اشق وادهى أمراً ، على اعتبار انه تترتب عليها مشكلة جديدة ، هي هذه المرة اساسية . هذه المشكلة هي مشكلة معرفة الشكل الذي يستمر من خلاله الماثور الناشط الفاعل في حياة الشعوب ، وهذه مسألة غير مطروحة على الفرد لان حلها كامن في وجود آثار ذاكزية من الماضي في لاشعوره . لنعد الى مثالنا التاريخي . لقد قلنا ان تسوية قادش قامت على اساس استمرار وجود ماثور ناشط فعال لدى اولئك الذين رجسوا من مصر . وليس ثمة من مشكلة هنا . ففي رأينا ان مثل ذلك الماثور كان يركز الى التذكر الواعي للحكايات الشفهية التي كان اهل العصر يتناقلونها عن اجدادهم والتي كان تاريخ أحداثها يعود الى جيلين او ثلاثة اجيال سابقة لا اكثر . فقد كان اولئك الاجداد او اجداد الاجداد قد شاركوا في الاحداث المشار اليها او شهدوها بأم أعينهم . ولكن هل ينبغي ان نعزم فنزعم ان الماثور ظل يقوم ، بالنسبة الى الاجيال اللاحقة ، على معرفة يجري تناقلها بالنحو

المتاد من الجد الى الحفيد ؟ اتنا لن نستطيع ان نحدد في هذه الحال ، كما في الحال السابقة ، من هم اولئك الناس الذين حافظوا على تلك المعرفة ونقلوها شفهيًا . ويرى سيلن ان المأثور عن مقتل موسى لبث حكرًا للكهنة الى ان وجد تعبيره المكتوب الذي مكن سيلن نفسه من الاهتداء الى المأثور . ومع ذلك ، لم يدع امره بين الشعب وبقي وقفا على بعض الافراد القلائل لا غير . فهل يكفي هذا الشكل من التناقل لتفسير المفعول الناتج ؟ وهل من المباح لنا ان ننسب الى مأثور لا تدري به الا قلة قليلة من الاشخاص القدرة على التأثير النافذ والقوي في الجماهير بمجرد ان تطلع هذه الاخيرة عليه ؟ الحق ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد ، بالاحرى ، بان هذا الجمهور الجاهل كانت تتوفر له دراية مبهمة غامضة بما كان يعرفه علود ضئيل من العارفين والمطلعين على الاسرار ، وبانه انتهب اول سائحة ليستحوذ على ذلك المأثور ويجعل منه مأثوره .

والاعوص من ذلك ايضا ان نخلص الى نتيجة محددة عند النظر في حالات مماثلة تعود الى العصور البدائية . فمع مر الالف السنين نسي الناس قطعًا وحتما انه وجد في يوم من الايام اب بدائي امتاز بكل الطبائع والسمات التي تكلمنا عنها ، وما عادت ذاكرتهم تعي ما قبض له من مصير .. وفي هذه الحال لا يعود في مستطاعنا ، بخلاف الامر مع موسى ، ان نقبّل بفرضية مأثور شفهي . كيف ينبغي اذن ان نتصور ذلك المأثور ، وما الشكل الذي امكن له ان يستمر من خلاله ؟

حتى ايسر على القراء غير المهينين او غير المطلعين دراسة مسألة سيكولوجية على مثل هذه الدرجة من التعقيد ، سأقدم لهم دونما ابطاء نتيجة تقصيائي ومباحثي . واني لارى ان النوافق بين الفرد والجمهور شبه تام بصدد هذه النقطة : فالجماهير تحتفظ ، مثلها مثل الفرد ، بانطباعات الماضي في شكل بقايا وآثار ذاكرية لا شعورية .

تبدو حالة الفرد على درجة كافية من الوضوح . فالانسر  
الداكري المتبقي من الاحداث المبكرة يظل قائما ، ولكن ضمن  
نطاق شروط سيكولوجية خاصة . وفي المستطاع القول ان الفرد  
يعرف هذا الماضي على النحو الذي يعرف به المكبوت . ولقد كوتا  
بعض الآراء - التي يؤيدها التحليل النفسي بيسر وسهولة - حول  
الطريقة التي يمكن بها لشيء طوته يد النسيان ان يعاود ظهوره  
ثانية بعد حقبة من الزمن . فالمادة لم تبد وتضمحل ، وانما  
«كبتت» فقط ، فحافظت آثارها الذاكرة على نضارتها الاولى  
كاملة وان لبثت معزولة بحكم التركيزات النفسية المضادة . وتظل  
هذه الآثار ، التي لا تمت بصلة الى السيرورات الذهنية الاخرى ،  
لا شعورية ، بعيدة عن متناول الوعي ، عصية عليه . وقد يحدث  
احيانا ايضا ان تفلت بعض اجزاء المكبوت من السيطرة ، فتظل  
في متناول الذاكرة وتنبجس من حين الى آخر في الواعية  
والشعور ، ولكنها تبقى حتى في هذه الحال معزولة كأجسام  
غريبة لا صلة لها بالباقي . وهذه ظاهرة تحدث من حين الى  
آخر وان لم تكن محتومة ، وبالمقابل ، فان الكبت قد يكون كليا  
شاملا ، وهذه الحالة هي التي سندرسها الان .

يحافظ المكبوت على قوته الاندفاعية في الوقت الذي ينزع  
فيه الى التغلغل الى منطقة الوعي والشعور . ولا بد ان تتوفر  
شروط ثلاثة كي يمكن للمكبوت ان يدرك غايته : ١ - ان تضعف  
قوة التركيز النفسي المضاد اما بسبب تطورات مرضية تصيب  
الانا بالدات ، واما بسبب شكل آخر من اشكال اعادة توزيع  
طاقات التركيز النفسي داخل هذا الانا ، وهذا ما يحدث دوما  
اثناء الرقاد . ٢ - ان يتاح للعناصر الفريزية الجنسية المرتبطة  
بالمكبوت توطد وتعزز خاص ، وتقدم ظاهرات البلوغ خير مثال  
على هذه الظاهرة . ٣ - قد تتمكن احبانا بعض الاحداث القريبة  
العهد من إحداث انطباعات وتسبب عوارض شبيهة عظيم الشبه

بالمادة المكبوتة الى درجة تفلح معها في ايقاظ هذا المكبوت . وفي هذه الحالة الاخيرة ، تتعزز المادة الحديثة العهد بكل طاقة المكبوت الكامنة ، ويؤثر هذا المكبوت على خلفية الانطباع الحديث وبمساعده .

لا يبلغ المكبوت، في اي حالة من هذه الحالات الثلاث، مراده من دون ان يطرا عليه تغيير ما ومن دون ان يتعرثر ببعض العقبات في الوعي والشعور . فهو يتعرض في كل مرة لتشويهاات تبرز للعيان اما التأثير الذي تمارسه المقاومة التي لم يتم التغلب عليها بصورة كاملة ، واما المفعول المعدل الناجم عن الحدث القريب العهد ، واما اخيرا الاثنين معا .

قد تكون السيرة النفسية شعورية وامية وقد تكون لاشعورية لاواعية ، وهذا التمييز هو الذي يتيح لنا ان نهتدي الى طريقنا ونتقدم في الاتجاه الصحيح . وبالمقابل فان المكبوت هو على الدوام لا شعوري ولا واع . وكما كانت الامور ستبدو بسيطة لو كانت القضية قابلة لان تعكس ، ولو كان الفارق في الصفات بين «الوعي» و«اللاوعي» يتطابق مع هذا التمييز: الانتماء الى الانا والانتماء الى المكبوت . ومجرد معرفتنا بأن حياتنا النفسية تنطوي على مثل تلك المادة المعزولة واللاشعورية امر له بحد ذاته قدره الكافي من الاهمية . ولكن الامور ، في الواقع ، اشد تعقيدا . فلئن يكن كل مكبوت لا شعوريا ، فليس كل ما ينتمي الى الانا شعوريا على الدوام . ولنتنبه الى ان ما هو شعوري ليس الا صفة عابرة عارضة تتسم بها لحين من الزمن ظاهرة ما من الظواهر النفسية . ولهذا يخيل اليانا ان من الانسب ان نستبدل كلمة «شعوري» بالجملة التالية : «قابل لان يصبح شعوريا» . وسوف نقول بعد ذلك ، وبمزيد من الدقة ، ان الانا ما قبل شعوري (او شعوري بالقوة) في الجوهر والاساس، وان بعض عناصر من الانا هي وحدها لا شعورية .

يبين لنا عرضنا الأخير هذا ان الصفات التي اتاحت لنا حتى الان ان نهتدي الى طريقنا ووجهتنا الصحيحة في دياميس الحياة النفسية ليست بكافية . وعليه ، لا بد لنا من تمييز آخر ، ليس بلدي طابع نوعي هذه المرة ، وانما ذو طابع طوبوغرافي ، وفسي الوقت نفسه ذو صلة بعلم الوراثة ، وهذا بالضبط ما يسبغ عليه قيمة خاصة . اننا لنميز في حياتنا النفسية التي تتألف ، فسي رأينا ، من مراتب متسلسلة ، من نواح واقضية ومحافظات ، اقول : اقول اننا لنميز فيها منطقة هي ، في تقديرنا «الانسا الحقيقي» ، ومنطقة اخرى نطلق عليها اسم الـ«هذا» . والـ«هذا» أقدم من الانا الذي انفصل عنه تحت تأثير العالم الخارجي مثلما تنفصل اللحاء عن الشجر . وانما في الـ«هذا» تضطرب وتضطرب غرائزنا الجنسية البدائية ، ويبقى كل ما يدور فيه من تطورات وسيرورات لا شعوريا . اما الانا فيبقى ، كما قلنا ، سيدان ما قبل الشعور . وهو يحتوي عناصر تظل عادة لا شعورية . وتخضع الظاهرات النفسية في الـ«هذا» لقوانين خاصة ، مغايرة لتلك التي تسوسها وتتحكم بها وتنظم عملها المشترك والتبادل في الانا . واكتشاف هذه الفروق هو الذي قادنا الى تصوراتنا الجديدة وهو الذي يثبت صحة هذه الاخيرة .

ينتمي المكبوت الى ميدان الـ«هذا» ، ويخضع لإوالبته . وهو لا يتميز عنه الا بتكوينه . ويحدث هذا التمايز في زمن مبكر ، لحظة يفصل الانا عن الـ«هذا» . ويستحوذ الانا بعد ذلك على قسم من مضامين الـ«هذا» فينتقل هذا القسم الى حالة ما قبل الشعور ، بينما لا يتعرض القسم الآخر لمثل هذا التحويل فيلبث مقيما في الـ«هذا» ليشكل فيه اللاشعور الحقيقي . على ان بعض السيرورات وبعض الانطباعات التي تطرأ على الانا في مجرى تطوره اللاحق تجد نفسها ، بفعل إواليات الدفاع ، وقد حيل بينها وبين الولوج الى هذا الانا . وبذلك تقعد هذه السيرورات والانطباعات صفة ما قبل الشعور لتنحط ،

بالتالي ، الى حالة العناصر التي يتألف منها ال «هذا» . وهذا على وجه التحديد ما يؤلف «المكبوت» في ال «هذا» . وعليه ، فإنا نسلم ، فيما يتعلق بالعلاقات بين كلتا المنطقتين النمسييتين، بأن السيرة اللاشعورية في ال «هذا» يمكن ان ترتفع الى المستوى ما قبل الشعوري وأن تندمج بالاننا . هذا من جهة ، كما نسلم من الجهة الثانية بأن المادة ما قبل الشعورية قد تسير في الطريق المعاكس فتعود ادراجها الى ال «هذا» . ولئن انضافت فيما بعد منطقة اخرى ، هي «الاننا الاعلى» ، الى المناطق الاخرى ، فهذه مسألة لا نغيرها اهتماما في الوقت الحاضر .

قد يبدو هذا كله بالغ التعقيد ، ولكن يكفي ان نتألف مع هذه الطريقة غير العادة في النظر الى الجهاز النفسي من منظور مكاني وأن نعود عليها ، حتى يتجرد تصورنا للامور من كسل إشكال . اضع الى ذلك أن الطوبوغرافيا النفسية على النحو الذي وصفناها به لا ضلع لها بتشريح الدماغ ، ولا تمسه الا من بعيد وفي نقطة واحدة محددة . ومن المؤكد انني احس بجلاء ، مثلي مثل اي امرىء آخر ، بمقدار ما تنطوي عليه هذه الطريقة في النظر الى الامور من نقاط ضعف ونقص بحكم جهلنا المطبق بالطبيعة الدينامية للسيرورات النفسية . وانه ليساورنا الاعتقاد بأن ما يميز تمثلاً (٢٠) شعوريا عن تمثّل ما قبل شعوري يرجع بالتأكيد الى محض تعديل في الطاقة النفسية ، وربما ايضا الى محض اعادة توزيع مختلف لها . واننا لنتكلم عن تركيزات نفسية وتركيزات نفسية مضادة ، ومعرفتنا لا تتجاوز هذا الحد ، بل اننا لعاجزون حتى عن انشاء فرضية عمل مفيدة او ذات جدوى . على انه من المباح لنا على الاقل ، فيما يتعلق بظاهرة الوعي او الشعور ، ان نقول انها ترجع في الاصل الى الادراك الحسي .

---

٣. - التمثل : Representation .

فجميع الإدراكات الحسية المتأينة من الأثرات مؤلمة ، لمسبة او سمعية او بصرية ، مؤلمة اكثر من اي ادراكات اخرى لان تصبغ شعورية واعية . وبالمقابل فان السرورات التفكيرية او ما يماثلها في ال «هذا» هي لاشعورية ، لاواعية في حد ذاتها ، ولا تلج الى منطقة الوعي الا بفضل ارتباطها برواسب ذاكرية من ادراكات بصرية او سمعية ، وذلك عن طريق اللغة . ولا بد ان هذه العلاقات اكثر بساطة لدى الحيوان الذي تعوزه اللغة .

اما الانطباعات الناجمة عن الرضات المبكرة ، التي كانت دراستها نقطة انطلاقنا ، فاما ان تلج عتبة ما قبل الشعور ، واما ان ترتد بسرعة الى حالة ال «هذا» بسبب الكبت . وفي هذه الحال تبقى آثارها الذاكرية لاشعورية ، وتفعل فعلها انطلاقا من ال «هذا» . وفي تقديرنا اننا نستطيع متابعة مصيرها المقبل ما دام الامر بالنسبة اليها امر تجاربيها الذاتية . ولكن الاشياء تتعقد حين نتبين ان الاحداث المعاشة ليست هي وحدها التي تفعل فعلها في حياة الفرد النفسية ، وانما ايضا ما يحمله معه منذ ولادته من عناصر نسالية (٢١) وميراث قديم . فمم يتألف في هذه الحال هذا الاخير ؟ وعلام ينطوي ؟ وما البراهين على وجوده ؟

ان الجواب الفوري والاقرب الى الصحة هو ان هذه الوراثة تتمثل في بعض الاستعدادات والميول من نظير تلك التي يتمتع بها كل كائن حي ، كما تتمثل في القابلية او في النزوع الى تبني نمط معين من التطور والى الرد بطريقة خاصة على بعض الانفعالات او الانطباعات او الاثرات . ولما كانت التجربة تفيدنا بأن الافراد يتفاوتون ويختلفون من وجهة النظر هذه ، فان

---

٢١ - نسبة الى النسالة اي علم تكوين الاتصال وتطورها . «الترجم»



وراثتنا القديمة تتضمن وتحتوي هذه الفروق التي تمثل ما يسمى لدى الفرد بالعامل التكويني . والحال ان الافراد قاطبة يتعرضون ، ولاسيما في طفولتهم ، الى الاحداث نفسها تقريبا ، ولكن ردود أفعالهم عليها ليست واحدة ، ومن هنا كان تساؤلنا عما اذا لم يكن يخلق بنا ان نمزو هذه الفروق الفردية وردود الافعال الى الوراثة القديمة . ان هذا الشك يجب ان يستبعد وينحى جانبا . فواقعة المشابهة لا تفني معرفتنا بالوراثة القديمة . بيد ان الابحاث التحليلية تمخضت عن بعض نتائج تستوجب التفكير والتمعن بها . ونخص بالذكر بادىء ذي بدء عمومية رمزية اللغة . فالاستبدال الرمزي لشيء بآخر (وهذا ينطبق ايضا على الافعال) يستخدمه اطفالنا ويلجؤون اليه على الدوام ، ويبدو لهم طبيعيا تماما . فكيف تعلموا ان يستخدموه ؟ هذا ما يستحيل علينا تبينه ، ونحن نجد انفسنا مكرهين ، في العديد من الحالات ، على التسليم بان هذا التعلم لم تتح له الفرصة لكي يتم . والمسألة في الواقع مسألة معرفة مبدئية ينسأها الراشد فيما بعد . صحيح انه يستخدم في أحلامه الرموز ذاتها، ولكن من دون ان يفهمها ما دام المحلل لم يؤولها ويفسرها له . وحتى في هذه الحال يشق على المريض النفسي القبول بالتأويل والتفسير . فاذا ما استخدم عبارة من تلك العبارات الشائعة التي تبلورت فيها رمزية ما ، توجب عليه ان يسلم بان المعنى الحقيقي لهذه الجملة قد غاب عنه كل الغياب حتى ذلك الاوان . وتجهل الرمزية ، اصلا ، تنوع اللغات . وسوف تكشف الابحاث في أرجح الظن انها موجودة في كل مكان ، وأنها متماثلة لدى الشعوب قاطبة . وهذه ، على ما يبدو ، حالة جليلة من حالات الوراثة القديمة التي يعود تاريخها الى الازمنة التي لم تكن فيها اللغة بعد الا في بداياتها . ولكن ثمة تفسير آخر ممكن ايضا : اذ في مقدورنا القول بان المسألة مسألة تداعيات افكار بين تصورات

تكونت عبر تطور اللغة التاريخي وتكرر في الفرد في كل مرة يمر فيها بمراحل هذا التطور . وعلى هذا الأساس تكون المسألة مسألة وراثة استعداد تفكيري (٢٢) مماثلة لوراثة استعداد غريزي . وهذا بدوره لا يساعدنا على إيجاد حل لمشكلتنا .

بيد ان الأبحاث التحليلية قد سلطت الضوء على معطيات أخرى ذات أهمية أعظم بكثير من أهمية المعطيات السابقة . فغالبا ما ننفاجا ، عند دراستنا ردود الأفعال على الرضات المبكرة ، اذ نلاحظ ان ردود الأفعال هذه لا ترتبط على نحو حصري بأحداث معاشة ، وانما تحيد عنها على نحو يناسب بالآخرى نموذج حادث نسالي . وعليه ، انها غير قابلة للتفسير الا بتأثير هذا النوع من الأحداث . ان سلوك طفل معصوب تجاه والديه ، يعاني من تأثير عقدي أوديب والخصي ، ينطوي على عدد وفير من ردود أفعال مشابهة تبدو بعيدة عن العقلية فيما لو درست لدى الفرد ولا تفدو قابلة للفهم الا اذا نظر اليها من زاوية علم النسالة ، من خلال اعادة ربطها بتجارب الأجيال السابقة . ولعلنا نجني فائدة عظيمة لو جمعنا ونشرنا الوقائع التي المعت اليها هنا . وتبدو هذه الوقائع مقنعة بما فيه الكفاية لتبيح لي المضي قدما الى امام ، فأزعم ان وراثة الانسان القديمة لا تشتمل على محض استعدادات وقابليات فحسب، بل ايضا على مضامين تفكيرية (٢٣) وبقايا ذاكرية خلفتها تجارب الأجيال السابقة . وعلى هذا النحو تكون أهمية الوراثة القديمة ودلالاتها على حد سواء قد تعاضمتا تعاضما مرموقا .

ولنقر ، بعد طول تمنع وترو ، بلئنا ندير المناقشة منسد البداية وكان مسألة وجود رواسب ذاكرية من تجارب أسلافنا

---

٢٢ - تفكيري : cogitative (٢)

٢٣ - تفكيرية : Idéatif : الصفة من تكون الابتكار وتولمها . (الترجم)

ليست مطروحة بصورة مستقلة كل الاستقلال عن الاتصال المباشر او عن نتائج التربية ومفاعيلها على سبيل المثال . ونحن عندما نتكلم عن استمرار وجود ماثور قديم لدى شعب من الشعوب وعن تكوين طابع قومي لهذا الشعب ، يتجه بنا الفكر الى ماثور وراثي لا الى ماثور متناقل شفهيًا . ومع ذلك ، فاننا لا نميز بين هذين الماثورين . وبذلك لا ندرك ما ينطوي عليه هذا الاهمال من جراءة . اضعف الى ذلك ان وضع الاشياء هذا يستفحل ويتفاقم من منظور البيولوجيا التي تنفي نفيًا باتا في الوقت الحاضر وراثية الصفات المكتسبة . ولنقر ، بكل تواضع ، بأنه يبدو لنا من المستحيل ، بالرغم من ذلك ، ان نستغني عن هذا العامل حينما نسعى الى تفسير التطور البيولوجي . صحيح انه ليس بين الحاليتين تطابق مطلق ، اذ ان المسألة في الحالة الاولى مسألة صفات مكتسبة يصعب ادراكها وتصورها ، بينما هي في الحالة الثانية مسألة بقايا وآثار ذاكرية من انطباعات خارجية ، اي مسألة شيء يكاد يكون عينيا ملموسا . ولكن يستحيل علينا ، في الحقيقة ، ان نتخيل احدهما من دون ان نتخيل الاخرى . فاذا ما سلمنا بأن مثل تلك البقايا والآثار الذاكرية تستمر وتديم في وراثتنا القديمة ، تكون قد عبرنا الهوة التي تفصل علم النفس الفردي عن علم النفس الجمعي ، وبات في امكاننا ان نعالج الشعوب على نفس النحو الذي نعالج به الافراد المعصوبين . ولئن سلمنا بأن الدليل الوحيد الذي نملكه على وجود تلك البقايا والآثار الذاكرية في وراثتنا القديمة يتمثل في الامراض والمظاهر التي نلتقطها ونجمعها اثناء جلسات التحليل ، فان هذا الدليل يبدو لنا مع ذلك مقنعا بما فيه الكفاية ليبيح لنا افتراض ما افترضناه . واذا لم يكن هذا يقينا ، فلنمتنع من الان عن التقدم خطوة واحدة الى الامام في الطريق الذي نسلكه ، سواء أفي ميدان التحليل النفسي ام في ميدان علم النفس الجمعي . ان الجراءة هنا لا غنى عنها .

ان مسلمتنا هذه تتوغل بنا الى ابعد من ذلك ايضا : فلو  
اخذنا بها لضيقنا من اتساع الهوة التي حفرتها الكبرياء الانسانية  
بين البشر والحيوان . فما يطلق عليه اسم غريزة الحيوانات ،  
هذه الغريزة التي تمكنها من التصرف في الواقع المستجد كما لو  
انه مالوف لديها ، يصبح قابلا للتفسير ، وعلى النحو التالي :  
فالحيوانات تستفيد في وجودها الجديد من التجربة التسي  
اكتسبها جنسها ، اي انها نحتفظ في اعماقها بذكرى ما عاشه  
اسلافها . ولا مرية في ان الامور تجري المجرى نفسه لدى  
الحيوان البشري . فوراثة القديمة تتطابق مع فرائز الحيوانات،  
وان اختلفت عنها في اتساعها وطابعها .

وبناء على ما تقدم ، لا اتردد البتة في التوكيد بان البشر  
عرفوا على الدوام انه كان لهم في يوم من الايام اب بدائي وانهم  
قتلوه غيلة .

ثمة سؤالان آخران يطرحان نفسيهما ايضا : في اية شروط  
تسرب مثل هذه الذاكرة الى الميراث القديم ؟ وفي اية ظروف  
تصبح هذه الذاكرة فعالة وتنتقل في شكل شائه محرف ، هذا  
صحيح ، من الحالة اللاشعورية الى الحالة الشعورية ؟ الجواب  
الاول ميسور : فالذاكرة تسرب الى الوراثة القديمة لتصبح  
جزءا منها حين يكون الحدث على قدر من الاهمية ، او حين  
يتكرر بكثرة وتواتر ، او حين يكون على قدر من الاهمية ومتكررا  
متواترا في آن واحد . وفي حال مقتل الاب غيلة يكون الشرطان  
متوفرين . اما فيما يتعلق بالسؤال الثاني ، فلنلاحظ ان العديد  
من المؤثرات قد يكون لها دورها ولكنها ليست كلها معروفة  
بالضرورة . وكما هي الحال في بعض ضروب العصاب ، فان  
التطور العفوي التلقائي ممكن هو الآخر . بيد ان كل تكرار للحدث  
فعلي وقريب عهد ينطوي على اهمية حاسمة لانه يحيي من جديد  
بقاياه وآثاره الذاكرة المنسية . ولقد كان مقتل موسى على وجه

التحديد تكرارا من هذا القبيل ، مثله في ذلك مثل مقتل المسيح فيما بعد عقب اجراءات قضائية مزعومة ، بحيث ان هذه الابحاث احتلت مكانة الصدارة بوصفها عللا اولى . ويبدو ان نشأة التوحيد كانت ستكون مستحيلة لولاها ، وكم يخلق بنا ان تذكر هنا كلمات الشاعر : «ان ما كتب له ان يحيا الى ابد الأبدين في الاغاني والانشيد لا بد ان يفوض اولا في الوجود والواقع» (٢٤) .

ختاما ، سأضيف ملاحظة تتفرع عنها حجة سيكولوجية . فالماثور الذي يستند الى محض تناقل شفهي، لا يمكن ان يكون له ذلك الطابع اللجوج التسلطي المميز للظواهر الدينية . بل هو قد يلقي اذنا صافية ، فينقيّم ويحكم ، وقد ينبذ وي طرح جانبا ، مثله مثل اي آت من الخارج . ولن يكتب له ابدا في هذه الحال امتياز الافلات من مقتضيات نمط التفكير المنطقي . اما لكي يمتلك القدرة ، لدن عودته ، على إحداث مثل تلك التأثيرات القوية ، وعلى ارقام الجماهير على الرضوخ لنير الدين ، كما لاحظنا ذلك على دهشة كبيرة منا ومن دون ان نجد له تعليلا حتى الان ، فلا بد ان يكون قد عانى اولا من مصير الكبت وانتقل الى حالسة اللاشعور . وهذه الخواطر والتأملات ترجح كفة الميزان لصالح الفكرة التي تقول ان الاشياء هي فعلا كما حاولنا ان نصفها ، او على الاقل قريبة الى ذلك منتهى القرب .

## القسم الثاني

- ١ -

### خلاصة

اشعر انني ملزم ، قبل ان استأنف هذه الدراسة ، بان اقدم للجمهور اعتذارات وايضاحات في آن معا . وبالفعل ، ليست هذه التتمة سوى تكرار امين ، بل حرفي في كثير من الاحيان ، للقسم الاول . بيد انني اختصرت بعض الابحاث النقدية ، كما انني أضفت بعض المشكلات المتعلقة بتكوين طابع الشعب اليهودي . واني لعلى علم اكيد بان هذه الطريقة في تقديم موضوع من المواضيع غير ذات جدوى وغير ذات طابع فني في آن معا ، واني لمستهنج لها بلا تحفظ . فلم اذن لم اتفاد هذا الخطأ ؟ ان

جوابي جاهز مقدما ، وان كان يتطلب اقرارا شاقا وصعبا على النفس : فاننا لم اتوصل الى محور الآثار التي خلفتها الطريقة الغريبة فعلا التي تم بها تأليف هذا الكتاب .

لقد كتب ، في الواقع ، مرتين . المرة الاولى قبل بضعة سنوات في فيينا حيث ارتأيت ان من المستحيل نشره . وقد قررت يومئذ ان انحيه جانبا وأهمله ، ولكنه ما ونى يتسلط علي ويقض مضجعي كروح معذبة في النار . وهكذا اخترت حلا متوسطا ، فنشرته على دفعتين في مجلة «ايمانغو» . وكان ما نشرته يومئذ بمثابة نقطة انطلاق للمؤلف بكامله : «موسى ، مصري» ، ثم الدراسة التاريخية المبنية على هذا القسم الاول : «لذا كان موسى مصريا ١٠٠٠» . اما ما تبقى من المؤلف فكان يشتمل على أطروحات جارحة ، خطيرة ، هي في الحقيقة تأملات في نشأة التوحيد وذات صلة بتفسيري للدين ، وهذا ما حملني على ان أبقيه سرا في نفسي ، متصورا انه لن يقبض له ابدا ان ينشر . ثم وقع ، على حين بفتة في عام ١٩٢٨ ، الغزو الالمانى (١) الذي أرغمني على مغادرة وطني ، محررا اياي في الوقت نفسه من مخاوفني من ان يفرض الحظر على التحليل النفسي في بلد كان ما يزال يفض الطرف عنه ، فيما لو نشرت بحثي . وما كادت قدماي تحطان على البر الانكليزي حتى شعرت بالحاجة الملحة وبالرغبة التي لا تقاوم في ان اضع ما توصلت اليه في سري تحت متناول الانام ، وهكذا شرعت باعادة النظر في القسم الثالث الذي قصدت منه ان اكمل به القسمين الآخرين اللذين سبق نشرهما ، وهذا ما اقتضى مني بالطبع ان أعيد جزئيا تجميع مادتي . بيد انني لم اتوصل ، في صيافتي الثانية هذه ، الى عرض معطياتي وتصنيفها وتنظيمها كاملة ، كما انني لم أتمكن ،

من جهة اخرى ، من حزم امري على صرف النظر بصورة نهائية من القسمين الاولين اللذين نشرتهما . ولهذا تجدون قسما كاملا من صياغتي الاولى مرتبطا بالثانية ، وهذا ما ترتب عليه تكرار كثير .

صحيح انه كان في وسمي ، لتعزية نفسي ، ان اقول بيني وبين ذاتي ان جدة الموضوع واهميته ستعوضان ، مهما تكن طريقتي في تقديم الامور ، عما فرضته على قرائي من مكرور الكلام . وبالفعل ، هناك امور تستاهل التكرار ولا يمل المرء من اعادة القول فيها . بيد ان القارئ هو الفيصل اولا واخيرا فيما اذا كان يريد ان يقف اكثر من مرة عند موضوع واحد او ان يقلب النظر فيه مرارا وتكرارا ، ولا مربة في ان اكراهه على ان يعيد قراءة الشيء عينه في كتاب واحد هو تصرف لا يملك الكاتب الا ان يتحمل تبعته . ولكن والسفاه ! ان القوة المبدعة لكاتب من الكتاب لا تتطابق دوما وابدا مع ارادته الطيبة . وقد يرى الكتاب النور بالطريقة التي تحلو له ، وفي غالب الاحيان لا يجد فيه المؤلف نفسه سوى ابداع مستقل عنه ، بل غريب عنه السي حد ما .

- ٢ -

### شعب اسرائيل

لقد وجدنا انفسنا مكرهين ، في العمل الذي شرعنا به والتزمنا به ، على ان نقتبس من مادتنا من المآثورات ما بدا لنا مفيدا نافعا ، وعلى ان ننبد ونطرح جانبا ما ليس لنا فيه فائدة او نفع ، وعلى ان نجمع ونصنف ، بمقتضى الاحتمالات السيكولوجية ، شتى العناصر المختلفة التي لمنا شتاتها . ومن



حق كل امرئ ، ما دمنا نؤكد ان منهجنا لا يوصلنا حتما الى الحقيقة ، ان يتساءل عن السبب الذي حملنا على مباشرة هذا العمل . وللإجابة على هذا السؤال، سنأتي بذكر النتائج المحرزة . ولعلنا اذا قبلنا بتخفيف واسع النطاق للشروط والمتطلبات التي تفرض عادة على البحث التاريخي والسيكولوجي ، فربما توصلنا الى ايجاد حل لبعض المشكلات التي استرعت الانتباه . على مر الأزمان ، والتي نلفت اهتمام المراقب من جديد في هذه الآونة غب الاحداث الاخيرة (٢) . فنحن نعلم ان الشعب اليهودي ربما كان على الأرجح الشعب الوحيد ، دون سائر الشعوب القديمة التي عاشت في حوض البحر الابيض المتوسط ، الذي حافظ على اسمه ، وربما ايضا على طبيعته (٣) . ولقد قاوم بعناد منقطع النظير المصائب كافة والاضطهادات قاطبة ؛ وجر على نفسه ، بحكم ما أبداه من سمات طبيعية خصوصية ، البغضاء والكراهية من قبل سائر الشعوب قاطبة . فما سر مقاومة اليهود هذه ، وما العلاقات التي قد تكون قائمة بين خلقهم ومصيرهم ؟ هذه بالتأكيد معضلات مثيرة للاهتمام لا يمكن للمرء الا ان يتطلع الى الوصول الى فهمها .

لننعم النظر اولا في واحدة من سمات الطبع لدى اليهود

---

٢ - اشارة اخرى الى لاسامية النازية .  
٣ - اننا نلاحظ هنا وجود نوع من المصادرة على البرهان لدى فرويد .  
ولقد كنا نفهم ان يتكلم عن استمرار اليهود في التاريخ ، اما ان يتكلم عن استمرار «الشعب اليهودي» - بعد ان اكتسبت كلمة «شعب» كل معناها الحديث - فان لفي ذلك خلطا بين القومية والدين ، وهو الخلط الذي استغله دعاة الصهيونية وبنوا عليه نظريتهم؛ اولئك اللعنة الذين اتهموا فرويد - وهذا من سخرية الاقدار كما يقال - باللاسامية وبكراهية ابناء دينه . مثله في ذلك مثل كارل ماركس على حد زعمهم .  
«الترجم»

لها الغلبة على ما عداها في صلاتهم مع سائر الناس : فمن المؤكد ان رأيهم في انفسهم ايجابي منتهى الايجابية ، وانهم يعدون ذواتهم انبل واسمى وارفع من الآخرين الذين ما تزال تفصلهم عنهم بعض عاداتهم (٤) . وهم يحافظون ، في الوقت نفسه ، على نوع من الثقة بالحياة والطمانينة اليها ، شبيه بذلك النوع من الثقة التي يحس بها من يمتلك في السر موهبة او ملكة ثمينة . وبعبارة اخرى ، انهم يحافظون على نوع من التفاؤل . ولو كنا من اتقياء الناس لتكلمنا عن الثقة بالله .

اننا نعرف علة هذا المسلك ، ونعلم ما هو ذلك الكنز الخفي . فاليهود يؤمنون حقا بانهم شعب الله المختار ، ويحسبون انهم اقرب ما يكونون اليه ، وهذا ما يحضهم الثقة والكبرياء . ولقد كان مسلكتهم في العصر الهليني ، طبقا لما ورد في القصص التي هي اهل للتصديق ، لا يختلف عنه اليوم . ولقد كان الطبع او الخلق اليهودي منذ ذلك الحين على ما هو عليه الان ، وكان الاغريق الذين عاش اليهود بين ظهرائهم والى جانبهم ، ينظرون الى خصائصهم النظرة نفسها التي ينظر بها اليها مضيفوهم الحاليون (٥) . وفي وسعنا ان نقول ان ردود الافعال التي كانت

---

٤ - في قديم العهود كان اليهود غالبا ما يستمون ويهانون بوصفهم بانهم مجلومون . وينبغي ان نرى في هذه الشتيمة نوعا من الاسقاط : «انهم يتحاشوننا وكاننا من المجلومين» .

٥ - مرة اخرى يقع فرويد في المثالية في تفسيره للتاريخ . وبالفعل ، ما دام قد افترض ان طباع اليهود ثابتة خالدة لا تحول ولا تتبدل على مر التاريخ ، فمن الطبيعي والمنطقي ان يتصور ان اللاسامية بدورها قد وجدت على الدوام ومنذ ان كان اليهود . وبعبارة اخرى ، ما دام فرويد قد اسقط صفة التاريخية عن «الطبع» اليهودي فقد كان من المحتم ان يسقطها ايضا عن اللاسامية .  
«المرجم»

تصدر عنهم تجاههم كانت تدل على انهم يؤمنون ، هم ايضا ،  
بالامتياز الذي يدعيه شعب اسرائيل لنفسه . ولا يجوز اصلا  
للابن الاثر الذي يجاهر والده المهاب الجانب بإيثاره له وتفضيله  
اياه ان تأخذه الدهشة من غيرة اخوته وأخواته وحسداهم .  
والخرافة اليهودية عن يوسف الذي بامه اخوته تكشف النقاب  
منذ ذلك العهد عن النتائج المحتملة لمثل هذه الفيرة او مثل هذا  
الحسد . ناهيك عن ان الاحداث اللاحقة بدت وكأنها تبرر  
المزاعم اليهودية ، ما دام اختيار الرب قد وقع من جديد على  
الشعب اليهودي حين عقد العزم على ان يرسل للبشر من صلب  
ذلك الشعب مخلصا ، مسيحا طال انتظاره . ولقد كان من حق  
الشعوب الاخرى عصرئذ ان تقول بينها وبين نفسها : «ان اليهود  
لعلى حق . فهم فعلا المصطفون من الله» . ولكن «الفداء» (٦)  
أحدث ، على العكس من ذلك ، لدى جميع الشعوب ردة وانتعاشا  
للكراهية والحقد على اليهود ، وما فاز هؤلاء الاخرون باي مكسب  
من الاصطفاء الإلهي لانهم لم يعترفوا ب «الفادي» .

استنادا الى ما تقدم ، يسعنا ان نؤكد ان موسى أصبح على  
الشعب اليهودي الطابع الذي ميزه ، الى الابد ، عن الشعوب  
الاخرى . فقد وهبه ثقة متعاطمة في ذاته اذ أكد له انه الشعب  
المختار ، وأعلن انه مبارك ، والزمه بتحاشي الشعوب الاخرى  
ومجانبتها . ونحن لا نرمي من وراء ذلك الى القول ان الشعوب  
الاخرى كانت تعوزها الثقة بذاتها ؛ كلا ، فقد كانت كل أمة  
مفعمة ، كحالها اليوم ، بالشعور بتفوقها . بيد ان ثقة اليهود  
بانفسهم وجدت ، بفضل موسى ، رقدا وتميزا دينيا ، فغدت

---

٦ - اي اهداء المسيح للبشر وخلصهم على يده كما ترى المسيحية .  
«الترجم»

عنصرا من عناصر عقيدتهم . وبحكم ارتباطهم الوثيق بالههم ، قاسموه عظمته . والحال اننا نعلم انه تستتر ، وراء الإله الذي اصطفى اليهود وانقدهم من مصر ، شخصية موسى الذي فعل الشيء ذاته زاعما انه انما فعله باسم الرب . ولهذا كان من حقنا ان نفترض ان رجلا بعينه ، موسى ، هو الذي خلق اليهود . فهذا الشعب لا يدين له باصراره على الاستمرار في الحياة فحسب ، بل يدين له ايضا بقسم كبير من الضغينة التي أوجع نارها وما يزال يؤججها الى اليوم في نفوس الآخرين .

- ٣ -

### الرجل العظيم

كيف يمكن لنا ان نتصور ان رجلا فردا استطاع ان ينجز تلك المهمة الخارقة حين جعل من جملة من الاسر والافراد المتباينين شعبا واحدا ، وحدد لآلوف السنين قدر هذا الشعب ومصيره ؟ اليست هذه الفرضية بمثابة تراجع وتفهم نحو نظرة اتاحت امكانية خلق الابطال وعبادتهم ؟ اليست بمثابة عودة الى الازمنة التي لم يكن فيها التاريخ سوى سرد لحياة بعض الاشخاص ومفاخرهم ؟ اننا نجنح حاليا الى ارجاع الوقائع التاريخية الانسانية الى علل اكثر استتارا ، واكثر عمومية ، واكثر موضوعية ، فنعزوها الى التأثير الحاسم للعوامل الاقتصادية ، والى شتى انماط التغذية ، والى تقدم استخدام الآلات والاجهزة ، والى الهجرات الناجمة عن نمو السكان ، والى تنوع المناخ . اما الفرد فما عدنا نرى فيه سوى ممثل للصبوات والطامع الجماعية التي لا مندوحة من ان تعبر عن نفسها في كل انسان بلا تعيين . بيد ان وجهات النظر هذه التي لها ما يبررها كامل التبرير ،

تذكرنا مع ذلك بوجود تنافر كبير بين طبيعة جهازنا التفكيرى وبين نظام الكون الذى يسمى فكرنا الى فهمه واستيعابه . والحقيقة انه يكفى حاجتنا الماسة الى السببية ان تجد لكل ظاهرة علة او سببا اوحد قابلا لان يقام عليه البرهان ، وهذا من نادر الاحوال فى الواقع الخارجى . بل على النقيض من ذلك ، اذ يبدو ان كل حدث يتحدد بعوامل متضافرة عدة ويتولد عن عدة اسباب وعلل متحدة الاتجاه . وإزاء ما ينتابنا من ذعر امام تعقيد الوقائع البالغ وتشابكها الشديد ، ترانا ننحاز فى أبحاثنا الى جانب سلسلة من الاحداث ضد سلسلة اخرى ، فنقيم تعارضات وتناقضات لا وجود لها ولم تبتدع الا عن طريق حذف علاقات أوسع وأرحب (٧) .

وعليه ، اذا ما وجدنا ، عند دراستنا لحالة من الحالات الخاصة ، الدليل على الدور الحاسم الذى تلعبه شخصية كبيرة ، فلا داعى لان ينحى علينا وجداننا باللائمة لاستهانتنا على هذا النحو بأهمية مذهب العوامل العامة والاشخصية . وثمة مجال - وهذه حقيقة مؤكدة ثابتة - لاعتماد هاتين الطريقتين فسى الرؤية . اما فيما يتعلق بنشأة التوحيد فلا مجال - هذا صحيح - لان نكتشف عاملا خارجيا آخر غير العامل الذى سبق لنا ان اتينا بذكره ، وهو ان هذا التطور مرتبط بالصلات الوثيقة المعقودة بين أمم شتى ، ومرتبطة كذلك بوجود امبراطورية كبرى .

---

٧ - لنحذر من ايقاع بعضهم فى وهم الاعتقاد بأن العالم معقد الى درجة من الشدة يسي معها كل تفسير منطويا بالضرورة على ذرة من الحقيقة . كلا ، لقد حافظ ذهننا على حرية اختراع صلات وعلاقات ليس لها من معادل الية فى الواقع ، وهو يعلق بالطبع أهمية كبرى على هذه الملكة ، فيجعل منها ، فى ميدان العلوم كما فى سائر الميادين ، اداة بالغة النفع .

لهذا نحفظ لـ «الرجل العظيم» مكانه في سلسلة العسل  
المحدّدة ، او بالاحرى في شبكتها . ولكن ربما تساءلنا عن  
الشروط التي يتم فيها منح هذا اللقب الفخري . ولا مناص من  
ان تأخذنا الدهشة حين نلاحظ انه ليس من اليسير الاجابة على  
هذا السؤال . هل سنقول اننا ننتع بالعظمة الرجل الذي تقدر  
رفيع التقدير خصاله وسجاياه ؟ ان ذلك لن يكون صحيحا من  
وجهات نظر شتى . فالجمال على سبيل المثال ، وكذلك القوة  
العضلية ، مهما كانا مرغوبا فيهما ، لا يقلدان صاحبهما البتة  
الحق في ان يعده الناس «رجلا عظيما» . قد يكون المقصود اذن،  
في ارجح الظن ، الصفات والسجايا الفكرية ، والمزايا النفسية  
او الثقافية . ولكن لنلاحظ مع ذلك ان الرجل الذي يتمتع بمهارة  
خارقة للمألوف ليس بالضرورة ، وبحكم ذلك ، رجلا عظيما .  
ومثل هذا اللقب لن ينعم به لا على استاذ في لعبة الشطرنج ولا  
على عازف بارع ، كما انه ليس هناك ما يستوجب ان يطلق على  
فنان مرموق او عالم بارز . بل نحن نكتفي في مثل هذه الحال  
بالقول بان الشخص المشار اليه شاعر كبير ، او رسام كبير ، او  
عالم رياضيات كبير ، او عالم فيزياء كبير ، له فضل الريادة في  
هذا المضمار او ذلك ، بيد اننا نتردد في وصفه بأنه رجل عظيم .  
وحيث نصح ، على سبيل المثال ، بأن غوته او ليوناردو دافنتشي  
او بتهوفن هم من عظماء الرجال ، فان ما يحفزنا على مثل هذا  
التصريح يتخطى حدود الاعجاب المحض بآياتهم وروائعهم . ولولا  
توفر هذه الامثلة ، لكننا جنحنا الى الاعتقاد بأن لقب «الرجل  
العظيم» وقف ، في المقام الاول ، على الرجال العمليين الذين  
تميزوا بنشاط جيم : الفاتحين ، والقواد ، والزعماء ، وذلك  
بحكم عظمة افعائهم وقوة تأثيرهم . لكن هذا بدوره لا يبدو لنا  
مقننا بما فيه الكفاية ، وقد تنقضه اللعنات والادانات الصادرة  
بحق العديد من الشخصيات السافلة الساقطة التي لا مجال  
للممارة مع ذلك في تأثيرها على المعاصرين لها ثم على الاجيال

التالية . كذلك فان النجاح لا يصلح بدوره لان يكون معيارا ومقياسا ، لاننا نذكر - ولا بد - ان العديد من عظام الرجال لم تتوج هاماتهم بأكاليل الظفر بل قضاو نحبهم في الضنك والبؤس . هكذا نجد انفسنا منقادين الى الافتراض بأنه لا جدوى ولا نفع من تحديد دقيق لمفهوم «الرجل العظيم» . ولنكتف بآن نرى في هذا التعبير وصفا مطاا واعتباطيا بعض الشيء لتفتح منقطع النظر لبعض الخصال والسجايا الانسانية لدى بعض الافراد . وبهذا الفهم تكون قد اقتربنا من المعنى البدائي لكلمة «عظمة» . ولناخذ بعين الاعتبار ايضا ان ما يحظى باهتمامنا ليس الرجل العظيم في حد ذاته بقدر ما انه التاثير الذي يمارسه على سائر البشر . ولكن لنختزل هذه المناقشة التي تهدد بآن تبعثنا عن هدفنا .

لا مفر اذن من التسليم بأن الرجل العظيم يمارس تاثيره على معاصريه بطريقتين مختلفتين : بشخصيته وبالفكرة التي يحامي عنها . وهذه الفكرة اما ان تداهن وتتملق أمنية قديمة من امانى الجماهير ، وإما ان تعين لهذه الجماهير هدفا جديدا ، وإما ان تجتذبها اخيرا بصورة من الصور . وفي بعض الاحيان ، وفي الاحوال الاكثر بدائية ، لا يكون من تاثير سوى للشخصية وحدها، اما الفكرة فلا يكون لها سوى دور ثانوي محض . وفي وسعنا ان ندرك على الفور لماذا امكن للرجل العظيم ان يتحلى بكل هذه الاهمية ، لاننا نعلم ان غالبية البشر تشعر بحاجة ماسة أسرة الى سلطة تتوله بها وتبدي لها ضروب الاعجاب ، وتطاطء الرأس امامها ، وتبيح لها ان تسيطر عليها ، بل حتى ان تسيء معاملتها وتسومها خسفا (٨) . وقد أبان لنا علم نفس الفرد ما مصدر

---

٨ - ان افتراض فرويد بأن غالبية البشر مصابة بالمازوخية لا يبدو لنا افتراضا مقبولا بسهولة .  
«الترجم»

هذه الحاجة الجماعية الى سلطة : فهي وليدة الانجذاب نحو الاب ، وهو شعور يعمر افئدتنا منذ نعومة اظفارنا ؛ وليدة الميل الى ذلك الاب الذي يتباهى البطل الاسطوري بأنه قهره وتغلب عليه . واننا لنستشف ان جميع السمات والخصال التي يحلو لنا ان نسبها على الرجل العظيم هي سمات وخصال تخص شخصية الاب ، وان هذا التشابه على وجه الدقة هو الذي يخلق الرجل العظيم الذي خاب مسعانا في تحديد طبيعته الاساسية .

فصورة الاب هي مزيج من صلابة الافكار وقوة الإرادة وحزم الافعال ، وهي على الاخص مزيج من ثقة المرء بنفسه وبقينته الإلهي بأنه دوماً وأبداً على حق ، ذلك اليقين الذي قد يشط ويتطرف احيانا فلا يعود يشوبه شك او تردد . وفي الوقت الذي نجد فيه انفسنا مكرهين على ان نعجب به ، بل على ان نضع فيه احيانا ثقتنا كاملة ، لا نستطيع ان نمسك عن خشيته والخوف منه . ولقد كان من المفروض ان تهدينا اللفظة نفسها الى سواء السبيل . فمتدا الذي يمكن ، بالفعل ، ان يبدو «عظيماً» في نظر الطفل ان لم يكن الاب ؟ .

لا مجال للشك البتة في ان الصورة الابوية الجليلة المهيبة هي التي تعطفت ، في شخص موسى ، فأكسدت لبؤساء الفلاحين اليهود بأنهم ابناء الاب. الاتراء المفضلون . ولكم كان عظيماً ، ولا ريب ، الاغراء الذي مارسه عليهم فكرة إله واحد ، أوحد ، أزلي ، كلي القدرة ، تنازل ، بالرغم من وضاعة شروط حياتهم ، فعقد معهم حلفاً ، واعدا اياهم بشمولهم بعطفه والسهر عليهم شريطة ان يستمروا في عبادته ! وأرجح الظن انه كان من العسير عليهم ان يفصلوا صورة موسى عن صورة إلهه . ولقد كان هذا الحدس صحيحاً ، لأن موسى نسب ، في أرجح الظن ، بعضاً من سمات خلقه وطباعه الى الرب : سرعة الغضب وقسوة القلب على سبيل المثال . وحين قتل اليهود رجلهم العظيم ، كانوا



يكررون في الحقيقة جريمة كانت ، في الازمنة البدائية ، شريعة موجهة ضد الملك الإلهي ، وهي عين الجريمة التي رأينا أن نموذجا الاصلي الاول يعود الى حقبة اقدم ايضا (٩) .

ولئن اخذ وجه الرجل الكبير على هذا النحو قسّمات وجه إلهي ، فلنتذكر الان من جهة ثانية ان الاب كانت له ، هو الآخر ، طفولته . ولقد سبق لنا ان قلنا ان الفكرة الدينية العظيمة التي جعل موسى من نفسه داعيتها وراعيتها لم تكن فكرته . وانما اقتبسها من مليكه إخناتون ، وربما كان هذا الاخير ، الذي قام البرهان الساطع على عظمته وأهميته بوصفه مؤسس ديانة ، قد امتثل لإيحاءات انتقلت اليه ، عن طريق امه او عن اي طريق آخر ، من آسيا الدائية او النائية .

لا يسعنا ان نتابع الى ابعد من ذلك ترابط الاحداث والوقائع وتسلسلها ، ولكن اذا ما اتضح ان نظرنا الى الامور سليمة وصحيحة ، فهذا لان فكرة التوحيد قد ارتدت الى موطنها الاصلي كما تترد القديفة التي لم تصب هدفها الى مطلقها . ويبدو انه من غير المجدي ان نسعى الى التحقق من مقدار ما يساهم به فرد من الافراد في الترويج لفكرة من الافكار وفي ذبوعها . ومن البلهي ان يكون العديد من الناس قد ساهموا في ذلك . ثم اننا سنفترب خطأ فاضحا اذا ما اوقفنا عند موسى سلسلة المسببات والمسببات وغضضنا الطرف عن انجازات من اعقبوه وتابعوا عمله . ان البدرة الاولى للتوحيد لم تثمر في مصر ، ولكن الشيء نفسه كان يمكن ان يحدث في اسرائيل بعد ان نفّض الشعب عن كاهله نير ديانة طاغية مرهقة . بيد ان الشعب اليهودي كان ينجب على الدوام من صلبه رجالا يبتشون الحياة من جديد في الماثور الذي هزل ووهن ، ويجددون تعنيف موسى وتقريبه

---

٩ - راجع فريور ، المصدر الاتف الذكر .

ووعيده ، ولا يألون في ذلك جهدا الى ان تحيا ثانية المعتقدات  
 الأثلة . وبعد جهود متواصلة على مدى قرون وقرون ، وبعد  
 اصلاحين كبيرين ، تم الاول قبل النفي الى بابل والثاني بعده ،  
 تحقق تحول الإله الشعبي يهوه ، فصار هو الرب الذي كان  
 موسى قد فرض عبادته على اليهود . وخير دليل على وجود بعض  
 الاستعدادات النفسية لدى اليهود ظهور ذلك العدد الكبير من  
 الاشخاص ، وسط تلك الجماعة التي قبض لها ان تصبح الشعب  
 اليهودي ، أعني الاشخاص المستعدين لتحمل اكرهات الديانة  
 الموسوية لا لغرض الا بغرض ان يكونوا شعب الله المختار وأن  
 يحصلوا على مزيد من المزايا والفوائد المماثلة .

## - ٤ -

### التقدم في الروحانية

بديهي انه لا يكفي ، للاستمرار في ممارسة مثل هذا التأثير  
 النفسي على شعب من الشعوب ، ان تكرر له التوكيدات بأن الله  
 قد اصطفاه دون غيره من الشعوب . انما ينبغي ايضا ، وبأية  
 صورة من الصور ، البرهان له على هذا الاصطفاء اذا ما أريد له  
 ان يصدق ذلك وأن يستخلص النتائج من هذا الاعتقاد . ولقد  
 قام «الخروج» في ديانة موسى مقام ذلك البرهان . وما كان  
 الرب او موسى الناطق باسمه ليكلا ويسأما من التنويه بهذه  
 العلامة من علامات الايثار والمحابة . وانما احتفالا بهذا الحدث  
 وتخليدا له تم تكريس عيد الفصح او بالاحرى تعديله . ولكن  
 المسألة أمست مجرد مسألة ذكرى ، وبات «الخروج» نفسه  
 ينتمي الى ماضٍ قصي بعيد . والحقيقة ان البراهين على وجود

المحابة والنعمة الإلهية كانت قد اوضحت نادرة للغاية في العصر الذي يحظى باهتمامنا ههنا ، وكانت الاحداث تشير بالاحرى الى زوال الحظوة . ولقد كان من عادة الشعوب البدائية ان تخلع آلهتها ، بل تعاقبها ، متى ما امتنعت هذه الآلهة عن المن عليها بالنصر والسعادة والرفاه . كما كان الملوك يُعاملون ، على سر العصور ، نفس معاملة الآلهة ، وفي هذا دليل آخر على وجود وحدة هوية قديمة وأصل مشترك بين الآلهة والملوك . وتطرد الشعوب الحديثة بدورها ملوكها متى ما كبت عظمة مهورهم وحل بها الافول بنتيجة الهزائم التي يترتب عليها ضياع الاراضي والاموال . اذن ما المعجزة التي حملت شعب اسرائيل في ذلك الزمن على الاستمرار في تقديم ضروب الطاعة الى إلهه الذي عامله ببالغ الشدة والقسوة ؟ ان هذه لمعضلة نجد انفسنا مكرهين على ان ندعها بلا حل في الوقت الحاضر .

كل ما تقدم يحفزنا على البحث والتنقيب عما اذا لم تكن ديانة موسى قد وهبت الشعب شيئا آخر غير ازدياد ثقته بنفسه من خلال شعوره بأنه الاثير والمصطفى لدى الرب . وهذا الشيء الآخر تسهل في الحقيقة اماطة اللثام عنه : فديانة اليهود اعطتهم فكرة اعظم وأجل شأنًا عن الالهية ، او بتعبير أدق اعطتهم فكرة إله اكبر وأعظم ، وكل من كان يؤمن بهذا الإله كان لا بد ، بصورة من الصور ، ان يشاطره عظمته ، وبذلك كان من المحتمل ان يعلو شأنًا ويسمو مقاما . وهذه الحقيقة ستثير ، ولا بد ، دهشة المنكرين والمتسككين ، ولكننا قد نساعدهم على فهم هذا الشعور اذا ما اجرينا مقارنة : لناخذ على سبيل المثال واحدا من الرعايا البريطانيين ، ولنفترض ان ثورة ما قد اندلعت في البلد الاجنبي الذي يقيم فيه . ان هذا الرجل لن ينتابه القلق ، خلافا لاي اجنبي من رعايا دولة صغيرة في البر الاوروبي . وهذا لان الرعية البريطاني يعلم انه لو مست شعرة واحدة من شعر رأسه ، لأرسلت حكومته سفينة حربية . ولا يجهل مثيرو الفتنة بدورهم

هذه الحقيقة . وبالمقابل فان الدولة الصغيرة المشار اليها لا تمتلك اي سفينة حربية . ولا شك في ان الرعية البريطاني فخور بقوة امبراطوريته ولكن فخره هذا ناجم ايضا عن شعور بالامان ، من الطمانينة الى حماية يتمتع بها كل رعية من رعايا المملكة المتحدة . وهذا ينطبق ايضا ، في أرجح الظن ، على المرء حين يتصور إليها ذا قدرة وعزة . وبما ان الانسان لا يستطيع ان يطمح في ان يساعد الله في حكمه للعالم ، فان الافتخار بعظمته يترافسق بداهة بالشعور بأنه كان موضع «اصطفاء» .

ان واحدة من الشرائع الموسوية لها من الاهمية اكثر مما يعزى اليها عادة للوهلة الاولى . أعني بها حظر تصوير الله وتشخيصه ، اي إلزام الأتباع بعبادة إله غير منظور . واني لا تكهن بان موسى كان اكثر تشددا وتصلبا ، بصدد هذه النقطة ، من ديانة آتون . ولعله لم يكن له من قصد غير ان يكون منطقيا ، لان إلهه لا وجه له ولا اسم . ولعله كان يرمي من وراء ذلك السى اقرار اجراء جديد من اجراءات الحماية ضد الممارسات السحرية اللامشروعة . ولكن مهما تكن الاسباب ، فان ذلك الحظر قد ترتبت عليه ، بمجرد ان قرض واحترم ، نتائج خطيرة ، أعني تراجع الادراك الحواسي (١٠) بالنسبة الى الفكرة المجردة ، وانتصار الروحانية على الحواس ، او بتعبير أدق نكران الفرائز مع كل ما يترتب على هذا النكران من وجهة نظر علم النفس .

وحتى نجعل ما لا يبدو مقنعا للوهلة الاولى أصدق احتمالا واقرب الى المعقولة ، فلنستشهد ببعض ظاهرات ذات طابع مماثل برزت الى النور مع مسيرة الحضارة الانسانية وتطورها . ان أقدم هذه الظاهرات، وربما أهمها ، تضع في دياجير العصور

السحيفة ، ومع ذلك فانها تجبرنا بنتائجها المدهشة على التسليم بواقعيتها . فنحن نلقى لدى الاطفال ولدى الراشدين المعصومين ، كما لدى البدائيين ، الظاهرة العقلية التي اطلقنا عليها اسم «الايان بكلية قدرة الفكر» . وفي رأينا ان هذه الظاهرة هي في كنهها تهورا من شان التأثير الذي يمكن للمكانة العقلية - الملكات الفكرية في مثالنا - ان تمارسه على العالم الخارجي من خلال تعديله وتغييره . فالسحر ، وهو سلف العلم وجدّه ، قائم برمته على ذلك الايمان . وكل سحر الكلمات ينبع من هذا الامتقار بكلية قدرة الفكر ، مثله مثل اليقين الراسخ بالقدرة المرتبطة بمعرفة اسم من الاسماء او بالنطق به . وأنا لنرى ان «كلية قدرة الفكر» تعبر عن القيمة التي كان الانسان يملقها على تطور اللغة ، هذا التطور الذي انجلي من تقدم خارق للمألوف فسي النشاطات الفكرية . فيومئذ قام ملكوت الروحانية الجديد الذي تلبست المفاهيم والدكريات والاستنباطات انطلاقا منه اهمية حاسمة ، وذلك على عكس النشاطات النفسية الدنيا المرتبطة بالادراكات الحواسية المباشرة . ولقد كانت هذه ، بلا ريب ، واحدة من اهم المراحل على طريق الصيرورة الانسانية .

ياخذ التطور اللاحق ، بعد ذلك ، شكلا ملموسا اكثر : فتحت تأثير ظروف خارجية لسنا مطالبين بان ندرسها هنا وهي بالاصل غير معروفة كلها ، حل تنظيم ابوي للمجتمع محل التنظيم الامومي ، وهذا ما احدث بالطبع انقلابا هائلا في القوانين السارية المفعول يومئذ . ويخيل لنا اننا نستشف صدى هذا الانقلاب في «اورستيات» اسخيلوس (١١) . ولكن لهذا الانقلاب ، لهذا الانتقال من الام الى الاب معنى آخر ايضا : فهو بمثابة علامة

---

١١ - الاورستيات : لثاية تراجيدية يدور موضوعها حول مقامرات

«الترجم»

أورست .

انتصار للروحانية على الحسية ، وبالتالي علامة تقدم على دوح الحضارة . وبالفعل ، تتجلى الامومة في الحواس ، في حين ان الابوة مصادفة ترتكز الى استنباطات وفرضيات . وهكذا كان تقديم العملية التفكيرية على الادراك الحواسي تطورا مثقلا بالنتائج (١٢) .

بين هاتين الواقعتين اللتين اتينا بذكرهما حدثت ذات يوم واقعة اخرى تمت بصلة قريبي ، بوجه خاص ، الى الواقعة التي درسناها في تاريخ الاديان . فقد وجد الانسان نفسه منقادا الى الاعتراف بوجود قوى «روحية» ، اي قوى لا يمكن للحواس ، وعلى الاخص البصر ، ان تدركها ، مع ان لها مفاعيل لا تنكر ، بل قصوى . واذا ما رجعنا الى اللغة ، وجدنا ان تحرك الهواء هو الذي اقتبست منه صورة الروحانية ، وذلك ما دامت الروح تأخذ اسمها من نفحة الهواء ( Spiritus , Animus ) ، وبالعبيرية Ruache دخان (١٣) . هكذا ولدت فكرة النفس ، المبدأ الروحي للفرد . ويمكن للمراقب ان يلحظ نفحة الهواء تلك في نفس الانسان الذي لا يقف الا ساعة موته . والى اليوم ما نزال نقول عن المحتضر انه اسلم الروح . هكذا انفتح الانسان على مملكة الفكر والروح . ولقد كان على اتم استعداد ليعزو النفس التي اكتشفها فيه الى الطبيعة كلها . وهكذا ايضا تفحخت الروح في الكون بأسره ، ولقد كابد العلم ، الذي رأى النور في زمن متأخر جدا ، مشقة كبيرة لينتزع من هذه الروح ملكية جزء من

- 
- ١٢ - المرأة حاسة والرجل فكر : ان نظرة فرويد هذه ، التي لا يمكن وصفها بأقل من انها تقليدية ، بدو لنا في الوقت نفسه بحاجة الى برهان علمي ولا نستطيع ان نقبل بها كسلمة .  
«المترجم»
- ١٣ - والعلة في العربية اوضح وابرز ايضا بين الروح والروح والريح وبين النسمة والنسيم ، وأخيرا بين النفس والنفس .  
«المترجم»

العالم ، وهي مهمة لم ينجزها بتمامها حتى يومنا الحاضر .  
لقد رفع الله ، بفضل التحظير الموسوي ، الى درجة من  
الروحانية اعلى ، وانفتح الباب على مصرايمه امام التعديلات  
الجديدة التي ستطرا على مفهوم الالهية والتي بمنتكلم عنها  
فيما بعد . اما الان فلنصب اهتمامنا على نتيجة اخرى من نتائج  
ذلك التحظير . فكل تقدم في مدارج الروحانية تترتب عليه زيادة  
ثقة الافراد بانفسهم ، ويجعلهم اميل الى الكبرياء والصلف ، الى  
ان ينتهي بهم الامر الى الاعتقاد بأنهم اسمى وأرفع شأنًا من اولئك  
الذين ما بزالون يرزحون تحت نير الحسية . ونحن نعلم ان  
موسى رستخ في اذهان اليهود عزة الايمان بأنهم شعب مختار .  
وبفضل تجريد الله من الصفة المادية اتضافت جوهرية جديدة  
اخرى الى كنوز هذا الشعب السرية . فاليهود ما ونوا يعبرون  
الامور الروحية عظيم الاهتمام ، وقد علمتهم النكبات السياسية  
التي نزلت بآمتهم (١٤) كيف يقدررون الثروة الوحيدة المتبقية  
لهم ، واعني وثائقهم المكتوبة ، حق قدرها . فغب دمار هيكل  
اورشليم على يد نيطوس (١٥) مباشرة ، طلب الحاخام يوشانان  
بن ساكي الاذن بالسماح له بافتتاح اول مدرسة لتدريس التوراة  
في يهنة . ومنذ ذلك اليوم فصاعدا باتت الكتب المقدسة  
ودراستها هي الحائل بين هذا الشعب المشتت وبين الانحلال  
والدوبان .

ان جميع هذه الوقائع معروفة على خير وجه ومعترف بها .

- 
- ١٤ - هذا مثال آخر على خلط فرويد الذي لا تبرير له بين الديسر  
والقومية .  
«الترجم»  
١٥ - نيطوس : امبراطور روماني فتح اورشليم عام ٧٠ بعد تمردها على  
روما .  
«الترجم»

وكل ما سأضيفه هو ان هذا التطور المميز لليهود يرجع الى الحظر الذي فرضه موسى بنهيه عن عبادة الله في شكل منظور .  
والاولوية التي اعطاها اليهود ، طوال ما يناهز ألفي عام ،  
للجهود الروحية (١٦) ترتبت عليها بالبداية بعض النتائج . فقد  
تسببت في تلطيف حدة القسوة والعنف اللذين نصادفهما عادة  
حيثما يكون تطور الرياضة البدنية قد اصبح مثلا اعلى شعبيا .  
فاليهود لم يؤذن لهم ببلوغ ذلك التناسق الذي حققه الاغريق بين  
النشاطات الروحية والجسمانية . وقد ذهب اختيارهم ، في  
هذا التنازع ، الى ما هو اجل أهمية واعظم شأننا من وجهة  
النظر الثقافية .

- ٥ -

## تكران الفرائز

قد لا نفهم ، للوهلة الاولى ، لماذا يؤدي كل تقدم فسي  
الروحانية وكل تراجع في الحواسية الى تعزيز ثقة الافراد بانفسهم  
وثقة الامم بنفسها على حد سواء . ويبدو ان هذه الواقعة تفترض

---

١٦ - يبدو ان فرويد يتناسى هنا البور «المادي» للغاية الذي لعبه اليهود  
اللامندمجون عبر التاريخ بوصفهم تجارا ومرايين ، وعلى الاقل الاقتناء منهم .  
كما انه يتناسى ان اليهود من سكان اورشليم كانوا يعيشون ، في قلوبهم ،  
على موارد الهيكل وعلى تأمين الخدمة للحجاج المتدفقين على المدينة المقدسة .  
وبكلمة واحدة ، انه يسى ما قاله كارل كاويسكي من ان «الله اصبح مند يهود  
فلسطين مصدرا هاما لتأمين رزقهم» . راجع «المفهوم المادي للمسألة اليهودية»  
«الترجم» منشورات دار الطليعة .



سلفا سلما معيننا من القيم ، وكذلك وجود شخص او سلطة  
يكونان قيمين على سلم القيم هذا . ولنتناول بالدرس ، تسهلا  
للفهم ، حالة مشابهة من حالات علم النفس الفردي ، حالة باتت  
مفهومة لنا اليوم على خير وجه .

حين يحاول الـ «هذا» ان يفرض على كائن بشري مطلبسا  
غريزيا ذا طابع ايروسي (١٧) او عدواني ، فان رد الفعل الاكثر  
بساطة او الاكثر طبيعية للانا، سيد الجهازين التفكيرى والعضىلى،  
هو ان يلبي ذلك المطلب بفعل من الافعال . هذه التلبية الغريزية  
يحس بها الانا متعة ولذة ، في حين ان عدم التلبية سيولد لديه  
الكرب والكدر . ولكن قد يحدث ان ينكص الانا عن هذه التلبية  
بسبب عائق من العوائق الخارجية ، كأن يدرك ان الفعل المشار  
اليه سينجم عنه خطر جسيم . والنكوص عن تلبية او عن دافع  
غريزي بحكم عوائق خارجية ، وانصياعا ، كما قلنا ، لمبدأ  
الواقع ، ليس بحال من الاحوال بالامر المحبب الى النفس . وقد  
يتسبب في توتر وكدر دائمين بفضل انتقال في الطاقة وتحويلها  
باتجاه آخر . ولكن قد يحدث ان يتم النكوص لدوافع يمكننا  
بحق ان نصفها بانها داخلية . ففي اثناء تطور الفرد يجسري  
استبطان لقسم من قوى العالم الخارجى الكابتسة الكابحة ،  
وتتواجد في الانا سلطة معارضة للقسم الآخر ، تراقب وتنتقد  
وتحظر . هذه السلطة هي التي نطلق عليها اسم «الانا الاعلى» .  
وابتداء من هذه اللحظة يفتدو الانا مكرها ، قبل الاقدام على اشباع  
الفرائز ، على ان يحسب حسابا لا للاخطار الخارجية فحسب ،  
بل ايضا لمتطلبات الانا الاعلى ، وبذلك تتضاعف حوافزه وبواعثه  
على النكوص عن التلبية والاشباع . ولكن بينما لا ينجم سوى

---

١٧ - erotique : نسبة الى ايروس ، إله العشق عند الاغريق .

«الترجم»

الكدر عن النكوص الراجع الى اسباب خارجية ، يكون للنكوص الناشء عن اسباب داخلية ، انصياعا لمتطلبات الانا الاعلى ، مفعول اقتصادي مغاير . فالى جانب الكدر المحتم المشار اليه آنفا ، يضمن ربحا وكسبا في اللذة ، نوما من تلبية تعويضية . فالانا يحس بنشوة وحماسة ، ويعد انكاره للدافع الفريسي الجنسي عملا من الاعمال التي تستأهل التقدير . ويخيل الينا اننا بتنا. نفهم طريقة عمل هذه الإوالية : فالانا الاعلى هو وارث الاهل (والمربين) الذين راقبوا وأشرفوا على اعمال الفرد وحركاته في السنوات الاولى من حياته ، وهو كذلك ممثلهم . ويستمر الانا الاعلى في اداء وظائف هؤلاء الاهل والمربين ، من دون ان يغير فيها شيئا تقريبا ، فلا يني يضع الانا تحت وصايته ممارسا عليه ضغطا دائما دائما . ويظل الهم الاول للانا ، كما في ايسام الطفولة ، الا يخسر محبة ذلك المعلم الذي اذا ما اتنى عليه أفعم قلبه طمأنينة ورضى ، واذا ما اتنى عليه باللائمة والتقريع اتبه ضميره وبكته . وحين يضحي الانا بتلبية غريزية ما على مديح الانا الاعلى ، فانه ينتظر منه بالمقابل المزيد من الحب . وإحساس الانا بأنه استحق هذا الحب عن جدارة يتحول الى اعتزاز وافتخار . ولا بد ان العلاقة بين الخوف من الا يعود الانا محبوبا وبين مطالب الغريزة الجنسية كانت هي في عصر لم يكن قد جرى فيه بعد استبطان السلطة وتحويلها الى انا أعلى . ولقد كان شعور بالامان والرضى يخالج المرء في كل مرة يعدل فيها ، بدافع الحب البنوي ، عن تلبية الغريزة . ولم يكن في الامكان ان يكتسب هذا الشعور الطيب طابعه النرجسي الخاص الا يوم يتم دمج السلطة نفسها في الانا .

ولكن هل في وسع هذا التفسير للطريقة التي يتحول بها انكار الغريزة الجنسية والنكوص عن تلبيتها الى حبور ورضى ، هل في وسعه ان يسلط بعض الضوء على الظاهرة التي نود ان

ندرسها ، اي على زيادة الثقة بالنفس وتقدم الروحانية ؟ سوف يكون المكسب زهيدا في الظاهر ، لان الظروف تختلف تمساح الاختلاف . فلا دخل هنا لا لانكار الغريزة الجنسية والنكوص عنها ولا لشخص او سلطة علويين تتم التضحية برسمهما . هذا ما لا مفر له من ان يدخل الشك الى عقولنا. ولكن ثمة اعتراض يفرض نفسه : الا يجسد الرجل العظيم حقا وفعلا تلك السلطة التي يندفع الناس الى العمل حبا بها ؟ ولما كان الرجل العظيم بديلا للاب ، فلا داعي لان تأخذنا الدهشة حين نراه يؤدي ، في علم النفس الجمعي ، دور الانا الاعلى . وهذه الملاحظة تحتفظ ، ولا بد ، بكامل قيمتها بالنسبة الى موسى في علاقته مع الشعب اليهودي . بيد ان التشابه لا يستبين لنا في مجالات اخرى . فما معنى التقدم على طريق الروحانية ان لم يكن مؤداه تقديم الذكريات والاستدلالات والتأملات وما سواها من العمليات الفكرية التي بعد عمليات متفوقة عليا على الادراكات الحواسية المباشرة وانزال هذه الاخيرة الى مرتبة دنيا ؟ ومن علائم هذا التقدم ، على سبيل المثال ، الاقرار بأن الابوة ، وان تكن الحواس عاجزة عن ادراكها، اهم من الامومة . لهذا على وجه التحديد يحمل الابن اسم ابيه ويرثه عنه . ومن علائمه ايضا المجاهرة بأن الرب إلها هو الاعظم والاقوى بالرغم من انه لا منظور ، مثله مثل ربح العاصفة او مثل النفس والروح . ولكن النكوص عن تلبية مطلب غريزي ذي طابع جنسي او عدواني يبدو مختلفا كل الاختلاف في كنهه وطبيعته . كذلك يستحيل تحديد السلطة التي تقرر ما ينبغي ان يكون الاجل شأننا والاعظم اهمية حين يكون المطروح على بساط البحث بعض مظاهر التقدم الروحاني كانتصار الحق الابوي على سبيل المثال. ان هذه السلطة لا يمكن ان تكون السلطة الابوية ، لان الاب لم يتقلدها ويمتلكها الا بفضل التقدم على وجه التحديد . لا مندوحة اذن من الاكتفاء بملاحظة الظاهرة وتسجيلها ، وأعني بهـذه الظاهرة تغلب الروحانية بالتدرج على الحسية في مجرى تطور

البشرية ، وما يولده هذا التقدم من شعور بالكبرياء والفخر والرضى عن النفس لدى البشر . ولكننا نجهل علة وضع الاشياء هذا . وليس هذا فحسب ، بل ان ظاهرة الايمان الانفعالية الغامضة تغلب ، في يوم من الايام ، حتى على الروحانية نفسها . ذلك هو فحوى القولة المشهورة *Credo quia absurdum* (١٨) ، ولا مجال للشك في ان من يرى في هذه القولة خروجاً على العقل يعدها هو نفسه تجلية رائعة . وربما كانت جميع هذه المواقف السيكلوجية تنطوي على نقطة مشتركة اخرى ، وربما كان الانسان يضيف قيمة اكبر على ما يشق عليه الوصول اليه ، وربما كان مرد كبريائه وافتخاره الى نرجسية ، يزيد في حجمها وعي الصعوبة التي امكن تدليلها .

أما ترانا انسقنا وراء كلام مسهب يكاد لا يجدي فتيلاً ؟ لعل بعضهم سيساوره الاعتقاد بأن هذا الكلام لا صلة له اصلاً بالموضوع ، ما دام المفروض في ابحاثنا ان تستهدف اكتشاف العوامل التي حددت طابع الشعب اليهودي . ولو صح هذا الاعتقاد لكان على كل حال في صالحنا اكثر منه في طالحنا ، بيد ان هناك واقعة تميظ اللثام عن صلة القربى بين المشكلتين ، واقعة ستحظى في الصفحات التالية بالمزيد من اهتمامنا . فقد رأينا ان الدين اليهودي شرع ، بادىء ذي بدء ، بتحريم تشخيص الألوهية ؛ وفيما بعد تحول هذا الدين أكثر فأكثر الى دين نكران الفرائض والامتناع عن تلبيتها . صحيح انه لم يطالب بعفة مطلقة، بل اكتفى بكبح الحرية الجنسية بصورة جدية ؛ وصحيح ان الله قد جرد مطلق التجريد من كل طابع جنسي وأصبح مثلاً اعلى للكمال الخلقى . ولكن الكلام عن الاخلاق يعني بالضرورة الكلام عن

---

١٨ - باللاتينية في النص ، وقد سقت ترجمة المعنى . « المترجم »

تفيد الفرائز ولجمها . فالانبياء ما ملوا ولا كلوا قط من التذكير بان الله يطلب شيئا واحدا من شعبه : ان يحيا حياة عدالة وفضيلة ، وبالتالي ان يمتنع ويستنكف من جميع التلبسات الغريزية التي ما تزال الاخلاق تعدها حتى يومنا هذا من الخطايا. بل ان الوصية التي تنص على وجوب الايمان بالله تبدو وكأنها تراجعت الى المرتبة الثانية امام الوصايا والاوامر الاخلاقية . هكذا يتضح ان تكران الدوافع الغريزية يلعب دورا بالغ الاهمية في الدين ، بالرغم من انه لم يجز النص عليه من البداية .

وتلافيا لسوء تفاهم محتمل سنسجل هذه الملاحظة : فحتى اذا ابينا ان نصدق ان تكران الدوافع الغريزية والاخلاق المبنية على هذا النكران هما جوهر الدين ، فهذا لن يغير شيئا من حقيقة ان النكران والدين مرتبطان وثيق الارتباط وراثيا وتكوينيا . فالطوطمية ، اول شكل معروف من اشكال الدين ، تستعمل على مجموعة كاملة من النواهي والاوامر تشكل القاعدة التي لا غنى عنها للنظام باسره . وما هذه الاوامر وهذه النواهي الا انكارات لدوافع غريزية . ذلكم هو ، على سبيل المثال ، حال تبجيل الطوطم وتوقيره وتحريم قتله او انزال الاذى به ، وذلكم هو ايضا حال الزواج الخارجي ، اي النكوص من الام وعسن الاخوات في العشيرة ، وهن اللائي كن موضع طمع واشتهاء ، والاعتراف بحقوق متساوية لجميع اعضاء عشيرة الاخوة ، وما يترتب على هذا الاعتراف من عدول عن كل صراع عنيف بين المتنافسين . ولا يفرب عن باننا ان ثمة حافزين يلعبان دورهما هنا : فالناهيان الاولان مطابقان لما كان الاب المخلوع قد اراده ورغب فيه ، وهما بالتالي استمرار لارادته ومشيته ؛ اما الناهي الثالث ، المتعلق بالساواة في الحقوق بين الاخوة ، فانه يتجاهل هذه المشيئة ويجنح الى الابقاء على سلامة النظام الجديد ، الذي ارسيت أسسه بعد مقتل الاب . ولولا ذلك لكانت العودة الى الوضع السابق بحكم المحتمة . وانما هنا على

وجه التحديد تفترق القوانين الاجتماعية ، وتميز عن تلك التي تنبثق مباشرة - لنؤكد ذلك مرارا وتكرارا - عن الدين .  
ان جوهر هذه السيورة يتكرر في تطور الفرد الاسرع ايقاعا بكثير . وعلى هذا المستوى ايضا تحت السلطة الوالدية، ولاسيما سلطة الاب ، ذلك الكائن الكلي القدرة والمتمتع بسلطة المعاقبة والتأديب ، تحت الفرد وتحفزه على انكار دوافعه الفريزيية الجنسية ، وتحدد ما هو مباح وما هو محظور . اما الاعمال التي تجعل الطفل يوصف بأنه «عاقل» او «شيطان» فانها ستنتج ، في زمن لاحق ، حين يخل المجتمع والابن الاعلى محل الاهل ، بأنها «صالحة» او «طالحة» ، فاضلة او مردولة . بيد ان المسألة هي ، هنا وهناك ، وعلى الدوام ، مسألة تنكر للفرائض ونكوص عنها بفعل وجود سلطة جاءت لتحل محل سلطة الاب ولتكون استمرارا لها .

تعزيز نظرنا هذه حين ندرس مفهوم القداسة الغريب . فما الذي يسيغ صفة الحرمي على شيء ما بالمقارنة مع كل ما نجله ونحترمه ؟ ان العلاقات بين ما هو حرمي وما هو ديني هي ، من جهة اولى ، علاقات لا سبيل الى المماراة فيها وظاهرة كل الظهور للعيان . فكل ما هو من الدين حرمي ، وهذا هو على وجه الدقة اساس القداسة . ولكن ما يشوش علينا حكمننا هذا ، من الجهة الثانية ، هو المحاولات العديدة المبذولة لاضفاء صفة من صفات القداسة على الكثير من الاشياء الاخرى : الافراد والمؤسسات والوظائف وما الى ذلك مما ليس له كبير دخل بالدين . بيد ان هذه الجهود هي في كثير من الاحيان مفرضة جدا . لنمعن النظر اولا في الطابع التحريمي الملازم للقداسة . فكل ما هو حرمي يحرم مسه او لمسه . وكل تحريم حرمي له طابع عاطفي جلي صريح ، لكن ليس له ، والحق يقال ، اي دافع عقلائي . فلماذا تبدو علاقات الحب المحرم بين فرد من الافراد وبين ابنته او

أخته ، على سبيل المثال ، أبشع وأقبح من أي نوع آخر من العلاقات الجنسية ؟ ان ثمة من لن يتوانى عن اجابتنا على هذا السؤال بقوله ان مشاعرنا واحاسيسنا كلها تنفر من مثل هذه الجريمة وتثور عليها ، وهذا ما يعدل القول بأن التحريم يبدو طبيعيا للغاية وان اسبابه يعسر بيانها .

والحق ان تفسيراً من هذا القبيل ليس له - وما اسهل البرهان على ذلك - اي قيمة . فما يقال انه يجرح مشاعرنا كان فيما عبر من الايام ذائعا في اوساط الاسر المالكة في مصر القديمة كما لدى شعوب اخرى من العهد القديم ، بل يسعنا ان نقول انه كان تقليدا مقدسا . فقد كان من المنبع والطبيعي ان يجد الفرعون في شخص أخته زوجته الاولى والرئيسية . ولم يتوان خلفاء الفراعنة ، البطالسة ، عن حلو حلوهم . هكذا نجد انفسنا ميالين الى الافتراض بأن حب المحارم ، وفي مثالنا ، بين الاخ والاخت ، كان امتيازا موقوفا على الملوك ، ممثلي الآلهة على الارض ، ومحظرا على عامة الناس . أضف الى ذلك ان علاقات الحب بين المحارم لم تكن مستكرهة لا في العالم الاغريقي ولا في العالم الجرمني كما تصورهما لنا الاساطير والخرافات . ومن المباح لنا ان نفترض ان تعلق طبقة كسار النبلاء بـ «المنبت» او «المحتد» ليس الا من آثار ذلك الامتياز القديم وبقاياها ، واننا لنلاحظ ان الرؤوس المتوجة في اوربا في الوقت الحاضر تنتمي كلها الى اسرة او اسرتين لا غير ، وذلك نتيجة لزيجات العصب الواحد من قرابة الاب ، تلك الزيجات التي كانت شائعة في ارفع دوائر المجتمع على امتداد اجيال واجيال .

ان وجود حب المحارم لدى الآلهة والملوك والابطال يبيح لنا ايضا ان ننبذ وننحي جانبا اطروحة اخرى تريد ان تقدم للنفور من حب المحارم واستفطاعه تفسيراً بيولوجياً ، يراجعها هذا الاستكراه الى حدس مسبق غامض بخطر علاقات الحب بين

أقرباء العصب الواحد (١٩) . بيد انه ليس من المؤكد بحال من الاحوال ان هذا الخطر له وجوده الفعلي ، ومن المشكوك فيه اكثر ان يكون البدائيون قد تنبهوا له وأخذوا حذرهم منه . كما ان التردد في تحديد المحلل او المحرم من العلاقات الجنسية لا ياذن لنا بالافتراض بأن الخوف من حب المحارم ينبع من «شعور طبيعي» .

والحق ان وجهات نظرنا حول ما قبل التاريخ تدفع بنا وتسوقنا الى القبول بتفسير آخر . فسنة الزواج الخارجي ، التي يتجلى التعبير السلبي عنها في الخوف من حب المحارم ، تمثل ارادة الاب وكانت بمثابة استمرار لها بعد مقتل هذا الاخير . ومن هنا كان طابعها العاطفي الشديد البروز ، واستحالة اي تفسير عقلاني لها ، وباختصار من هنا كان طابعها الحرمي . واننا لعلى يقين باننا لو درسنا سائر حالات التحريم المقدس لأحرزنا نتيجة مماثلة لتلك التي نستخلصها من دراسة الخوف من حب المحارم ، وللاحظنا ان الطابع الحرمي ليس في حقيقته الاصلية الاولى سوى الارادة المستمرة للاب البدائي . وبذلك يكون بعض الضوء قد سلط ايضا على الازدواجية التي لا تفسر لها حتى الان في الكلمات التي تعبر عن مفهوم «الحرمي» . فهي عينها الازدواجية التي تتحكم بالعلاقات مع الاب . ف «الحرمي» «Sacré» لا يعني «المقدس» saint و«المكرس» consacré فحسب ، بل يعني أيضا ما هو «ملمسون» و«مستكروه» (٢٠)

---

١٩ - وهو الخطر المتمثل ، كما يقال ، في احتمال نشوء النسل .

«الترجم»

٢٠ - هذا بالطبع بالنسبة الى اللغات اللاتينية حيث تعني كلمة «Sacra»

المقدس والمحرم معا . ومن هنا ذهبنا الى ترجمتها بـ«الحرمي» ، والحرمة هي ما وجب القيام به من حقوق الله وما لا يجوز انتهاكه في آن واحد . «الترجم»



«Auri Sacra Fames» (٢١) . وبالفعل ، ما كان يكفسي الا تعصى ارادة الاب ، وما كان يكفي ان تبجل وتوقر ، بل كان ينبغي ايضا ان ترهب وتستهب لانها تتطلب نكرانا شاقا مؤلما للفرائز . وحين نقرا بعدئذ ان موسى «قدس» شعبه حين فرض عليه فريضة الختان ، نفهم للحال المعنى العميق لهذا الزعم . فالختان بديل رمزي عن الخصي الذي كان الاب البدائي والكلي القدرة قد عاقب به ابنائه فيما غبر من الزمن . وكل من كان يقبل بهذا الرمز، كان يدلل بذلك على استعداده للامتثال للمشيئة الابوية ، حتى لو كان سيترتب على ذلك أوجع التضحيات وآلمها بالنسبة اليه .

واذا ما عدنا الان الى الاخلاق ، فلنقل على سبيل الخلاصة ان شطرا من القوانين الاخلاقية يجد تعليله في ضرورة تحديد حقوق الجماعة تجاه الفرد ، وحقوق الفرد تجاه الجماعة ، وحقوق الافراد تجاه بعضهم بعضا . اما لكل ما يبدو لنا فني الاخلاق غامضا ، متساميا ، صوفي الوضوح ، فمرده الى صلة قرباه بالدين والى ان اصله ومنشأه من ارادة الاب .

- ٦ -

### نصيب الحقيقة في الدين

بأي عين حاسدة ننظر ، نحن معشر ضعاف الإيمان ، الى

---

٢١ - تعبير لشاعر اللاتين فرجيل ، وترجمته : «ما أمقته من جوع الى الذهب !» . والساهد هو في كلمة *Sacra* التي تعني هنا ما هو مستكره .  
مبغوض .  
«الترجم»

اولئك الذين يعمر افئدتهم اليقين بوجود كائن اعلى ! فالكون نفسه لا ينطوي على اي معضلة او إشكال بالنسبة الى هذا الروح الاعظم ما دام هو الذي خلق كل شيء ونظم كل شيء . ولكم تبدو النظريات التي يجاهر بها المؤمنون رجة ، عميقة ، حاسمة ، اذا قورنت بمحاولاتنا التفسيرية الشاقة ، البائسة ، الجزئية هذه ، التي هي اقصى ما يمكننا تقديمه ! لقد رسخ الروح الإلهي ، الذي هو في ذاته المثل الاعلى للكمال الخلقى ، في اذهان البشر معرفة هذا المثل الاعلى ، كما ثبت في نفوسهم في الوقت نفسه الطموح والتوق الى الارتفاع والتسامي الى مستواه . فهم يميزون على الفور ما هو نبيل ورفيع مما هو سافل ومنحط ، ويتم تقييم حياتهم العاطفية نفسها تبعاً للمسافة التي تفصلهم عن مثلهم الاعلى ، ويفرحهم شعور عظيم بالغبطة والرضى متى ما اقتربوا منه وكانوا منه قاب قوسين او أدنى اذا جاز التعبير . وبالمقابل ، يعتورهم كدر وكرب عظيم متى ما ابتعدوا عنه وكانوا على طرفي نقيض معه . هكذا يسير كل شيء بنظام وحسبان ، وبثبات وطيء ! ولكن بعض تجارب الحياة وبعض ملاحظتنا عن الكون نحول حيلولة مطلقة ، ويا للأسف ، بيننا وبين القبول بفرضية ذلك الكائن الاعلى . فلنكأن العالم لا يبهظ علينا بالقدر الكافي من المعضلات ، فيكرهنا ايضاً على البحث عن الكيفية التي امكن بها للمؤمنين ان يحوزوا الايمان ، وعن المنبع الذي يستمد منه هذا الايمان المقدرة على قهر «العقل والعلم معا» (٢٢) .

لنعد الى المشكلة الاكثر تواضعا التي استأثرت حتى الان باهتمامنا . ولنتساءل من اين امكن للشعب اليهودي ان يستمد ذلك الطابع الخاص الذي اتاح له ، على ما تشير اليه الدلائل كافة ، ان يستمر في الوجود الى يومنا هذا .

---

٢٢ - اشارة الى مقطع من «فاوست» : «لا تحتقر سوى العقل والعلم» .

لقد رأينا ان موسى خلق ذلك الطابع حين اعطى اليهود  
ديانة زادت ثقتهم بانفسهم الى درجة عدوا معها ذواتهم متفوقين  
على الشعوب الاخرى قاطبة . وآئذ امكن لهم ان يبقوا على قيد  
الحياة بعدم اختلاطهم بالآخرين . وعلسى كل ، ليس لامتزاج  
الدماء اهمية تذكر ، لان ما كان يجمع اليهود فيما بينهم كسان  
عنصرا مثاليا : الحيازة المشتركة لكنز فكري ووجداني محدد .  
ولئن امكن للدين الموسوي ان يترك مثل هذا الاثر ، فمرد ذلك ،  
اولا ، الى انه اتاح للشعب المشاركة في عظمة مفهوم جديد عن  
الالوهية ، وثانيا ، الى انه أكد ان الله «اختار» ذلك الشعب  
ومحضه دون غيره من الشعوب محاباته وآثره بحظوته ، وثالثا ،  
الى انه فرض على الشعب ان يتقدم في طريق الروحانية ، وهو  
التقدم الذي امكن له ايضا ، علاوة على اهميته في حد ذاته ، ان  
يفتح الباب امام احترام العمل الفكري وامام ضروب جديدة من  
تكران الدوافع الفريزية الجنسية .

ذلكم هو اذن الاستنتاج الذي خلصنا اليه ، ولكن بالرغم من  
انه ليس في نيتنا البتة ان نتراجع عن آرائنا ، فاننا لا نخفي على  
القارئ ان ذلك الاستنتاج ليس مرضيا مئة بالمئة . فאלة لا  
تتفق ، اذا صح التعبير ، مع النتيجة . والواقعة التي نسعى  
جهدنا لتفسيرها تبدو مختلفة ، في حجمها واهميتها ، عن  
الدوافع والحوافز التي ازحنا الستار عنها . ومن المحتمل ان  
مجمل الابحاث التي قمنا بها حتى الان لا تمكننا بعد من اماطة  
اللاثام الا عن شطر سطحي من تلك الدوافع والحوافز ، لا عنها  
جميعا . وما ادرانا ان ليس وراء ذلك كله عامل بالغ الاهمية ما يزال  
مستترا ؟ الحق انه لا يجوز لنا ان نضرب صفحا عن احتمال من  
هذا القبيل ، ما دامت العلاقة بين المسببات والمسببات فسي  
الحياة وفي التاريخ على درجة قصوى من التعقيد .  
والحق ايضا ان المنفذ الى تلك الدوافع والحوافز الاكثر

عمقا والابعد غورا قد فتح لنا في مقطع محدد مما تقدم من هذا البحث . فدين موسى لم يترك نتائج وآثارا فوريسة مباشرة ، ولكنه مارس تأثيره ، على النقيض من ذلك ، بطريقة غير مباشرة تدعو الى الاستغراب . ولا أقصد بذلك ان تلك النتائج والآثار جاءت متأخرة ، وان دين موسى استغرق حقبة طويلة من الزمن ، بل قرونا عدة ، حتى يؤتي مفاعيله ويظهرها الى حيز الوجود ، فهذا من نافل القول ومن بديهيات الامور حين يكون موضوع البحث تكوين طابع لشعب من الشعوب . كلا ، انما ملاحظتنا تتعلق بواقعة تاريخية من وقائع الديانة اليهودية ، او اذا شئتم بواقعة ادرجناها في تاريخ هذه الديانة . فلقد قلنا ان الشعب اليهودي جحد من جديد ، بعد حقبة من الزمن ، دين موسى ، ولكننا لا نستطيع ان نحدد هل نبذت تعاليم النبي برمتها ام هل ظل بعضها ساري المفعول . واذا سلّمنا بان دين يهوه لم يختلف جوهرى الاختلاف عن دين بلع طوال الحقبة المديدة من الزمن التي تم بفيها غزو بلاد كنعان وفتحها والتي استمرت فيها الصراعات مع الشعوب المستقرة فيها سابقا ، فاننا لا نكون قد غادرنا ميدان التاريخ ، وهذا بالرغم من جميع المحاولات المقرضة التي جرت فيما بعد لاختفاء تلك الواقعة الشائنة . بيد ان دين موسى لم يتلاش ويضمحل من دون ان يخلف اثرا . فقد بقيت منه ذكرى غامضة مشوهة ، امكن لبعض اعضاء السلك الكهنوتي ان يصونوها بفضل وثائق قديمة . وهذا الماثور من ماض عظيم هو الذي ظل يفعل مفعوله في الخفاء ، بينما كانت سطوته على النفوس لا تني تتعاطم يوما بعد يوم . ولقد أفلح ، في خاتمة المطاف ، في تحويل الإله يهوه الى رب موسى ، وفي بث روح الحياة من جديد ، بعد تصرم قرون عدة من الجحود ، في الديانة التي أسسها موسى .

لقد صفنا ، في فصل سابق من هذا الكتاب ، فرضية تبدو

محتمة ، لا مناص منها ، متى ما كان القصد ان نفهم ما امكن  
للماثور ان يحققه هنا .

## - ٧ -

### عودة المكبوت

بين الظاهرات التي اتاحت لنا الدراسة التحليلية النفسية  
للحياة السيكولوجية ان نعرفها ، نلقى العديد منها مماثلا للظاهرة  
التي تكلمنا عنها لتونا . بعض هذه الظاهرات يوصف بأنه مرضي،  
وبعد بعضها الآخر سويا . ولكن ليس لذلك من أهمية تذكر ، لأن  
الحدود الفاصلة بين كلا النوعين من هذه الظاهرات غائمة  
ومبهمة ، وإوالياتهما متماثلة الى حد كبير . اما ما يستأثر  
باهنما منا حقا فهو ان نعرف هل تطرا التغيرات المشار اليها على  
الانا بعينه ام يبقى عنه غريبة اجنبية ، فنتحول بالتالي الى ما  
يطلق عليه اسم الاعراض . ولن أختار من كل المادة التي فسي  
متناولها سوى الحالات التي تتعلق بتكون الطباع .

وقفت فتاة من الامور كافة موقفا يناقض الموقف الذي تقفه  
منها امها ، وغرست في نفسها جميع الصفات التي ما كانت  
تجدها في والدتها ، وتحاشت كل ما يحاكيها او يشابهها .  
ولنصف الى ذلك انها بدأت في طفولتها الاولى ، مثلها مثل كل  
فتاه صغيرة ، بالتشبه بوالدتها ، ولم تشرع بالنفور من هذا  
التماهي وبالتمرد عليه بقوة الا بعد ان شبت عن الطوق . بيد  
انها ما كادت تتزوج وتصبح امرأة وأما ، حتى عادت - لا تأخذنا  
الدهشة من ملاحظة ذلك - تحاكي اكثر فأكثر تلك الام العدوة  
الى ان انتهى بها المطاف الى التماهي بها كما في الماضي . ومثل  
هذه الظاهرة نلاحظها ايضا لدى الصبيان ؛ وغوته العظيم نفسه ،

الذي أضمر بلا جدال في حدائته ازدياء واحتقار لأب متصلب مدقق متنطس ، راح يقلد أباه هذا في بعض سمات طبعه حين تقدم به العمر . وهذه النتيجة الفت للنظر وأكثر استرعاء للانتباه أيضا فسي حال تباين صارخ بين الشخصين . ثمة شاب قضى عليه القدر بأن يترعرع فسي كنف أب سافل ، فغدا فسي البداية ، وبخافز الثورة عليه ، فتى مستقيما ، مجدا ، مغمم القلب بحسن النية وطيب الإرادة . ولكن خلقه ما لبث ان تغير حين بلغ سن الرشد ، ويات يسلك مسلك من جعل أباه ذاك قدوة له . وحتى لا يفيب عن انظارنا الرباط الذي يربط هذه الوقائع بموضوعنا ، لتتذكر ان مثل هذا التطور يبدأ على الدوام بتماه مبكر بالاب . وفي زمن لاحق يتم العدول عن هذا التماهي ، بل يقابل بنقيضه ، لكنه لا يلبث في خاتمة المطاف ان يعاود ظهوره ويتوكد نهائيا .

ليس بيننا من لا يعلم ان وقائع السنوات الخمس الاولى من الحياة تمارس على وجودنا تأثيرا حاسما لا يستطيع اي شيء ان يبطل مفعوله فيما بعد . ولا ريب في ان المجال يتسع للكلام كثير عن الكيفية التي تقاوم بها هذه التجارب المبكرة جميع الجهود التي تبذل فيما بعد لتعديلها وتغيير مسارها ، ولكن مثل هذا التوسع ليس موضعه هنا . بيد ان ما قد لا نعرفه عميق المعرفة هو ان اقوى التأثيرات المتسلطة على الانسان تنبع من انطباعات جرى تلقيها في زمن من الطفولة لم يكن فيه جهاز الطفل النفسي - على ما نعتقد - قد أمسى مهيبا لاستقبالها . صحيح ان الواقعة لا تقبل نقاشا في حد ذاتها ، ولكنها تبدو مذهشة للغاية الى حد نجد انفسنا معه مكرهين على محاولة تفسيرها ، بتشبيها تلك السيورة بصورة فوتوغرافية سلبية قابلة لان تحمض وتظهر وتحول الى صورة حقيقية في امد من الزمن قد يطول او يقصر . ومهما يكن من امر فلنلاحظ بغبطة وسرور ان ثمة كاتباً واسع المخيلة ، جريئها ، على حد ما هو متوقع من شاعر ، قد اكتشف

قبلي هذا الاكتشاف المذهل . فقد كان إ. ث. أ هوفمان (٢٢) يعزو غنى كتاباته بالشخصيات الخيالية الى تنوع الصبغ والانبعاثات التي تلقاها اثناء رحلة دامت اسابيع عدة في عربة للبريد يوم كان ما يزال رضيعا يمص ثدي أمه . وكل ما امكن لطفل في الثانية من العمر ان يراه من دون ان يفهمه قد لا يعود ابدا الى ذاكرته ، اللهم الا في احلامه . ولن يكون في استطاعه ان يطلع على تلك الاحداث وان يتعرفها الا عن طريق المعالجة التحليلية . بيد ان هذه الاحداث ، التي تتمتع بقوة إلزام هائلة ، قابلة لان تعاود ظهورها في حياة المرء ، فتلمي عليه افعاله ، وتحدد ما يميل اليه ويجتذبه وما ينفر منه ويصده ، وتقرر في كثير من الاحيان اختياره الغرامي حين يكون هذا الاختيار - وهذه حالة كثيرة التواتر - غير قابل لان يدافع عنه من وجهة النظر العقلانية . ولا يجوز لنا ان نتجاهل النقطتين اللتين ترتبط عندهما هذه الوقائع بمشكلتنا . فهناك ، قبل كل شيء ، مرور الزمن وتقدمه (٢٤) . وهو هنا العامل الاساسي فيما يتعلق : على سبيل المثال ، بنلك الحالة الخاصة من حالات الذاكرة التي نطلق عليها اسم «اللاشعور» . افسلنا واجدين هنا تشابها مع الوضعية التي نعزوها الى المآثور في الحياه العاطفية لشعب من الشعوب؟ بيد انه يخلق بنا ان نضيف انه ما كان من السهل تطبيق مفهوم اللاشعور على علم النفس الجمعي .

- 
- ٢٣ - ارنست نيودور انادوسي هوفمان : روائي وموسيمي الماني (١٧٧٦ - ١٨٢٢) عرف بجسوح الخيال وبدقة الملاحظة في آن مما . «المرجم»  
٢٤ - لتترك الكلام مرة اخرى للشاعر . اليكم كيف يفسر هواه :  
«لقد كنت في آبد الاثمنه  
أختي او زوجتي فعلا» .  
(فوته ، المجلد ٤ من مؤلفاته الكاملة : طمة فايماز ، ص ٩٧) .

ثم ان الإواليات عينها التي تتسبب في ظهور ضروب العصاب تلعب دورها على الدوام في الظاهرات التي ندرسها هنا . ففي كلتا الحالتين تقع الاحداث المؤثرة المحددة (بالكس) فسي عهد الطفولة الاولى ، ولكن العامل الاساسي في الحالة الاخيرة ليس الزمن وانما طبيعة التطور الذي سار في اتجاه معاكس لاتجاه الحدث ، وكذلك طبيعة رد الفعل على هذا الاخير . وإليك، بصورة مبسطة ، كيف تجري الامور: فالحدث يخلق مطلبا غريزيا يريد ان يلقي تلبية . ويعارض الانا هذه التلبية اما لانه يجد نفسه مشلولاً امام ضخامة المطلب وشططه ، وإما لانه يجد هذا المطلب خطراً . وأول هذين السببين اكثرهما بدائية ، بيد انهما كليهما يفضيان الى تجنب وضع محفوف بالمخاطر . فالانا يدب عن نفسه الخطر باستخدامه ظاهرة الكبت ، مما يؤدي بصورة من الصور الى تعطيل الانفعال الغريزي الجنسي وإبطال مفعوله، والى تناسي الاستئارة وما يواكبها من ادراكات وتصورات . بيد ان هذا لا يعني اكنمال السرورة وانهاؤها ، وذلك اما لان الدافع الغريزي الجنسي يظل محافظاً على قوته ، وإما لانه ينزع الى استعادتها ، وإما لانه يعود اخيراً الى سابق نشاطه بتأثير حادث جديد . وبذلك ايضا يعود الى فرض مطالبه ، ولكن نظراً الى ان طريق التلبية السوية . الطبيعية ، يظل مسدوداً بفعل ما نطلق عليه اسم «ندبة» الكبت ، نجده ينشق لنفسه في موضع ما ، عند نقطة لا يتوفر لها جيد الحماية ، منفذاً آخر الى تلبية بدلية مزعومة تظهر بمظهر العرض المرضي ، وهذا كله من دون تفهم الانا او موافقته . وفي المستطاع ان نعد جميع ظاهرات تكوين الاعراض المرضية «عودات للمكبوت» . ويتجلى طابعها المميز في التشويه الذي تتعرض له العناصر المعادة انبجاسها بالمقارنة مع شكلها الاولي الاسلي . وربما لامنا هنا لائم على اننا شططنا نأب عن المقارنة التي كنا نود ان نجريها مع الماثور بتركيزنا اهتمامنا



على تلك المجموعة من الوقائع . ولكن لا ناسفن على ذلك اذا كان  
قد امكننا ، بهذه الطريقة ، ان نحيط عن قرب اقرب بمشكلة  
نكران الفرائز الجنسية والنكوص عنها .

- ٨ -

### الحقيقة التاريخية

لقد اردنا ، من هذه الاستطرادات كلها ، ان نبرهن على ان  
الدين الموسوي لم يمارس تأثيرا على الشعب اليهودي الا يوم  
تحول الى ماثور . ولا شك في ان كل ما افترضناه لا يعدو ان  
يكون احتمالات . ولكن حتى على فرض اننا حوزنا على برهان اكيد  
قاطع ، فهذا لن يغير شيئا من الانطباع الذي يراودنا باننا اهملنا العامل  
الكمي في الموضوع ولم نقم اعتبارا الا للعامل النوعي وحده . فكل  
ما يمت بصلة الى تأسيس ديانة من الديانات - وهذا ينطبق ايضا  
بالداهة على تأسيس الديانة اليهودية - موسوم بطابع جليل  
عظيم لا تكفي تفسيراتنا قاطبة لتسليط كامل الضوء عليه . اذ لا  
بد ان هناك عنصرا آخر ، شيئا ما لا يحتمل التشبيه بغيره ،  
وليس له من معادل البتة ، شيئا فريدا في نوعه لا يمكن ان  
يقاس الا تبعا لنتائجه ، ومرتبته من العظمة هي في مرتبة الدين  
بالذات .

لنحاول الان ان نتناول موضوعنا من الجانب العاكس . فنحن  
ندرك ان البدائي بحاجة الى إله خالق للعالم ، وزعيم لقبيلته ،  
وحام شخصي له . وتأتي مكانة هذا الإله بعد الاجداد البائدين  
الدين حافظ المانور على شيء من ذكراهم . ويسلك انسان  
العصور الاكثر تأخرا ، وعلى سبيل المثال انسان عصرنا ، المسلك  
نفسه . فقد لبث هو الآخر رهين مرحلة الطفولة ، وهو بحاجة

الى الحماية حتى في سن الرشد ، ويشعر بدوره بأن ليس في وسعه الاستثناء عن عون ربه ومؤازرته . هذه حقيقة مسلم بها، بيد أننا لا نفهم بالوضوح نفسه لماذا لا يجوز ان يكون هناك اكثر من إله واحد ، ولماذا يرتدي الانتقال من تعدد الآلهة الى التوحيد مثل تلك الاهمية القصوى . صحيح ان المؤمن ، كما سبق ان قلنا ذلك ، يشارك في عظمة إلهه ، وصحيح ان هذا الإله كلما كان اقوى كانت الحماية التي يسعه توفيرها له اكثر نجما وفعالية . ولكن قوة الاله لا تفترض وحدانيته . ولقد كان عدد كبير من الشعوب يكنّ المزيد من التقدير والتوقير لإلهه كلما كان هذا الاله يسود ويسيطر على كثرة كثيرة من آلهة دنيا اخرى . وما كانت هذه الشعوب ترى ان وجود تلك الآلهة الاخرى يقلل من عظمة الإله الرئيسي . فضلا عن ذلك ، خسر الانسان ، حين اعترف بشمولية الاله ، شيئا من صلته الحميمة بهذا الاخير الذي بات مطالبا بأن يولي اهتمامه للبلدان قاطبة والشعوب كافة . لقد كان عليه ، اذا صح التعبير ، ان يشاطر الاجانب والغرباء إلهه وأن يعزي نفسه بافتراضه انه هو الاثير والمصطفى دون غيره من بني البشر . ولنلاحظ ايضا ان فكرة الإله الواحد بتطوي على تقدم في الروحانية ، بيد انه يخلق بنا الا نعلق اهمية كبرى على هذه النقطة .

لقد وجد المؤمنون ، على كل حال ، وسيلة لردم هذه الثغرة الظاهرة الصارخة في التعليل . فهم يزعمون ان فكرة الله لم يكن لها تلك السطوة الهائلة على البشر الا لانها تنبع من الحقيقة الخالدة التي انكشفت للعيان ، بعد طول استتار ، فطوحت بكل ما كان قائما قبلها . واننا للزمن بالاقرار بأن هذا عامل يتناسب وسعة الموضوع مثلما يتناسب وسعة نتائجه .

لقد كان يرضينا ، نحن ايضا ، ان نأخذ بهذا الحل لولا أننا نصطدم بعقبة كآداء . فالمحاجة الدينية مبنية على فرضية

متفائلة ومثالية النزعة . فالبرهان لم يقم قط لا على ان العقل البشري تمتع في يوم من الايام بقدرة خاصة على تمييز الحقيقة ولا على ان الفكر البشري نزع ذات يوم بالتخصيص الى القبول بالحقيقة . انما نعلم ، على العكس ، ان الدهن البشري يضيع ويتيه بسهولة فائفة بغير ما شعور منا، واننا لنصدق بسرعة كل ما يداهن رغباتنا ويدغدغ اوهامنا من دون ان نكتثر للحقيقة ونعبأ بها . ولهذا لا يسعنا ان نأخذ بعناصر هذا الرأي بلا تحفظ . واننا لنعتقد ، نحن ايضا ، بأن الحل الذي يقترحه المؤمنون صحيح تاريخيا لا ماديا . وعليه فاننا نطالب بالحق في تصحيح بعض التحريف الذي ألم بتلك الحقيقة حين عاودت ظهورها . اي اننا اذا كنا لا نؤمن بوجود إله اعلى كلي القدرة اليوم ، فاننا نعتقد بالمقابل انه وجد في الازمنة البدائية شخص تجلت فيه سيماء العملاقة ، فرفع في وقت لاحق الى مصاف الآلهة ، ثم عاود انبثاقه في ذاكرة البشر .

كنا قد افترضنا ان الدين الموسوي عاود ظهوره في زمن متأخر بعد ان كان جُحد ونبد وأسدل عليه ستار النسيان جزئيا . ونحن نقر الان بأن هذه السيرورة لم تكن الا تكرارا لسيرورة سابقة . فحين اعطى موسى الشعب فكرة إله واحد ، لم يات في الواقع بجديد ، وانما نفخ روح الحياة ثانية في حدث قديم يرجع الى الازمنة البدائية من تاريخ الاسرة البشرية ، حدث اكل الدهر عليه وشرب ففاب عن ذاكرة البشر الواعية منذ سحيق العصور . ولكن هذا الحدث كان على درجة عظيمة من الاهمية ، وتسبب في تغيرات هائلة في وجود البشر او بالاحرى مهد السبيل امامها ، مما يبيح لنا ان نعتقد بأنه ترك في النفس البشرية اثرا عميقا قابلا للتشبيه بمأثور .

ينبئنا التحليل النفسي للافراد ان ابكر الانطباعات ، تلك التي تلتقي في الزمن الذي يكون فيه الطفل ما يزال يتمتم بالكلام ويتلثم به ، تؤتي ذات يوم ، حتى من دون ان تعاود الظهور ،

نتائج تسلط على المرء وتقض مضجعه . ويخيل اليانا ان ذلك ينبغي ان ينطبق ايضا على ابكر الاحداث التي تحياها البشرية . واحدى نتائج هذه الاحداث ، انطلاقا من هذا الغرض ، هي على وجه التحديد ظهور مفهوم إله واحد كلي القدرة . صحيح ان هذا المفهوم لا يعدو ان يكون ذكرى مشوهة محرفة ، ولكنها ذكرى واقعية على كل حال . ولهذا المفهوم صفة تسلطية ، وهذه حقيقة ينبغي التسليم بها بلا جدال . وفي وسعنا ان نطلق عليه اسم الجنون بمقدار ما يكون مشوها محرفا . وبالمقابل ينبغي ان نطلق عليه اسم الحقيقة بمقدار ما يسلط ضوعا ما على الماضي . وجنون المرضى العقليين ينطوي بداته على جزء من الحقيقة ، ويقين المريض الراسخ يبنى على هذا الجزء من الحقيقة قبل ان يطوي تحت جناحه البنيان الجنوني بأسره . ولن تكون السطور التالية الا تكرارا بلا تعديل يذكرر لمبشي الاول .

لقد حاولت في الطوطم والثابو ، في عام ١٩١٢ ، ان اعيد بناء الوضعية القديمة التي تربت عليها تلك النتائج كلها . ولقد استخدمت ، لهذا الغرض ، بعض تأملات نظرية لشارلز داروين وآكنسون ، وعلى الاخص روبرتسون سميث ، منسقا اياها مع بعض اكتشافات التحليل النفسي وبعض ايحاءاته . ولقد اقتبست عن داروين الفرضية القائلة ان بني الانسان عاشوا في بادئ الامر في شكل عشائر صغيرة وان كل عشيرة كانت تزوج تحت نسر السلطة الطافية الفظة للذكر متقدم في العمر فرض عسفه على فتية كان بعضهم من ابناؤه ، او تخلص منهم بكل بساطة . ولقد اخذت ايضا بوصف آكنسون لنهاية النظام الابوي : فقد تضافر الابناء المتوردون واتحدوا ضد ابيهم ، وقهروه وغلبوه على امره ، ثم افترسوه سوية . وسلمت بعد ذلك ، استنادا الى نظرية روبرتسون سميث عن الطوطم ، بان عشيرة الاخوة الطوطمية

حلت محل عشيرة الاب . فحتى يتمكن الاخوة المنتصرون من العيش في سلام صرفوا النظر عن النساء اللاتي اغتالوا نفسي سبيلهن والدم ، واقاموا نظام الزواج الخارجي . وعقب تحطيم قوة الاب على هذا النحو نظمت الاسر اوضاعها تبعا للقوانين الامومية . ولقد استمرت ازدواجية عواطف الابناء تجاه ابيهم على امتداد المرحلة التالية من التطور . ووقع الاختيار على حيوان معين ليكون طوطما بدلا عن الاب وفي مكانه ، وعند هذا الطوطم السلف الاول والروح الحامية ، وحظر مسه باذى او قتله . بيد ان العشيرة كانت تجتمع بكامل اعضائها ، مرة في السنة ، حول مادة يتم فيها تمزيق الحيوان الطوطم اربا اربا والتهامه جماعيا . وما كان مباحا لاي فرد الاستنكاف عن المشاركة في هذه الوليمة التي كانت تكرر احتفاليا لجريمة قتل الاب ، تلك الجريمة التي كانت بمثابة فاتحة لنظام اجتماعي جديد ولقانون اخلاقي جديد ولدين جديد . وقد دهش العديد من المؤلفين قبلي للعلاقة القائمة بين الوليمة الطوطمية التي وصفها روبرتسون سميت وبين تناول القربان المقدس لدى المسيحيين .

واني ما ازال الى اليوم متمسكا بهذه النظرة الى الامور . وقد انحى علي اللاثمون بالتقريب الشديد ، اكثر من مرة ، لانني لم اعدل آرائي في الطبقات الحديثة العهد لكتابي ، مع ان المحدثين من علماء العراق (٢٥) رفضوا ونبذوا ، متصافرين متكافلين ، نظريات روبرتسون سميت ، واستغنوا عنها بنظريات مغايرة لها كل المغايرة . ورددي على ذلك هو انني ، مع اطلاعي واسع الاطلاع على كل هذا التقدم المزعوم . لست مقتنعا بصحة الاسس التي بني عليها ، كما انني لست ممتنعا باخطاء روبرتسون سميت .

فالجِدال ليس بالضرورة دحضا وتفنيدا ، والتجديد لا يعني على الدوام تقدما . ثم انني ، بعد هذا وذلك ، لا اعد نفسي عالما في العِراقة ، بل محللا نفسيا ، وعليه فقد كان من حقي ان أستخلص من معطيات علم العِراقة ما كنت بحاجة اليه في مبثني التحليلي النفسي . ولقد قدمت لي كتابات العبقرى روبرتسون سميت نقاط تماس واتصال ثمينة مع المادة السيكولوجية المطلوب تحليلها، كما قدمت الي في الوقت نفسه ابحاث حول كيفية استخدام هذه المادة . والحال انه لا يسعني ان اقول الشيء ذاته عن ابحاث معارضية ومناقضية .

- ٩ -

### التطور التاريخي

لا أستطيع ان اُنقل بالتفصيل فحوى الطوطم والتابو ، لكنى سأحاول ان اردم الهوة التي تفصل بين تلك الاحداث البدائية المفترضة وبين انتصار التوحيد في مرحلة تاريخية لاحقة . فبعد ارساء أسس عشيرة الاخوة ونظام الامومة والزواج الخارجى والطوطمية ، تحقق تطور يسعنا ان نرى فيه «عودة بطيئة للمكبوت» . ونحن لا نستخدم هنا كلمة «مكبوت» بمعناها الحرفى . بل هي تشير الى شيء مضى وباد وتجاوزته الاحداث في حياة شعب من الشعوب ، ونحن نحاول ان نعامل هذا الشيء وكأنه معادل للمادة المكبوتة في نفسية الفرد . ولسنا نملك بعد ان نحدد الشكل السيكولوجى الذى يستمر الماضى فيه نفسى فترة اظلامه وهموده . وليس من اليسر اصلا ان ننقل مفاهيم علم النفس الفردى الى علم النفس الجمعى، وان الشك ليساورنى

في ان يكون هناك نفع او جدوى من ارساء اساس مفهوم عن لا شعور «جمعي» (٢٦) . افليس مضمون اللاشعور ، على كل حال ، جمعيا ؟ افلا يشكل خاصة عامة من خواص البشرية ؟ اذن يخلق بنا ، في الوقت الحاضر ، الا نعتمد الا على تشابهات . فالظواهر التي تحدث في حياة الشعوب تشبه الى ابعد الحدود تلك التي يعرفنا بها علم النفس المرضي ، ولكن من دون ان تكون متطابقة وياها تمام التطابق . وانخلص من ذلك الى القول بان الرواسب النفسية من تلك الازمنة البدائية شكلت ميرانا كان على كل جيل جديد ان يميط اللثام عنه لا ان يعاود الاستيلاء عليه . لنمعن النظر ، على سبيل المثال ، في رمزية اللغة التي تبسود بالناكيد فطرية . ترجع هذه الرمزية الى العهد الذي رات فيه اللغة النور ، وهي مالوفة من الاطفال كافة من دون ان يلقنهم احد شيئا عنها . وهذه الرمزية واحدة لدى الشعوب قاطبة بالرغم من تنوع اللغات . وتقدم لنا مباحث التحليل النفسي المزيد من المعلومات حول عدد من النقاط التي تحوم حولها الشكوك . فنحن نلاحظ ان ردود افعال اطفالنا في العديد من الظروف الهامة لا تأتي على النحو الذي كان يفترض ان تمليه عليهم تجربتهم الخاصة ، بل تأتي على نحو غريزي ، على منوال الحيوانات ، وهذا ما لا تفسير له الا بردة وراثية نسالية .

تم عودة المكبوت ببطء ، وليس بصورة عفوية ، بل تحت تأثير جميع التغيرات الطارئة على شروط الحياة ، هذه التغيرات التي يحفل بها تاريخ الحضارة البشرية . ولا يسعني ان أمحص هنا ظروف هذه التغيرات ، ولا ان أقدم اكثر من تعداد ناقص لمراحل تلك العودة . فقد صار الاب من جديد زعم الاسرة ،

---

٢٦ - ربما كان ينبغي ان نرى في كلام فرويد هذا ردا غير مباشر على تلميذه المشق عليه كارل يونغ صاحب نظرية «اللاشعور الجمعي» . «المرجم»

ولكن من دون ان يستعيد كلية قدرة ابي العشرة البدائية . وفي خلال مراحل انتقالية واضحة الحدود ، طرد الإله الحيوان الطومبي واحتل مكانه . وفي بادئ الامر لبث الاله ، في شكله البشري ، محتفظا برأس الحيوان . وفي زمن لاحق اخذ بطيية خاطر شكل هذا الحيوان بالذات ، ثم غدا الحيوان مقدسا في نظره ، فاتخذ منه رفيقا مقدما اثرا ؛ وفي احيان اخرى نراه يقتل الحيوان ويضيف اسمه الى اسمه . وبين الحيوان الطومب والإله ، ظهر الى حيز الوجود البطل ، ولم يكن ذلك في كثير من الاحيان سوى مرحلة مبكرة من التاليه . ويبدو ان فكرة إله اعلى قد رات النور باكرا ، ولكن في صورة مبهمه غامضة في البداية ودونما صلة بمشاغل الانسان اليومية . وحين اجتمعت القبائل والشعوب في وحدات اوسع نطاقا ، نظمت الالهة نفسها في أسر وفي مراتب متسلسلة . وفي احيان كثيرة كان احد الالهة يعظم شانا ، فيغدو سيد سائر الالهة والبشر . اما المرحلة التالية ، المرحلة التي افضت الى عبادة إله واحد ، فلم يتم اجتيازها الا بتردد . وفي خاتمة المطاف توصلت البشرية الى عبادة هذا الإله الأوحد ، فنسبت اليه كلية القدرة ، ولم تقبل الى جانبه باي إله آخر . وعندئذ فقط عادت لابي العشرة البدائية عظمتها كلها ، وبات في الامكان ان تتكرر الانفعالات التي كان يشيها .

لقد كان لاعادة الاتصال هذه بما حرم البشر منه على مدى اجيال واجيال ، وبما كانوا اليه يصبون ويتوقون ، كان لها وقع هائل واثر ساحق ، نلفى وصفا دقيقا لهما في ما رواه الماثور عن كيفية نزول الشريعة في طور سيناء . فقد عمرت افئدة الشعب بالاعجاب والاحترام والتقدير وعرفان الجميل لذلك الإله الذي قدم له البرهان على اثاره اياه ومحاباته له : فدين موسى لا يعرف سوى هذه المشاعر الايجابية تجاه الله الاب . وما كان



الايمان بجبروت الله والامثال لإرادته ليبلغا اقصى مما بلغاه لدى الابن الخائف من ابي العشرة البدائية ، الاعزل من وسائل الدفاع حياله ، وما اسهل علينا ان نتصور ذلك الايمان وهذا الامثال وان نفهمهما لو انتقلنا ، بالفكر ، الى وسط او بيئة طفولية بدائية . فالانفعالات الطغولية اكثر شدة وابعد غورا بكثير من انفعالات الراشدين ، ولا يمكن لغير الوجد الديني ان يضرم جدوتها من جديد . هكذا كان رد الفعل الاول على عودة الاب الكلي القدرة فورة في الورع والتقوى .

لعد تحدد اذن الى الابد مسار تطور دين الاب هذا ، ولكن هذا لا يعني ان التطور نفسه قد اكتمل . فالازدواجية هي صفة اساسية من صفات العلاقات بين الاب والابن . ولم يكن هناك مناص من ان يتجلى من جديد مع مر العصور العداء الذي كان قد حث الابناء في احد الايام على قتل الاب الذي كان موضع اعجاب ورهبة في آن واحد . ولكن نظرا الى انه لم يعد هناك مجال ليحتل الحقد المميت على الاب مكانا له في اطار الدين الموسوي ، فقد كان رد الفعل الجامح الوحيد الذي يمكن ان يعلن عن نفسه هو الشعور بالذنب وتبكيك الضمير على الخطيئة التي اقترفت وما تزال تقترف بحق الله . ولقد كان لهذا الشعور بالذنب ، الذي ما ونى الانبياء يفلونه ويؤججون جدوته ، والذي سرعان ما امسى جزءا لا يتجزأ من النظام الديني ، اقول : كان له ايضا دافع آخر سطحي يخفي بحلق وارابة اصله ومنشاه الفطليين . فقد مر الشعب باويقات عصبية ، ولم تأخذ الامال التي كان قد علقها على الله طريقها السريع الى التنفيذ ، وبات من الصعب بالفعل على الشعب ان يثابر على ايمانه بانسه الشعب المختار . وحتى لا يتخلى عن هذه السعادة ، كان لا بد ان ياتي شعور بالذنب ووعي بالخطيئة التي اقترفت لتبرئة ساحة الإله فسي الوقت المتناسب . وبالفعل ، ان الرب لم يعاقب الشعب الا لانه

انتهك حرمة شريعته . وتحت دافع الحاجة الي التخفيف من حدة تبيكيت الضمير وغلوائه المتأصلة الجذور ، وجد الشعب نفسه مرغما على ان يزيد باستمرار من قسوة تلك الشريعة ومسن صرامتها ، وكذلك من صفارها . وفي فورة جديدة من التقشف والزهد ، فرض اليهود على انفسهم انكارات جديدة للفرائز وتوصلوا عن هذا السبيل ، في النظرية والمذهب على الاقل ، الى ادراك ذرى اخلاقية شاهقة عصي بلوغها على سائر شعوب العهد القديم . ولقد رأى عدد من اليهود في هذه المطامح السامية السمة المميزة الكبرى الثانية لدينهم ومآثرته العظمى الثانية .

ومساعانا هنا منصب على بيان ارتباط هذه المطامح بالفكرة الاولى، بتصور إله واحد . فمما لا مرية فيه ان اصل هذه الاخلاق يرجع الى شعور بالذنب يرتد بدوره الى شعور مكبوت بالحقد على الإله . والصفة الثابتة لهذه الاخلاق انها لا تكتمل ولا يمكن ان تكتمل ابدا ، مثلها مثل التكوينات الارتكاسية التي نلاحظها في ضروب العصاب الوسواسي . ولا يعسر علينا ان نتكهن ايضا بأن هذه الاخلاق قامت سرا مقام قصاص وعقاب .

اما ما حدث بعد ذلك فيتمدى اليهودية ويتخطاها . فثمة عناصر اخرى اثبتت من المأساة التي دارت أحداثها حول شخص الاب البدائي لا تتفق ولا تنسجم البتة مع الدين الموسوي . فالشعور بالذنب لم يبق وقفا ، في ذلك العصر ، على اليهود . فقد انتقلت عدواه الى جميع شعوب حوض البحر الابيض المتوسط في شكل قلق غامض مبهم وحس داخلي او حدس مسبق حزين ما كان في استطاع احد ان يجد تعليلا له او تفسيرا . يتكلم المؤرخون المحدثون عن شيخوخة ثقافة العهد القديم وهرمها ، واني لاميل كل الميل الى الاعتقاد بانهم لم يروا، في أقول الشعوب هذا ، سوى الاسباب العارضة والثانوية . وعلى كل ، ان اليهودية هي التي اوجدت المخرج من هذا الوضع

الصعب . فبالرغم من ان السبل كانت قد مُهدت من جوانب مختلفة ، فانما في ذهن رجل يهودي ، شاؤول الطرسوسي الذي كان يدعى بولس بصفته مواطنا رومانياً ، ولدت الفكرة التالية : «اذا كنا نكابد من هذا القدر من الشقاء ، فلاننا قتلنا الله الاب» . ولا يعسر علينا البتة ان ندرك انه ما امكن له ان يستوعب هذه الحقيقة الا في شكل اسطوري ، مغلوط ، تمثل في زف هذا النبا السعيد : «ها نحن قد تحررنا من كل اثم منذ ان ضحى واحد منا بحياته ليفتدي خطايانا كافة» . وغني عن البيان اننا لا نجد في هذه الصيغة اشارة الى مقتل الإله ، ولكن ما الجريمة التي لا يمكن التكفير عنها الا بالضححية بحياة ان لم تكن جريمة قتل ؟ ولقد قيل ، ناهيك عن ذلك ، ان المضحى به كان ابن الله بالذات ، وهذا ما يصل الجسور بين الوهم والحقيقة التاريخية . ولقد امكن للعقيدة الجديدة ، المستمدة قوتها من حقيقة تاريخية، ان تدلل العقبات جميعا ، فأحلت محل الشعور بالاصطفاء والايثار ، ذلك الشعور الساحر للالباب ، عزاء الغداء الذي فيه خلاص النفس وطمانيتها . بيد ان واقعة اغتيال الاب كان عليها، حين انبثقت ذكراها من جديد في حافظة البشر ، ان تدلل عقبات اعظم بكثير من تلك التي واجهتها واقعة الاغتيال الاخرى التي كونت جوهر التوحيد . كذلك تعرضت هذه الواقعة لتشويهات وتحريفات اكبر واعظم أيضا . فقد استغني عن جريمة القتل ، التي كان من المتعذر ان يرد لها ذكر ، بمفهوم غامض حقا هو مفهوم الخطيئة الاصلية .

الخطيئة الاصلية وافتداء البشر بالضححية بحياة : هذان هما الاساسان اللذان قامت عليهما الديانة الجديدة التي أسسها بولس . هل وجد حقا وفعلنا داخل عشيرة الاخوة التمرديين داعية الى القتل ومحرض عليه ، ام ان هذه الشخصية قد جرى اختراعها فيما بعد وادرجها الشعراء في المأثور تعظيمها

بانفسهم ؟ هذا سؤال لا نملك له جوابا . اما المذهب المسيحي فقد اقتبس ، بعد ان نسف اطرا اليهودية ، عناصر اخرى من مصادر اخرى عديدة ، وتخلّى عن بعض سمات التوحيد المحض الذي لا تشوبه شائبة ، وتبنى عددا من الخصائص الطقسية التي كانت تتميز بها سائر شعوب حوض البحر الابيض المتوسط . ولقد جرى كل شيء وكأن مصر راحت تنتقم من ورثة إخناتون . ومن المناسب ان نلاحظ هنا الطريقة التي حل بها الدين الجديد مشكلة الازدواجية في العلاقات بين الاب والابن . فصحيح ان الواقعة الرئيسية في هذا الدين كانت المصالحة مع الله الاب والكفارة عن جريمة اقترفت بحقه ، ولكن برز كذلك الي حيز الوجود شعور معاكس ناجم عن واقع ان الابن ، حين اخذ على عاتقه كل وزر الخطيئة ، اصبح هو نفسه إِلَهاً الى جانب ابيه أو بالاحرى مكانه . وبكلمة واحدة ، لقد تحدرت المسيحية من دين للأب لتغدو دين الابن، فما أمكنها ان تتحاشى إقصاء الاب جانيا . ولم يعتنق المذهب الجديد سوى شطر فقط من الشعب اليهودي ، اما اولئك الذين ردوه فما زالوا يدمون الى اليوم باليهود . وهم يجدون انفسهم ، في الساعة الراهنة ، وبنتيجة ذلك القرار ، اشد انفصالا مما في الماضي عن سائر العالم . ولقد انحت الطوائف الدينية الجديدة التي ضمت ، علاوة على اليهود، مصريين ويونانيين وسوريين ورومانيين ، وفي زمن لاحق جرمانيين ايضا ، انحت باللائمة والتقريع على اليهود لقتلهم الله . ولو اردنا تصور النص الحرفي لهذا الاتهام لقلنا انه كما يلي : «انهم لا يقرون بانهم قتلوا الله ، بينما نحن نعترف بذلك ، وقد غفرت لنا هذه الجريمة» . ويسهل علينا ان نرى وجه الحقيقة المستتر وراء هذا المآخذ . وانه لمن المثير للاهتمام ، على كل حال، ان نبحث ، في اطار دراسة خاصة ، عن السبب الذي حال بين اليهود وبين التقدم في نفس اتجاه الآخرين باعتناقهم ديانة تقرأ بالرغم من كل التشويهات والتحريفات ، بجريمة قتل الله .

والحق ان اليهود تحملوا بذلك مسؤولية ثقيلة يدفعون اليوم  
نمناها غالبا باهظا !

لعل بحثنا سلط بعض الضوء على الطريقة التي اكتسب بها  
الشعب اليهودي السمات المميزة له . ولكن كيف أفلح فسي  
صيانة فرديته الى يومنا هذا ؟ ان هذا السؤال لم يحظ بعد  
بتفسير . وانه لمن الحكمة ان نقلع عن محاولة ايجاد حل كامل  
لهذا اللغز . اما ما أتبع لي ان أقدمه في دراستي فلا يعدو ان  
يكون مساهمة بسيطة لا يجوز تقييمها الا اذا اخذت بعين الاعتبار  
الحدود التي ذكرتها في مطلع هذا المؤلف .

# الفهرس

٥	الفصل الاول : موسى ، مصري
٢١	الفصل الثاني : اذا كان موسى مصرياً
٧٥	الفصل الثالث : موسى وشعبه والتوحيد
٧٧	توطئة
٨١	توطئة ثانية
	القسم الاول
٨٤	١ - فرضية تاريخية
٩٤	٢ - مرحلة الكمون والمأثور
١٠١	٣ - التشابه
١١٢	٤ - التطبيق
١٢٨	٥ - نقاط شائكة
	القسم الثاني
١٤٢	١ - خلاصة
١٤٤	٢ - شعب اسرائيل

١٤٨	٣ - الرجل العظيم
١٥٤	٤ - التقدم في الروحانية
١٦٠	٥ - نكران الفرائز
١٦٩	٦ - نصيب الحقيقة في الدين
١٧٣	٧ - عودة المكبوت
١٧٧	٨ - الحقيقة التاريخية
١٨٢	٩ - التطور التاريخي